

أشواق

الجزء الأول

روايات مصرية للجيب

كتاب

كوكب



د. تبديل فاروق

Looloo

www.dvd4arab.com

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع

١٠٠ شارع سفيان بن عوف - القاهرة - ١١٥١١٠٠

١ - العائلة ..

تمايلت أشجار القطن الصغيرة ، ذات الثمرات البيضاء الناصعة ، عبر
مساحة شاسعة من الحقول ، وبدت في استجابتها لسمات الهواء أشبه بعذراء
طروب ، تفتح قلبها للحياة ، وانتعشت عروقها بحب نابض حالم ، فأسبلت
عينها ، وراحت تمايل مع خفقات قلبها ..

وفي نشوة ،
راح الحاج (محمد
البنهاوي) يراقب
أرضه الواسعة ،
وقد سرت في نفسه
نشوة نصر ، لم
تفارقه منذ زمن .

إنه يمتلك كل هذه الأراضي ..
يمتلك ألف فدان دفعة واحدة ..
وأطلق الحاج (البنهاوي) من أعماق
صدره تنهيدة قوية ، وهو يعود بذاكرته إلى
الوراء .

إلى ربع قرن مضى ..
كان آنذاك فقيراً معدماً ، نرح إلى تلك
القرية من قرى محافظة الغربية ، باحثاً عن
عمل ، أو مصدر جديد للرزق ، بعد أن
انقطعت أسباب رزقه في قريته ، القرية من مدينة (بنها) ، إثر شجار نشب بينه
وبين مأمور الناحية ..



من قلب الليل يأتي النهار ..
ومن قلب الظلم تأتي الرحمة ..
ومن المحال أن نأمل دوام الحال ..
د . نبيل فاروق



(الزوجة)

وفي تلك القرية ، بدأ حياته ..
وفيها حمل اسم (البهاوى) ، نسبة إلى أصله
وطوال ثلاثة أعوام كاملة ، راح يدخر
الملايم والقروش ، ويحيا حياة أقرب إلى
الضئك ، حتى استطاع شراء أول قطعة أرض ..
كانت قيراطين ، في واحدة من أفضل
أراضي القرية ..
وبامتلاكه القيراطين ، استطاع (البهاوى)
أن يتقدم للزواج من ابنة الحاج (علام) ، شيخ
القرية ..

وكانت هذه الزوجة هي قدم الخير ، كما
تقول الأمثال الشعبية ، فمع زواجه منها
تضاعف الرزق ، وانهالت عليه الأموال ، ومع ابنته الأولى (نعيمة) ، التي
أصر على أن يطلق عليها اسم أمه ، استطاع (البهاوى) أن يمتلك فدانا كاملا من
الأرض الزراعية الخصبة ، راح يعمل فيه بكل كد وجهد ، حتى ضاعفه إلى
فدانين في العام التالي ، مع مولد (توحيدة) ، ابنته الثانية ..
وعلى الرغم من سعادته بإنجاب (توحيدة) ، إلا أن جزءا من نفسه راح
يتمنى لو أنه أنجب ولدا يعاونه في عمله فيما بعد ، ويحمل اسمه إلى الأجيال
المقبلة ، ويرث الأراضي التي يحلم بامتلاكها ..
وعندما أصبح (البهاوى) يمتلك خمسة أفدنة دفعة واحدة ، أنجبت له
زوجته الابنة الثالثة (زينب) ، التي ورثت الكثير من جمال أمها ، بالإضافة إلى
أنف والدها الطويل ..
وتضاعف الحلم في أعماق (البهاوى) ..
حلم إنجاب الولد ..
وفي واحدة من جلساته مع شيخ الحفراء (بسيوى) ، سأله هذا الأخير ،
وعيناه تملآن غمّة حيث :

— الا تفكر في إنجاب ولد يا حاج ؟
تهد الحاج (محمد البهاوى) ، وغمغم في أسى :
— وهل ينجب المرء بالتمنى والتفكير ؟ .. إنها مشيئة الله (سبحانه وتعالى) .
أجابه (بسيوى) في دهاء :
— اسع يا عبد يسع الله (سبحانه وتعالى) معك .
التفت إليه الحاج (البهاوى) ، يسأله في دهشة :
— ماذا تعنى ؟
أجابه في دهاء :
— لو أن ابنة (علام) لاتنجب أولادا ، فغيرها تفعل .
ارتد الحاج البهاوى مذعورا ..
أبتزج أخرى ؟
أيطعن زوجته بلا جريرة ، سوى أنها لاتنجب أولادا ؟ ..
وماذا عن مشيئة الله (سبحانه وتعالى) ؟ ..
من أدراه أن الجديدة ستجب ذكورا ؟
وفي صرامة قال :
— لا يا (بسيوى) .. لن أتزوج أخرى .
أمسك (بسيوى) ذراعه ، وهو يقول في لهجة الناصح :
— صدقنى يا حاج .. الذكور عزوة .. من سيرث أرضك ؟ .. من سيعاونك
في شيخوختك ؟ لا بد من الولد .
أربكت العبارة تفكير الحاج (البهاوى) مرة أخرى ..
نعم .. من سيرثه ؟ ..
لا بد من الولد ..
لا بد ..
وعاد الحاج (البهاوى) إلى منزله ورأسه يدور ، وكلمات (بسيوى) تملأ
كيانه وأعماقه ..

هل يتزوج أخرى ؟
 هل يسعى إلى الولد ؟
 وفي تلك الليلة لم ينام الحاج (البهاوى) ..
 ظل ساهراً حتى الفجر ، يقيم الصلاة ، ويكثر من صلاة الاستخارة ، حتى
 اهتدى قلبه إلى قرار ..
 لن يتزوج أخرى ..
 سينتظر ..
 سينتظر رزقه ..
 وبعد صلاة الفجر ، نام الحاج (البهاوى) ملء جفنيه ..
 وبعد سبعة أشهر ، رزقه الله (سبحانه وتعالى) بالولد ..
 به (حسين) ..
 وكانت فرحة الحاج (البهاوى) لا توصف ..
 لقد أنجب الولد ..
 أنجب الوريث ..
 وأقام الحاج (البهاوى) احتفالاً كبيراً في القرية ، امتلأت فيه البطون
 بالخيرات ، ونقصت فيه خزانة الحاج إلى النصف تقريباً ..
 ولكنها عادت تمتلئ ..
 لم يكد (حسين) يبلغ عامه الأول ، حتى كان الحاج (البهاوى) يمتلك
 عشرين فداناً دفعة واحدة ، في نفس الوقت الذى أنجبت فيه زوجته
 (شريفة) ..
 وفي العام التالى ، كان يمتلك مائة فدان ، ويستطيع مصادقة عمدة القرية ،
 ودعوة مأمور الناحية لتناول الغذاء ، وزراعة عشرة أفدنة بالفواكه والمواالح ..
 وعندما أنجب ابنه الثانى (حافظ) ، كان قد صار من أثرياء القرية ، وبلغ
 مجموع ما يمتلكه مائتى فدان ..
 ومع مولد (ناهد) ، كان يمتلك مائتين وخمسين فداناً ..
 وفي النهاية جاء (مفيد) ، واكمل عدد الأفدنة ثلاثمائة فدان ..

وهكذا أصبح للحاج (البهاوى) عائلة كبيرة ، وأصبح له ثمانية أبناء ،
 خمس من الإناث وثلاثة من الذكور ..
 وقرر الحاج (البهاوى) أن يجعل عائلته على رأس عائلات القرية ، وراح
 يدرس الأمر طويلاً ، حتى توصل إلى أن أضلاع مثلث القوة هى : المال ،
 والنفوذ ، والعلم ..

وقرر أن يمنح أبناءه الأضلاع الثلاثة ..
 كان لديه المال ، بعد أن صار يمتلك أربع مائة فدان ..
 بقى أن يمنحهم العلم والنفوذ ..
 انقطعت أفكاره بغتة ، مع صوت يهتف به من بعيد في انفعال :
 — برقية يا حاج .. برقية من (القاهرة) ..
 التفت إلى صاحب الصوت في لهفة ..
 كان (عبد الحميد) ، العامل في أرضه ، وقد راح يعدو نحوه منفرج
 الأسارير ، ملوفاً بالبرقية ، عبر حقول القطن ، مستطرداً :
 — برقية من (حسين) بك ..
 وعلى الرغم من لهفته الشديدة ، ظل الحاج واقفاً في مكانه ، مكتفياً بابتسامة
 هادئة ، حفاظاً على وقاره وهيبته ، حتى بلغه (عبد الحميد) ، فأطرق برأسه
 أرضاً ، وكأنما لا يجزؤ على التطلع إلى وجه سيده ، وهو يناوله البرقية ، قائلاً في
 صوت اختلط انفعاله بلهائه :

— لقد وصلت على التو ، ورأيت أن
 أهرع بها إليك يا حاج ..
 تناول منه الحاج البرقية ، وفضها في
 توتر ، ولم يكد يقرأها حتى التمعت عيناه
 ببريق يشف عن فرحة عارمة ، وهو يقول :
 — لقد نجح سيدك (حسين) في
 الالتحاق بالكلية الحربية يا (عبد الحميد) ..
 هتف (عبد الحميد) في فرح :



(حسين)

— نبح " مبارك يا حاج .. سيصير سيدى (حسين) إذن من الضباط مبارك .. مبارك ..

ابتسم الحاج ابتسامة عريضة ، وهو يقول له فى سعادة ، عجز هذه المرة عن إخفائها :

— اذهب فأخبر الجميع ، وعلق الزينات والرايات ، وليشرب الجميع شراب نجاح سيدك (حسين) .

هتف (عبد الحميد) فى سعادة غامرة :

— سأفعل يا حاج .. سأفعل ..

قالها وهو يعدو عائدا إلى القرية فى سعادة ، فى حين ، تضاعف بريق الظفر فى عيني الحاج (البهاوى) ، وهو يتطلع مرة أخرى إلى أرضه المترامية الأطراف .. لقد نبح (حسين) ..

اقترب حلم الحاج (البهاوى) ..

لقد أصبح يمتلك المال .. ألف فدان دفعة واحدة ..

والعلم ، بعد أن التحق كل أبنائه بالمدارس كأبناء الأثرياء .. والآن النفوذ ..

أول خطوة فى طريق النفوذ ..

اليوم التحق (حسين) بالجيش ، ولن يلبث أن يصير ضابطاً مهاتماً ..

أى نفوذ أكبر من الجيش ..

إن أملده كله معقود على أبنائه الثلاثة . (حسين) ، و (حافظ) ،

و (مفيد) ، فالبنيات لن يكملن تعليمهن ..

تكفين المرحلة الابتدائية ..

وبعدما يتزوجن ..

واليوم بالذات ، مع قدوم خبر نجاح (حسين) ، سيلتقى بالشاب الذى

طلب يد (نعيمة) ..

فرحان فى يوم واحد ..

هكذا العائلة ..

عائلته ..

راح يخترق حقول القطن فى مهابة ، وعصاه تشق طريقها قبله ، عائدة معه إلى ذلك القصر الفاخر ، الذى يقيم فيه مع أبنائه ، والذى استبدله بذلك المنزل الصغير ، الذى تزوج فيه أمهم ..

أمهم التى رحلت منذ عامين أو يزيد ، وتركهم فى رعايته ..

وعندما بلغ القصر ، كانت الرايات والزينات تملأ المكان ، وأكواب الشراب تدور على المهنئين ، الذين استقبلوا الحاج بعبارات التهنة والدعوات الحارة ..

وفى المساء وصل (حسين) ..

واستقبلته القرية كلها استقبال الأبطال ، كأنما قد فتح الكلية الحربية ، أو استعمرها لحسابهم ..

ومع أذان العشاء قرأ الحاج (البهاوى) الفاتحة ، مع والد زوج ابنته (نعيمة) المقبل ، وأقيمت الأفراح والليالى الملاح .. ومع قدوم منتصف الليل ، هدأت الأمور ، وآوت (نعيمة) إلى فراشها وابتسامة الفرح تعلو شفيتها ، وإلى جوارها شقيقاتها ، وكلهن يحلمن بأن يأتى يوم قريب ترتدين فيه ثوب العرس ..

ومع سكون الليل ، جلس (حسين) مع والده ، الذى ابتسم ابتسامة واسعة ، وهو يقول له :

— مبارك يا ولدى ، أنت الآن على أول طريق القوة ، فالضباط هم القوة فى كل العصور والأزمنة .

رفع (حسين) حاجبيه فى نوع من الفطرس والغرور ، وهو يقول :

— هذا طيىمى ، فالضباط يملكون أسلحة القوة كلها .

٢ - القلب ..

كان حفل زفاف (نعيمة) رائعاً ، تحدثت عنه القرية ، والقرى المحيطة ،
طويلاً ، وحضره عمدة القرية ، وعمد القرى المجاورة ، ومأمور الناحية ،
وناصر عزبة الباشا القرية ..

ونحرت عشرات الذبائح في ذلك اليوم ..
ودارت أقداح الشراب بلا نهاية ..

وفي الحجرة المخصصة لكبار القوم ، جلس (حسين) إلى جوار والده الحاج
(البهاوى) مزهواً ، مرفوع الرأس ، منتشياً لكونه الابن الوحيد من أبناء
(البهاوى) ، الذى يشارك الكبار مجلسهم ، في حين انهمك الأب مع الآخرين
في عدد من الحوارات حول أحوال الدولة والسياسة ، وقال المأمور ، وهو يلوح
بيده في غطرسة ..

— أؤكد لكم أن البلد على حافة بركان ، فالوزارات تبدل كل فترة وجيزة ،
وهناك تلك المنشورات ..

سأله (حسين) في اهتمام :
— أية منشورات ؟

اعتدل المأمور في مجلسه ، وأدار عينيه في وجوه الجالسين ، وكأنما راق له أن
يجذب حديثه الاهتمام إلى هذا الحد ، قبل أن يقول في صوت منخفض ، ولهجة
توحي بخطورة الأمر :

— منشورات الضباط الأحرار ..

سأله الحاج (البهاوى) في دهشة :

— من ؟

اتسعت ابتسامة الحاج (البهاوى) أكثر ، وهو يقول :

— المهم أن تسعى دوماً إلى النفوذ والسطوة ، وما أملكه من مال سيجعل
طريقك إلى ذلك أكثر سهولة .

أوماً (حسين) برأسه موافقاً ، وقال :

— بمناسبة الحديث عن السطوة والنفوذ ، أظنك تحتاج إلى إطار جديد ، يتيح
لك هذا يا أبى ..

غمغم الحاج في حيرة :

— إطار جديد ؟! ماذا تعنى يا ولدى ؟

لوح (حسين) بكفه ، وهو يقول في لهجة نصوح :

— إنك على الرغم من ثرائك ، مجرد فلاح عادى ، أو إقطاعى يمتلك ألف
فدان ، ولا يتجاوز نفوذه نفوذ العمدة أو مأمور الناحية .

سأله والده في اهتمام :

— وماذا يمكننا أن نفعل ، للحصول على ما هو أكبر ؟

مال (حسين) نحوه ، وقال في حزم :

— نحتاج إلى لقب .

تراجع الحاج (البهاوى) مغمماً في دهشة :

— لقب ؟!

اعتدل (حسين) ، وبرقت عيناه ببريق شهوانى ، وهو يجيب :

— نعم يا أبى .. نحتاج إلى لقب .

وتضاعف بريق عينيه ، وهو يستطرد :

— لقب (باشا) ..

كرر المأمور :

— الضباط الأحرار ..

ثم قال مستطرذا في اهتمام مسرحي :

— إن أمر هذه المنشورات ما يزال سريا إلى حد كبير ، لا يعلم به إلا كبار

القوم .

ضغط حروف الكلمة الأخيرة ، وكأنما يؤكد بها انتهاءه إلى فئة كبار القوم ،

قبل أن يتابع ، وقد بدأ شبح ابتسامة يرسم على شفتيه :

— ويقولون إنهم مجموعة من ضباط الجيش ، لا تروق لهم أحوال البلاد ،

وخاصة بعد حرب (فلسطين) ، وقضية الأسلحة الفاسدة .

هز (حسين) كتفيه في لامبالاة ، وقال :

— مجرد عبث .. الجيش كله يدين بالولاء لمولانا الملك ، أسرع المأمور

يقول :

— حفظه الله .

ثم أطلق ضحكة عصبية ، وهو يتراجع مستطرذا :

— إنه ليس رأيي الشخصي ، بل هو ما يردده الكبار

مط ناظر غزبة الباشا شفتيه ، وهو يقول :

— مولانا لا يتأثر بهذه التفاهات .

هتف عمدة القرية :

— بالطبع .

كان من الواضح أن جوا من التوتر

والحذر قد ساد المكان ، مما دفع الحاج

(البنهاوى) إلى محاولة تفسير مجرى

الحديث ، قائلاً :



(البنهاوى)

— ألا يعلم أحدكم متى ينعم مولانا بالألقاب على رعيته ؟

اتجهت العيون كلها إليه في دهشة ، قبل أن يسأله العمدة في حذر :

— ولماذا تسأل يا حاج ؟ .. أليدك أية أنباء في هذا الشأن ؟

هم الحاج (البنهاوى) بالنفى ، لولا أن اندفع (حسين) يقول في زهو :

— بالطبع .. لقد بلغنا نبأ سعيد ..

ثم التفت إلى والده ، مستطرذا في فخر :

— لقد تضمن كشف الإنعام اسم أبى الحاج (البنهاوى) .

وانتفخت أوداجه ، وهو يستطرد :

— سينعم عليه مولانا بلقب ..

وصمت لحظة ، ليخلق مزيدا من الإثارة لعبارته ، وهو يدير عينيه في

الوجوه ، قبل أن يردف في قوة :

— لقب (باشا) .

انحبست أنفاس الجميع ، وهم يحدقون في وجهى (حسين) ووالده ، وقد

احتقن وجه الأخير في توتر ، وهو يختلس النظر إلى ابنه في ضيق ، قبل أن يشق

صوت المأمور جدار الصمت ، وهو يقول في خفوت :

— سيشرقنا هذا بالطبع .

ثم نهض مستطرذا :

— أظن أنه ينبغي أن أنصرف ، فلدى الكثير من العمل .

هب الحاج (البنهاوى) هاتفا :

— محال .. سيصل الطعام بعد لحظات .

ثم هتف بابه :

— تعجل الطعام يا (حسين) .

لم تمض لحظات حتى كانت الموائد متخمة بالطعام ، وراح الجميع يأكلون في صمت ، وقد خيم جو عجيب على المكان ، حتى انتهى الطعام ، فبادر الضيوف بالانصراف على الفور ، ولم يكد الطريق يجمع بين العمدة والمأمور ، على صهوة جوادين ، حتى قال الأخير في سخرية وعصية :

— (محمد البهاوى) باشا ؟! .. بالسخرية !

أجابه العمدة في حنى :

— إنها دولة حمقاء .. تصور ياسيدى ، إنه جاء إلى هذه القرية منذ ربع القرن

تقريباً ، ممزق الثياب ، حافى القدمين .

قال المأمور في حدة :

— ولكنه يمتلك اليوم ألف فدان ، بالإضافة إلى حدائق الفاكهة والمواالح ،

وسراى ينافس سراى عزبة الباشا .

واختلس نظرة جانبية إلى العمدة ، قبل أن يستطرد في خبث :

— لن يدهشنى أن يرشح نفسه لمنصب العمدة في العام القادم .

انتفض العمدة ، هاتفاً في جزع :

— منصب العمدة ؟! .. مستحيل !!

ثم أضاف في حدة عصية :

— هذا المنصب تتوارثه أسرتى منذ أجداد أجدادى .

قال المأمور في دهاء :

— ولكن (البهاوى) صار أكثر ثراء ، وسيصبح ابنه ضابطاً في الجيش ،

وبعد حصوله على لقب (باشا) ، لن تكون هناك صعوبة في ..

قاطعه العمدة :

— مستحيل !!

وانعقد حاجباه في شدة ، وهو يستطرد :

— لن يصبح هذا التافة عمدة أبداً .

تابع المأمور ، وكأنه لم ينتبه إلى المقاطعة :

— ستقلب الأمور تماماً ، بعد أن يحصل على لقب (باشا) ، فبدلاً من أن

يتودد هو إلى ، ويتقرب منى ، سيكون على أنا أن أسعى إليه وأخطب وده .

قال العمدة في حزم :

— مالم ..

التفت إليه المأمور ، مغمغماً في دهشة :

— مالم ماذا ؟

أجابه في توتر :

— مالم تمنع حصوله على لقب (باشا) .

أوقف المأمور جواده ، وسأل العمدة في دهشة :

— وكيف يمكننا أن تمنع هذا .. إنه إنعام ملكى .

قال العمدة في خبث :

— ولو .. هل ينعم جلالته على مناهضيه بالألقاب ؟

ازدادت حيرة المأمور ، وهو يقول :

— كلا بالطبع ، ولكن مامعنى هذا ؟ كلنا نعلم أن الحاج (البهاوى) لم

يناهض النظام الملكى أبداً ، بل هو من كبار مؤيديه ومناصريه .

قال العمدة في خبث :

— ولكن ابنه طالب في الكلية الحربية .

حدق المأمور في وجه العمدة لحظات ، ثم عقد حاجبيه في شدة ،

وهو يقول :

— اسمع يارجل .. لست أحب الألقاز .. أفصح عما لديك أو أصمت .

تهدد العمدة ، وهو يقول :

— رويدك يا باشا .. ألم تحدث عن أولئك الضباط ، الذين يطلقون على أنفسهم في منشوراتهم اسم الضباط الأحرار ؟
سأله في اهتمام :

— بلى .. ما صلتهم بالأمر ؟

رفع العمدة أحد حاجبيه ، وهو يقول :

— لو ورد تقرير مني ، وآخر منك ، يثيران إلى صلة الحاج (البهاوي) وولده بتنظيم الضباط الأحرار ، وعثر رجال البوليس السياسي على رزمة من منشورات هذا التنظيم في سراي الحاج ، سيصبح الحاج من مناهضي النظام ، وسيستحيل أن يمنحه جلالة الملك لقب (باشا) ، أو حتى (بك) .

برقت عينا المأمور ، وهو يهتف :

— يالك من داهية !!

ثم عاد يعقد حاجبيه ، مستطرذا :

— ولكن من أين لنا بمنشورات تنظيم الضباط الأحرار ؟

أجابه العمدة مبتسماً :

— ألا تملك بعضها ؟

تنحج المأمور ، وقال في ضيق :

— لا .. لست أملك أي منها .. لقد سمعت بالأمر فحسب .

صمت العمدة لحظة مفكراً ، ثم قال :

— لا بأس .. سنصنعها نحن .

هتف به المأمور :

— هل جنت ؟ .. أتطيع منشورات تنظيم مناهض ؟

هز العمدة كتفيه ، وقال :

— ولم لا ؟

ثم أضاف في انفعال :

— من أجل الورود تسقى الأشواك ، ولدينا مطبعة ابن شقيقى في المركز ، ويمكننا كتابة منشورات ساخنة ، تضمن إلقاء الحاج وابنه في السجن لربع قرن على الأقل .

صمت المأمور بعض الوقت مفكراً في الأمر ، قبل أن يهز رأسه ، قائلاً :

— ولكننا تناولنا الطعام في منزل الرجل منذ ساعة واحدة .

أجابه العمدة في غل :

— أتعجب أن تنتظر حتى يأتي يوم ، يلقي إلينا فيه فئات مائدته ؟

عقد المأمور حاجبيه ، وهو يقول في حزم :

— لا .. لست أحب أن يأتي مثل هذا اليوم .

ثم مد يده إلى العمدة ، مستطرذا :

— اتفقنا يا عمدة .. سننفذ خطتك .

والتقت أكفهما ..

وتصافحا ..

ونام الشيطان هائناً تلك الليلة ..

« كيف تدعى أمر اللقب هذا ؟ .. »

هتف الحاج (البهاوي) بالعبرة الساخنة

في وجه ابنه (حسين) ، الذى ابتسم في

هدوء ، وقال في شماتة :

— هل رأيت وجوههم عندما قلت هذا

يا أبى ؟ .. أراهنك أن أحدهم لن يذوق طعم

النوم الليلة .



(مفيد)

صاح به الحاج محققاً :
 — ولكنك كذبت عليهم .. أنت وأنا نعلم أن روايتك كاذبة وأن جلاله
 الملك لم يسمع حتى باسمي .
 استعت ابتسامه (حسين) ، وهو يقول :
 — ولكتني أعددت كل شيء .
 تدخل (حافظ) قائلاً :
 — أرى يا أبى أن ..
 قاطعه (حسين) في صرامة :
 — لا تقاطعنى .

بتر (حافظ) قوله في خوف ، والكمش في مقعده ، دون أن ينبس ببنت
 شفة ، وقد علمه والده أن يحترم شقيقه الأكبر ويخشاه ، في حين عقد (مفيد)
 شفتيه ، وأشاح بوجهه ، وقد قرر ألا يتدخل في النقاش قط ، وعاد (حسين)
 يلتفت إلى والده متابعاً :
 — لقد التقيت بكبير أمناء مولانا الملك ، وتناقشت معه في أمر حصولك على
 اللقب يا أبى .

حدق الأب في وجهه بدهشة ، قبل أن يقول :

— تقابلت معه ؟

أجابه (حسين) في زهو :

— نعم .. لقد طلبت مقابلته ، بواسطة زميل لي في الكلية الحربية ، يمت له
 بصلة القرى ، ولقد استمع إلى الرجل جيداً ، وسألنى عنك وعن ثروتك ، ثم
 قرر أن الأمر ليس صعباً كما نتصور .

جف حلق (البهاوى) ، وغمغم في انفعال واضح :

— أتعنى أنه من الممكن أن أحصل على اللقب ؟

لوح (حسين) بكفه ، وهو يقول في غرور :
 — بالطبع .

ثم ابتسم وهو يضيف :

— مقابل مبلغ بسيط .

جف حلق (البهاوى) تماماً ، وخفق قلبه على نحو لم يحدث من قبل ، عندما
 أضاف ابنه في حزم :

— مقابل مائة ألف جنيه .

وانهار الحلم في أعماق (البهاوى) ..

٣ - الأرض ..



(مديحة)

لم تكد تشرق الشمس ، حتى فصح
(مفيد) نافذة حجرته ، واستشق الهواء في
عمق ، يملأ صدره بغير الريف النقي ، ثم لم
يلبث أن ارتدى ثيابه . وانطلق وسط
الحقول ، وهو يشعر بنشوة جارفة تملأ
عروقه ، وسط الخضرة ..

كان على عكس شقيقه (حسين) ،
يعشق الريف بأرضه وخضرته ..

يعبد هذه الأرض ، التي منحهم الخير والوفرة ..

ويحب ..

يحب (مديحة) ، ابنة عم (إسماعيل) ، المسئول عن رعاية مواشي
العائلة ..

لم يكد يتذكرها ، حتى ارتسمت على شفثيه ابتسامة واسعة ، وبدت له
الحقول الممتدة أمامه أشبه بروضة من رياض الجنة ، تمتلئ سماؤها بوجه (مديحة)
الصباح ، وابتسامتها المشرقة ..

إنه يحبها ..

يحبها من أعماق قلبه ..

ربما كانت هي السبب الحقيقي لحبه لقريته وأرضه ..
ولكن الجميع يقولون إنه مازال طفلاً ..

كلهم يتعاملون معه كطفل ، على الرغم من تجاوزه السادسة عشرة من عمره
ببضعة أشهر ..

(مديحة) وحدها تراه رجلاً بالغاً ، خاصة وأنه يكبرها بعامين كاملين ..
وهي أيضاً طالبة ..

خفق قلبه عندما رآها من بعيد ، وهي تسير وسط الحقول ، ممسكة بكتابها ،
كعادتها كل صباح ، فأسرع إليها كطير فرح ، وهمس بها في هيام :
— صباح الخير يا (مديحة) .

ارتسمت على شفثها ابتسامة تجمع بين الفرح والحياء ، وهي تجيب :
— صباح الخير يا (مفيد) بك .. كيف حالك ؟
ابتسم وهو يسألها في حنان :

— كيف حالك أنت ؟ هل اقتربت امتحانات نهاية العام ؟
أومأت برأسها إيجاباً ، وقالت :
— ستبدأ في أول يوليو بإذن الله .

ابتسم مغمغماً :

— أمامك شهر كامل إذن .

زان عليهما الصمت لحظات ، قبل أن تسأله هي في حياء :
— وماذا عن امتحاناتك أنت ؟

هز كتفيه قائلاً :

— ستبدأ في نفس الموعد تقريباً .

سأله في اهتمام :

— هل تفكر في الالتحاق بالكلية الحربية ، مثل (حسين) بك ؟

هز رأسه نفياً ، وقال في حزم :

— مطلقاً .

سألته في دهشة :

— لماذا ؟

عقد حاجبيه ، وهو يقول :

— ربما لأن (حسين) إلحق بها .

لم تدر ماذا يعنيه بإجابته ، ولكن صوته ولهجته وهو ينطق العبارة ، كانا يحملان شيئاً من البغض ، جعلها تشفق عليه في أعماقها ، فتدبر دفعة الحديث ، قائلة :

— كيف حال (حسين) بك ، وحال شقيقاتك ؟

أجابها وكأنما الأمر لا يعنيه :

— (حسين) في الكلية الحربية كما هو ، وسيخرج بعد عام واحد ، و (نعيمة) في بيتها مع زوجها ، وأظنها سعيدة لجرد أنها تزوجت ، و (توحيدة) تستعد للزواج من ابن عمدة القرية المجاورة ، و (زينب) اكتفت بشهادة مدرسية بسيطة ، وكذلك (شريفة) و (ناهد) ، وكلهن يجلسن في انتظار العريس .

أطرق برأسها ، وهي تقول في حياء :

— كل البنات يحلمن بعرسهن .

تأملها في حنان ، وهو يقول في همس :

— حقاً !! .. كلهن ؟

ابتسمت في خجل ، وهي تتمم في خفوت شديد :

— تقريباً .

زّان عليهما الصمت طويلاً بعد كلمتهما الأخيرة ، و (مفيد) يملأ عينيه بوجهها في هيام ، حتى امتلأت نفسه فجأة بالشجاعة ، وقرر أن يصارحها بحبه ، فاعتدل وهو يقول في جدية :

— (مديحة) .. إننى ..

قبل أن يتم عبارته ، ارتفع صوت أخته (زينب) تهتف به :

— (مفيد) .. ماذا تفعل عندك ؟

ارتبك في شدة ، ولعن ذلك التوقيت الذى تدخلت فيه (زينب) ، ورأى وجه (مديحة) يحمر خجلاً ، وهي تقول في ارتباك :

— شقيقتك تناديك .

ثم أسرعت تبعد في خطأ مرتبكة متعثرة ، في حين عادت (زينب) تهتف به :

— (مفيد) .. إننى أخاطبك .

التفت إليها هاتفاً في حدة :

— ماذا تريدن ؟

ابتسمت في خبث ، وهي تقول :

— هل ضايقتك أن قطعت حديثكما ؟

قال في حدة :

— دعك من هذا .. ماذا تريدن ؟

ظلت ابتسامتها تحمل طابع الحبث ، وهي تقول :

— الحاج يطلبك في السراى ، فلقد وصل (حسين) ، من (القاهرة) .

هتف في دهشة :

— (حسين) ؟ .. ولكن الساعة لم تتجاوز الثامنة بعد .

هزت كتفها قائلة :

— ليس هذا من شأنى .. لقد وصل مبكراً ، ويجلس مع الحاج ، ومعهم (حافظ) ، ولقد طلب منى الحاج أن أستدعيك لتشاركهم مجلسهم .

عقد حاجبيه في ضيق ، وهو يقول :

— مجلسهم ؟ .. أمجلس حرب هو ؟

ضحكت قائلة :

— ربما ، فلقد وصل (حسين) بالزى الرسمى .

قالت وراحت تسرع الخطأ نحو السراى ، وهو يتبعها فى ضيق ، متسائلاً فى أعماقه عن سر هذه الترتيبات المعقدة ، ولم يكذب يبلغ السراى ، ويرى (حسين) وهو يقف وسط حجرة الضيوف شامخاً ، بزيه الرسمى ذى الأزوار اللامعة ، حتى غمره الضيق ، فغمغم فى برود :

— مرحباً يا (حسين) .. صباح الخير يا أبى ..

التفت إليه (حسين) فى غطرسة ، دون أن يحجب تحيته ، فى حين قال الحاج (البهاوى) :

— صباح الخير يا (مفيد) .. اتخذ نفسك مجلساً ، فلدينا قضية ينبغي أن يناقشها الجميع .

عقد (حسين) حاجبيه ، وهو يقول فى حدة :

— لست أرى داعياً لذلك .

— التفت إليه الوالد ، قائلاً فى صرامة :

— إنه أمر يخص الجميع ، ولا بد من مشاركتهم فيه .

اتخذ (مفيد) مجلسه ، وهو يقول فى ضيق :

— أى أمر هذا يا أبى ؟

أجابه (حسين) فى صرامة :

— سيحصل أبى على لقب (باشا) .. ما رأيك ؟

رفع (مفيد) عينيه إليه فى تحد ، وهو يقول :

— وما الثمن ؟

عقد (حسين) حاجبيه فى غضب ، وكأنما لم يرق له أن يلقى أصغر أشقائه

مثل هذا السؤال ، وقال فى حزم :

— مائة ألف جنيه .

خفض (حافظ) عينيه ، دون أن ينبس ببنت شفة كعادته ، فى حين هتف (مفيد) مستكراً :

— مائة ألف جنيه ؟ إنه مبلغ باهظ يا (حسين) .

أجابه (حسين) فى صرامة :

— اللقب يساوى ما هو أكثر من ذلك .

لوح (مفيد) بذراعه فى حدة ، وهو يقول :

— ولكن أبى لا يملك هذا المبلغ حقاً .

أجابه الحاج (البهاوى) :

— إننى أملك سبعين ألفاً تقريباً ، بما فى ذلك ثمن بيع القطن لهذا العام ، وسيحتاج الأمر إلى بيع مائتى فدان على الأقل .

تراجع (مفيد) ، هاتفاً فى ذعر :

— تبيع الأرض ؟

ثم اندفع نحو والده ، وهو يستطرد :

— لا يا أبى لا تفعل هذا أبداً .. لا تبع أرضاً .. الأرض هى الخير يا أبى .. هى كل شئ ..

قاطعه (حسين) فى حدة :

— هراء .. اللقب يساوى أرضنا كلها ، فبه وحده نحوز القوة والنفوذ .

ثم التفت إلى والده ، مستطرداً فى انفعال :

— ألا تعلم ما سيفعله اللقب ؟ .. إنه سيدفع العمدة إلى التزلف لك ونيل

رضاك .. بل إن مأمور الناحية نفسه سيصبح رهن إشارتك ، وسيتقرب إليك

على القوم ، و.....

قاطعه (مفيد) هذه المرة :

— ويسخرون من الرجل الذى باع أرضه فى سبيل لقب تافه .
صرخ (حسين) فى غضب :

— لقب تافه ؟ .. لقب (الباشا) لقب تافه ؟ .. إنه أنت التافه المغرور .
هب (مفيد) صائحاً :

— لست أسمع لك ..
قاطعه صيحة الأب الهادرة :

— (مفيد) .

توقف بغتة ، والتفت إلى والده بوجه محتقن ، فاستطرد هذا الأخير
فى غضب :

— إياك أن تتحدث إلى شقيقك الأكبر بهذا الأسلوب أبداً .. إياك أن
تفعل .. حتى بعد موتى .. إياك أن تعصى أوامره .

احتقن وجه (مفيد) فى شدة ، وهو يقول :

— ولكن يا أبى ..

قاطعه بصيحة أخرى هادرة :

— إياك يا (مفيد) .

كان هناك بركان ثائر فى أعماق (مفيد) ، إلا أنه لم يجرؤ على التفوه بحرف
واحد ، فعاد إلى مجلسه ، مغمغماً فى حق :

— كما تأمر يا أبى .

تألفت عينا (حسين) بابتسامة ظفر ، وافتثر ثغره عن ابتسامة واثقة شامته ،
وهو يدير عينيه فى الوجوه ، قبل أن يقول الحاج فى ضيق :

— سيقول الناس حقاً إننى قد بعث أرضى من أجل اللقب ، وهذا لن
يروق لى .

ابتسم (حسين) فى غرور ، وهو يقول :

— لن يقول مخلوق واحد هذا ؛ لأنك لن تبيع أرضك .
سأله الحاج فى دهشة :

— كيف سأحصل على المبلغ إذن ؟

اتسعت ابتسامته المغرورة ، وهو يقول :

— لقد تناقشت فى هذا الأمر مع كبير أمناء مولانا ، وتوصلنا إلى اتفاق جيد .
ومال إلى الأمام ، وهو يتابع فى زهو :

— إنك لن تبيع أرضك يا أبى .. ستب مائتى فدان للخاصة الملكية ، ولن
يجرؤ مخلوق واحد على التفوه بحرف ضدك بعد هذا .

تمم (مفيد) فى حق :

— يا للعقل الشيطانى !

التفت إليه (حسين) ، قائلاً فى حدة :

— ماذا تقول ؟

لوح بكفه ، قائلاً فى حق :

— لا شيء .. لم أقل شيئاً .

تردد الحاج (البهاوى) لحظات ، ثم قال :

— أظنه حلاً معقولاً يا ولدى ، ولكنه يحتاج إلى موافقة شقيقك .

التفت (حسين) إلى (حافظ) ، قائلاً فى صرامة :

— مارأيك يا (حافظ) ؟

ارتجف (حافظ) ، وغمغم فى خوف واضح :

— كما ترى يا (حسين) .. كما ترى .

ابتسم (حسين) فى ظفر ، واستدار إلى (مفيد) ، يسأله فى صرامة :

— مارأيك أنت ؟

أجاب (مفيد) فى تحد :

— لست أوافق .

ثم نهض مستطرذا :

— ولكن هذا لن يغير من الأمر شيئاً .

أجابه (حسين) في حدة :

— بالطبع .

لوح (مفيد) بكفه في يأس وضيق ، فعقد (حسين) حاجبيه ،

قائلاً في صرامة :

— مازلت طفلاً ، تجهل الكثير من حقائق الحياة .

التفت إليه (مفيد) ، قائلاً :

— أحقاً ؟ .. وأنت أتدرك حقائق الحياة ؟

انتصب (حسين) في اعتداد ، وأشار إلى صدره في فخر قائلاً :

— بالتأكيد ، ولولا هذا ما التحقت بالجيش .

سأله (مفيد) بأسلوب استفزازي :

— وهل تعتقد أن هذا هو الاختيار الصحيح ؟

عقد (حسين) حاجبيه ، قائلاً :

بالتأكيد .. الجيش هو سيف البلاد ودرعها .

هتف (مفيد) في سخرية :

— سيف البلاد ودرعها ؟ .. وماذا فعل جيشك الهمام هذا في حرب

(فلسطين) ؟

أجابه محتذاً :

— كانت الأسلحة فاسدة .

سأله في تهكم :

— وماذا فعلتم عندما كشفتم هذا ؟

أنشاح (حسين) بوجهه ، قائلاً في صرامة :

— لا تسألني عن هذا ، فلم أخرج من الكلية الحربية بعد .

قال (مفيد) في مزيد من السخرية :

— حقاً ؟ .. ماذا فعل جيشك إذن عندما احترقت (القاهرة) ؟

هتف (حسين) في غضب :

— لا نتحدث عما لا تفهمه .

صاح به :

— وهل تفهم أنت معنى بيع الأرض ؟

صرخ الأب في غضب :

— (مفيد) .. لقد حذرتك من التحدث مع شقيقك هكذا .

هتف (مفيد) محنقاً :

— حسناً .. لن أتحدث إليه أبداً ..

واندفع خارج الحجرة ، مستطرذا :

— ولتذهب الأرض كلها إلى الجحيم .

رأى صمت ثقيل على الحجرة ، في الثواني التي أعقبت انصراف (مفيد) ،

ثم هتف (حسين) في غضب :

— هذا الفتى يحتاج إلى التهذيب .

غمغم الحاج :

إنه ما يزال صغيراً .

ثم خفض عينيه ، مستطرذا :

— ليكن .. سنب الأرض للخاصة الملكية ، ونستبدل بها اللقب .

تهللت أسارير (حسين) ، وهو يهتف :

— نعم القول والفعل يا أباي .

ولكن الحاج (البهاوي) لم يتسم ، ولم يشعر بالارتياح ..

لقد تخلى عن أرض جمعها بكفاحه ، وانتزعها من عرق حياته ..

وفي موضعها من قلبه تكونت غصة ..

غصة مؤلمة ..

٤ - المكيدة ..

تهللت أسارير (زينب) ، وهي تستقبل شقيقتها (نعيمة) في سراى العائلة ، وضممتها إلى صدرها في سعادة ، وهي تهتف :
 — مرحباً يا (نعيمة) ، مرحباً بك في منزلك .
 قبلتها (نعيمة) ، وهي تقول في رصانة رأت أن تصطنعها ، لتؤكد أنها الزوجة الوحيدة وسط شقيقاتها :
 — لم يعد منزلى يا (زينب) .
 ضربت (زينب) صدرها براحتها ، وهي تهتف :
 — محال .. سيقى منزلك مادامت أبوابه مفتوحة .
 ثم ربت على بطنها ، مستطردة في مرح :
 — أم أن ولى عهدك سيغير أفكارك .
 أطلقت (نعيمة) ضحكة مزهوة ، وهي تقول :
 — من يدري ؟ .. المهم أن يستعد الحاج لاستقبال أول أحفاده .
 ثم انقلبت لهجتها إلى الجدبة بغتة ، وهي تردف في اهتمام :
 — وبمناسبة الحديث عن الحاج .. أصحيح ما سمعته ؟
 سألتها (زينب) في خبث أنثوى :
 — وما الذى سمعته ؟
 زفرت (نعيمة) ، وهي تقول في لهجة واضحة الاصطناع :
 — سمعت من زوجى أن الحاج قد وهب مائتى فدان من أجود أرضه إلى الخاصة الملكية .

أجابتها (زينب) في أسف :

— هذا صحيح ..

ضربت (نعيمة) صدرها براحتها ، وكأغما فاجأها الخبر ، وهتفت :

— وكيف يفعل أبى هذا ؟

تهددت (زينب) ، وأجابتها :

— إنها مشورة (حسين) .

هتفت (نعيمة) :

ولماذا ؟

تهددت (زينب) مرة أخرى ، وقالت :

— ليحصل أبى على لقب (باشا) .

هتفت (نعيمة) مستكرة :

— لقب (باشا) ؟ .. أيتنازل والدى عن أرضه مقابل هذا ؟

.. ولماذا لم يسألنا رأينا ؟

أجابتها ساخرة في مرارة :

— ومنذ متى يسألنا أحد رأينا ؟

عقدت حاجبها ، وهي تقول :

— ولكن زوجى يستكر هذا تماماً .

رفعت (زينب) حاجبها في دهشة ، وهي تقول :

— وما شأن زوجك بهذا ؟

غمغمت (نعيمة) في عصبية :

— أليست أرض والدى بمثابة أرضى ؟

قالت (زينب) في حدة :

— أرضك أم أرضه هو ؟

هزت (نعيمة) كتفها ، وهي تقول في عناد :

— لا فارق بيني وبين زوجي ..

همت (زينب) بقول شيء ما ، لولا أن بلغت مسامعها أصوات ترحاب واستحسان ، فهتفت في جدل :

— اصمتي .. لقد وصل عريس (توحيدة) ..

هتف (نعيمة) في شغف :

— ابن العمدة !؟

ثم أضافت في لهفة :

— أريد رؤيته .

أسرعنا إلى باب حجرة صغيرة ، تصل ما بين حجرتين وحجرة استقبال الضيوف ، وانحنينا تحتلسان النظر عبر ثقب الباب في صعوبة ، وتناهى إلى مسامعهما صوت الأب ، وهو يسأل العريس :

— كيف حالك يا ولدي ؟ .. وكيف حال زراعتك ؟

أجابه الشاب في خجل :

— في خير حال يا حاج .. شكرًا لك .

ثم تجرأ قليلًا ، وسأله :

— وكيف حال (توحيدة) ؟

ابتسم الأب ، وهو يقول :

— إنها بخير .. اطمئن .

اتسعت ابتسامة العمدة ، والد العريس ، وهو يسأل الحاج (البهاوى) :

— ما قولك يا حاج .. ابني يتعجل الزفاف .

ابتسم الحاج (البهاوى) ، وقال :

— لا مانع عندي ، فكل شيء على مايرام ، ولكن ..

هتف به العمدة في استنكار :

— ولكن ماذا يا حاج ؟ .. ألم تقل إن كل شيء على مايرام ؟

أجابه الحاج (البهاوى) :

— بلى أيها العمدة ، ولكن من الضروري أن نسأل (حسين) رأيه .

قال العريس معترضًا :

— وما شأن (حسين) ؟

انعقد حاجبا الحاج (البهاوى) في غضب ، وهو يقول في صرامة :

— (حسين) هو ابني الأكبر ، وهو صاحب الكلمة من بعدى .

قال العمدة ملطفًا الجو :

— فليمنحك الله (سبحانه وتعالى) طول العمر يا حاج ، ولكن رأيك هو

الأول ، خاصة وأنه لا يصح أن أنتظر أنا رأي (حسين) .

تردد الحاج (البهاوى) لحظات ، ثم غمغم :

— صدقت .

واعتدل مستطرذا في حزم :

— فليكن .. سيم الزفاف يوم الخميس القادم بإذن الله .

ابتسمت (توحيدة) من خلف الباب في سعادة وحياء ، على حين نسيت

(زينب) أنها إنما تستمع إلى ما يحدث خلسة ، فأطلقت زغرودة قوية ، تعبر

بها عن سعادتها ..

وعمت الفرحة في السراى ، حتى وصل (حسين) في المساء ، ولم يكذ

يسمع بالأمر ، حتى عقد حاجبيه في غضب ، وهو يقول في حدة :

— كان ينبغي أن تستشيرني أولاً يا أبى .

هتف الحاج (البهاوى) مستكراً :

— أستشيرك !؟ أى قول هذا يا ولدي ؟ .. لقد كان العمدة بنفسه هنا ،

وكان معه عمدة قريتنا ، ولم يكن من اللائق أن نتظر مشورتك .

قال (حسين) في صرامة :

— ربما لا يروق لي العريس يا أبنى ..

أجابه والده في حزم :

— لماذا ؟.. لقد وافقت عليه مسبقاً ، وهو ابن عمدة القرية المجاورة ،

.....

قاطعته (حسين) :

— لقد اختلفت الظروف يا أبنى ..

كان (مفيد) يجلس صامتاً ، رافضاً التدخل في الأمر ، إلا أن العبارة الأخيرة

استفزته ، فقال ساخراً :

— كيف ؟.. هل أصبحت الشمس تشرق من المغرب ؟

التفتت إليه (حسين) قائلاً في تحد :

— أكثر .

ثم عاد يلتفت إلى والده ، مستطرداً في حزم :

— لقد أصبح لقب الباشا قيد خطوة واحدة منك يا أبنى .. لقد التقيت اليوم

بكبير الأمراء ، ونقدته مبلغ السبعين ألف جنيه ، ومستند هبة المائتي فدان

للخاصة الملكية ، ولقد أدرج اسم (محمد البنهاوى) في كشف الانعامات

الملكية ، وسيصدر المرسوم الملكي بالإنعام عليك برتبة الباشوية في أول أغسطس

القادم ، وعندئذ ستزوج ابنتك ابن وزير ، لا مجرد ابن عمدة قرية صغيرة .

تردد الحاج البنهاوى لحظات ، ثم قال في حزم :

— ولكنني أعطيت العمدة كلمتي ، ولن أراجع عنها أبداً .

دلفت (شريفة) إلى الحجرة في هذه اللحظة ، وهي واضحة التوتر

والارتباك ، وقالت لوالدها ، وهي تفرك كفيها :

— أبنى .. هناك بعض الرجال يريدون مقابلتك .

سألها في دهشة :

— بعض الرجال ؟!.. من هم ؟

قبل أن يجيبه ابنته ، اقتحم الحجرة رجل ممشوق القوام ، عريض المنكبين ،

تشف ملامحه عن صرامة واضحة ، وخلفه عدد من الرجال قساة الملاح

والوجوه ، فارتفع حاجب الحاج في دهشة ، وقفز (مفيد) من مقعده في توتر ،

في حين انكمش (حافظ) في مقعده خوفاً ، وهتف (حسين) في غضب .

— ما هذا ؟.. كيف تفتحون المكان هكذا ؟

سأله الرجل الصارم :

— أنت (حسين البنهاوى) ، الطالب بالكلية الحربية ؟

أجابه في حدة :

— هو أنا ، وهذا منزلي .. من أنتم ؟

تجاهل الرجل قوله ، وهو يشير للرجال المصاحبين له ، قائلاً في حزم :

— فتشوا المكان .

اندفع الرجال يعيشون في المكان فساداً ، قبل أن يدرك (البنهاوى) أو أبنائه

ما يحدث ، وأسرعت (شريفة) تغادر المكان في ذعر ، في حين هتف (مفيد)

في غضب :

— إنك لم تجب عن السؤال ، من أنتم ؟

اعتدل الرجل ، وهو يقول في صرامة :

— أنا الصاغ (إبراهيم مكى) من البوليس السياسى .

ازداد إنكماش (حافظ) في مقعده ، وتحلى الرعب على وجهه ، وهتف

(مفيد) في ذهول :

— البوليس السياسى ؟!

أما (البنهاوى) ، فقد شحب وجهه في شدة ، وسمع ابنه (حسين) يقول

في اضطراب واضح :

— وما شأن البوليس السياسى بنا ؟

أجابه الصاغ (إبراهيم) فى صرامة :

— ستعرف بعد لحظات .

اندفع إليه أحد رجاله ، فى اللحظة ذاتها ، وناولته رزمة أوراق ، وهو يقول :

— وجدنا هذه المنشورات ياسيدى .

شحب وجه الحاج فى شدة ، وغمغم (حسين) فى ارتياح :

— منشورات !!؟

أما الصاغ (إبراهيم مكى) ، فقد تألقت عيناه فى ظفر ، والتفت إلى الحاج

(البنهاوى) و (حسين) ، قائلاً فى صرامة شديدة :

— الحاج (محمد البنهاوى) ، وابنه (حسين البنهاوى) .. إننى ألقى القبض

عليكما بتهمة التآمر على مولانا الملك .

وانطلقت صرخة (شريفة) ترج السراى ..

٥ — الشَّماتة ..

أوقف العمدة والمأمور جواديهما ، أمام سراى (البنهاوى) ، وغمغم

المأمور ، وهو يهبط عن صهوة جواده :

— أخف ابتسامتك يا عمدة ، فالحزن الذى تحاول رسمه على وجهك لم يتجح
فى سترها .

أجابه العمدة فى خفوت :

— قلبى يعجز عن حجبتها يا باشا .

قال المأمور فى صرامة ، وهو يتجه نحو باب السراى :

— حاول .

استقبلهما (عبد الحميد) ، العامل فى أرض (البنهاوى) ، وعيناه تسبحان

فى بحر من الدموع ، وأسرع يفسح لهما الطريق إلى حجرة الضيوف ، حيث جلس

(مفيد) واجمًا ، دامع العينين ، وإلى جواره شقيقه (حافظ) ، وقد انخرط فى

بكاء حار ، ومعهما عدد من رجال القرية ، يواسونهما فى مصابهما ، ونهض

(مفيد) يستقبل المأمور والعمدة ، فقال الأول ، وهو يضافحه فى قوة ،

متظاهراً بالجزع :

— ماذا حدث بالضبط ؟ .. النبأ الذى بلغنى لم يحو الكثير من التفاصيل .

أجابه (مفيد) فى مرارة :

— لقد ألقى البوليس السياسى القبض على أبى و (حسين) .

هتف العمدة ، وهو يذل أقصى جهده لرسم كمية هائلة من الدهشة على

وجهه :

— البوليس السياسى !!؟ لماذا ؟

كان صوت بكاء النسوة يصل إلى حجرة الضيوف عاليًا ، مما اضطر (مفيد) إلى رفع صوته بدوره ، وهو يجيب :
 — يتهمونهما بتأييد حركة الضباط الأحرار ، ولقد عثروا هنا على بعض منشورات هؤلاء الأحرار .
 هتف المأمور :
 — عثروا على منشورات ؟!.. إذن فالتهمة صحيحة .
 عقد (مفيد) حاجبيه في ضيق ، وهو يقول :
 — مستحيل ؟.. لقد كان أبى يسعى للحصول على رتبة الباشاوية ، فكيف يعادى نظامًا ، وهو يسعى ليصبح أحد أركانه .
 هز العمدة كتفيه ، وهو يقول :
 — من يدري ؟
 كان قناع الحزن الذى يرسمه على وجهه قد سقط ، فلبدت شماته واضحة في صوته وملامحه ، مما دفع (مفيد) إلى أن يقول في صرامة :
 — هناك شيء يحيرنى يا عمدة .. لقد عثروا على المنشورات أسفل ذلك المقعد ، الذى كنت أنت تجلس عليه .
 انتفض العمدة ، وهو يهتف :
 — ماذا تعنى ؟
 قال (مفيد) فى برود :
 — ما الذى تتصور أننى أعنيه ؟
 ارتسم غضب هائل على وجه العمدة ، وهتف فى ثورة :
 — هل تهمنى بتلفيق التهمة لأبيك وشقيقك ؟
 قال (مفيد) فى حدة :
 — من يدري ؟

احتقن وجه العمدة ، وراج يرغى ويزيد ، ويسب (مفيد) فى ثورة غضب ، فصاح به المأمور فى صرامة :
 — كفى يا عمدة .
 هتف العمدة :
 — ألم تسمع ما قاله يا باشا ؟
 قال (مفيد) ساخرًا :
 — باشا ؟!.. ومتى حصل مأمورنا العظيم على رتبة الباشاوية ؟
 احتقن وجه المأمور بدوره ، وهو يقول :
 — ماذا تقصد يا ولد ؟
 صاح به (مفيد) فى غضب :
 — لا تخاطبنى بكلمة (ولد) هذه .
 بات من الواضح أن الموقف قد بلغ ذروة التوتر ، مما دفع الحاج (سعفان) أحد كبار القرية إلى التدخل ، هاتفًا :
 — كفى يا (مفيد) .. لا تغضب يا عمدة .. إهدأ يا سيادة البك المأمور ..
 لأحد يقصد ما قاله الليلة .. إنها الأعصاب الثائرة فحسب .
 اعتدل المأمور فى حدة ، وهو يقول :
 — إننى أكره التواجد مع من لا يقيمون وزنًا لاعتبارات السن والمقام ، ولذلك فسأغادر المكان ، ولن أعود إليه حتى يعود صاحبه سالمًا بإذن الله .
 ثم التفت إلى العمدة هاتفًا :
 — هيا يا عمدة .
 هب العمدة ، قائلاً فى حنى :
 — هيا يا باشا .
 قال (مفيد) مستفزًا :

— باشا مرة أخرى ؟

احتقن وجه المأمور غضبًا ، وهتف مرة أخرى :

— هيا يا عمدة .

ولم يكده يصل مع العمدة إلى باب السراى ، حتى التفت إلى (مفيد) ، وقال

في غضب صارم :

— ستدفع ثمن هذا .

أجابته نظرات (مفيد) الصارمة ، فاندفع يغادر المكان محنقًا ، وسمع الجميع

وقع حوافر جواده وجواد العمدة يتعدان ، فغمغم الحاج (سعفان) :

— كان ينبغي أن تتحكم فى أعصابك يا ولدى .

قال (مفيد) فى صرامة :

— كانا يستحقان هذا ، فهما شامتان فيما أصاب أبى وشقيقى .

غمغم الحاج (سعفان) :

— خيالك هو الذى صور لك هذا .

بدت له عبارته خاوية ، خالية من الحماس ، حتى أنها عجزت عن إقناعه هو

نفسه ، فأضاف فى خفوت ، وهو يتهد فى أسف :

— لقد أصبح الزمن رديئًا .

التفت (مفيد) إلى شقيقه (حافظ) ، الذى مازال ييكنى فى حرارة ،

وهتف به محنقًا :

— كفى يا (حافظ) .. إنك تولول كالنساء .

انحدرت كلمات (حافظ) مع دموعه ، وهو يقول :

— لقد أخذوا أبى يا (مفيد) .. أبى و (حسين) .

أجابته فى صرامة :

— إنها ليست نهاية العالم .

ربت الحاج (سعفان) على كتف (مفيد) ، وكأنما يعبر له عن إعجابه

بصلابته ، التى تفوق سنوات عمره القليلة ، وقال :

— أظن أنه من الضرورى أن نذهب — أنت وأنا — غدًا إلى المديرية ،

لنعرف ماذا حدث لوالدك وشقيقك .

غمغم (مفيد) :

— بل إلى (القاهرة) ، مادام الأمر يتعلق بالبوليس السياسى ، فلست أظن

المديرية كلها تعلم أين أبى و (حسين) الآن .

وتهد فى عمق ، قبل أن يضيف :

— معذرة يا عمه .. سأذهب لحظات للاطمئنان على شقيقائى .

هتف الحاج (سعفان) :

— بالطبع .. اذهب يا ولدى .. اذهب .

التفت (مفيد) إلى (حافظ) ، وقال فى صرامة :

— قلت لك كفى .

ولكن (حافظ) ظل ييكنى بنفس الحرارة ، مما أثار حقن (مفيد) ، وهو

يغادر حجرة الضيوف إلى جناح شقيقاته ، فغمغم :

— يا لها من عائلة !! .. شقيق متفطرس ، وآخر كالنساء .

لم يكده يدلف إلى جناح شقيقاته ، حتى رآهن وقد انخرطن جيعًا فى بكاء حار ،

وعلى الأخص (شريفة) ، التى بدت أقرب إلى الانهيار ، فجلس على طرف

فراشها ، وربت على كتفها فى حنان ، مغمغمًا :

— كفى يا (شريفة) .. سيعود الاثنان سالمين بإذن الله (سبحانه وتعالى) .

رفعت عينيها الدامعتين إليه ، ثم عادت تنخرط فى بكاء شديد ، وهى تسند

رأسها إلى يده ، فى حين هتفت (نعيمة) :

— ولكن زوجى يؤكد أنه مامن أحد يعود سالمًا ، مادام الأمر يتعلق

بالبوليس السياسى .

التفت إليها ، قائلاً في غيظ :

— وأين هو زوجك ؟ .. لماذا لم يأت ليزيدنا من خبرته وشجاعته ؟

توقفت دموعها بغتة ، وقالت في غضب :

— هل تسخر في مثل هذه الظروف يا (مفيد) ؟

قال في حدة :

— بل أتساءل فحسب ، لماذا يكتفى هذا الهمام دومًا بمتابعة الأمور من الخارج ؟ لماذا خشي المجيء إلى هنا ؟ .. أتخمين أن أخبرك أنا لماذا ؟ .. لأن فارسك الهمام خاف أن يتهموه بأنه أيضًا يؤيد حركة الضباط الأحرار ، لو أنه أتى إلى هنا ، في مثل هذه الظروف .

هتفت (نعيمة) في غضب :

— (مفيد) .. احترم شقيقتك الكبرى .

صاح نائراً :

— لماذا ؟ .. مجرد أنها أكبرنا سنًا ؟

هتفت بهما (توحيدة) :

— كفى .. كفى شجارًا .. الأجدى أن نبحث عن وسيلة لاستعادة

أهنا و (حسين) .

زفر (مفيد) في قوة ، وهو يقول :

— صدقت .

ثم رفع عينيه إليها ، وغمغم مشفقًا :

— لقد تأجل زواجك بسبب هذا .

تفجرت الدموع في عينيها ، وهي تهتف :

— فلأبقى عانسًا عمري كله ، ولا يقضى أبى ليلة واحدة في سجنه .

تهتف في يأس ، وهو يقول :

— سيعود الاثنان يا (توحيدة) .. سيعودان بإذن الله .

ولكنه في أعماقه كان يشعر بالشك في عبارته ..

بالشك إلى حد اليأس ..

راح المأمور ينال بالسباب على رأس (مفيد) ، طيلة الطريق من سراى (البهاوى) إلى نقطة الشرطة ، حتى هتف به العمدة :

— كفى يا باشا .. إنه مجرد ولد صغير .

صاح المأمور في غضب :

— ولكنه يحتاج إلى التهذيب .

رفع العمدة أحد حاجبيه في خبث ، وهو يقول :

— ولم لا ؟

أدار المأمور عينيه إليه بنصف التفاتة ، ثم عاد يتحدث ، وهو يقول :

— ماذا يدور في رأسك يا عمدة ؟

قال العمدة في لهجة تقطر حروفها كلها دهاء :

— عملية تأديب بسيطة يا باشا .



— ابتسم المأمور في شغف ، وهو يقول :
 — وهل ستحتاج إلى مطبعة ابن شقيقك أيضًا ؟
 قال العمدة في زهو :
 — لا يا باشا .. إننى رجل أحب التجديد .
 سأله المأمور في اهتمام :
 — ماذا تقترح هذه المرة إذن ؟
 خفض العمدة صوته ، وهو يقول :
 — سرقة مواش .
 رفع المأمور حاجبيه ، وهو يكرر في دهشة :
 — سرقة مواش ؟! ..
 ثم التفت إليه مستطردًا :
 — ومن سيصدق أن ابن (البهاوى) يسرق المواشى ؟!
 لوح العمدة بكفه ، قائلاً :
 — كل الأبناء ينحرفون .
 سأله في حدة :
 — ولكن لماذا ينحرف ؟ .. لابد من سبب منطقى .
 اتسعت ابتسامة العمدة ، وهو يقول :
 — اطمئن يا باشا .. اترك لى هذا ، وسيكون لديك سبب منطقى .
 تطلع إليه المأمور لحظات في صمت ، ثم غمغم :
 — أتعلم أننى أصبحت أخشاك يا عمدة .
 هتف العمدة في فخر ، وقد بدت له العبارة تقریظاً مناسباً :
 — حاشى لله يا باشا .. محال أن تمتد أناملى إلى التراب الذى تطؤه بقدمك .
 غمغم المأمور في حذر :

— ليست أناملك ما يخيفنى يا عمدة ، فلقد برزت أنيابك فى عملية
 (البهاوى) ، ويبدو أن نجاحك فيها قد حفز عقلك ، وأثار شهيتك لمزيد من
 الدماء ، فصرت تتفنن فى إيجاد وسائل التدمير وابتكارها .
 غمغم العمدة فى خبث :
 — تلميذك يا باشا .
 ابتسم المأمور ، وفل شاربه الضخم ، وهو يقول :
 — يبدو أنك تكره (البهاوى) كثيراً يا عمدة .
 قال العمدة فى حقد واضح :
 — لقد دخل قريتنا فقيراً معدماً ، ولن يغادرها إلا وهو كذلك يا باشا .
 واتمعت عيناه ببريق الشر ، وهو يستطرد :
 — هذا وعد منى ..

٦ - السجن ..

ارتجف (حسين) في شدة ، وراح يقاوم رغبته في البكاء ، وهو يجلس في ركن تلك الزنزانة الرطبة الضيقة ، التي ألقاه فيها رجال البوليس السياسى مع والده ، وانهارت كل الآمال العريضة ، التي رسمها لحياته ، في أعماقه ، وراح يندب ذلك الحظ السيئ ، الذى ألقاه في هذا المكان ، بعد أن صار قاب قوسين أو أدنى من القوة والسطوة ..

وانطلق عقله يبحث عن تفسير لما حدث ..
إنه بالتأكيد لا يؤيد حركة الضباط الأحرار هذه ..
ليس لأنه يرفضها ، أو لأنه يؤيد النظام الحالى ، بل لأنه — وبكل بساطة — لا يدري عنها أكثر مما سمعه من المأمور ، ليلة زفاف (نعيمة) ..
إنه حتى يجهل تمامًا كيف وصلت تلك المنشورات إلى السراى !! ..
إن والده لا يؤيد الضباط حتمًا ..
ولا (حافظ) بالتأكيد ..

أيحتمل إذن أن يكون (مفيد) هو صاحب المنشورات ؟!
بدا له ذلك الحاضر فجأة منطقيًا ، متناسبًا مع شخصية (مفيد) الثائرة ، وعناقه التقليدى ، فانتابه شعور بالحق الشديد ، مع تصوره أن (مفيد) صاحب تلك المنشورات ، وأنه تركه ووالده يدفعان ثمن وجوده ..
والده ..

ترى كيف هو الآن ؟ ..
رفع عينيه إلى حيث انكمش والده ، في الركن المقابل للزنزانة ، وهاله أن يرى كل هذا الشحوب والامتقاع على وجه الرجل ، فهض من مكانه ، واتجه إليه ، مغمغمًا :

— سينتهى كل شيء على مايرام يا أبى ، بإذن الله ، إننا أبرياء ، ولن يلبث رجال البوليس السياسى أن يتبينوا هذا .

رفه إليه الحاج (البهاوى) عينين زائغتين ، وهو يغمغم في انقيار :
— بعد كم من السنين ؟

ثم ظفرت من عينيه دمعة يأس ، وهو يستطرد :

— كل شيء ضاع : الأرض ، والأموال ، واللقب .. حتى العمر والحرية .. كل شيء ضاع .

هتف (حسين) في مرارة :

— لا تقل هذا يا أبى .. لا تقل هذا .. ستغادر هذا المكان ، وستعود إلى الأرض والمال ، و.....

قاطعه صوت ساخر يقول :

— كم يروق لى أن أرى شخصًا متفائلًا هنا .

اقترن الصوت بفتح باب الزنزانة ، وظهور جندى على عتبة ، استطرد بنفس اللهجة الساخرة :

— هيا لنخبر دقة تفاؤلك أيها الهمام ، فسيادة الصاغ (إبراهيم مكى) يطلب رؤيتك .

نهض (حسين) في توتر ، وبدا جسده يرتجف بالفعل ، وهو يغمغم :
— وماذا عن أبى ؟

ألقى الجندى نظرة سريعة على الأب المسكين ، الذى انكمش في ركن الزنزانة ، واكتفى بكاء صامت يائس ، ثم قال في سخرية :

— لا تقلق .. سيأتى دوره عما قريب .

ودفع (حسين) أمامه في عنف ، مستطردًا :

— هيا .. سيادة الصاغ لا يحب الانتظار طويلًا .

راح يدفعه في قسوة وامتهان ، عرب ممر طويل ، حتى وصلا إلى مكتب
ضخم ، طرق الجندي بابه ، ثم دخل إليه وأمامه (حسين) ، وأدى التحية
العسكرية للصاغ (إبراهيم مكى) الذي يجلس خلف مكتبه في عظمة ، وقال :
— السجين (حسين البهاوي) ياسيدى .

قال الصاغ (إبراهيم) في برود :
— أتركه واذهب .

أدى الجندي التحية العسكرية مرة أخرى ، في مزيد من الصخب ، وهو
يدق كعبيه بعضهما ببعض في قوة ، قبل أن يغادر الحجرة في سرعة ، ويغلق بابها
خلفه في إحكام ، في نفس اللحظة التي غمغم فيها (حسين) :
— السجين !؟

ابتسم الصاغ (إبراهيم) في سخرية ، وهو يقول :
— ألم يرق لك اللقب ؟
أجابه (حسين) في خفوت :

— كنت أفضل لقب (المتهم) بالتأكيد ، فهو يمنح شعورا بالأمل في
البراءة ، أما لقب (السجين) ، فيوحى بأن الحكم قد صدر بالفعل .
تأمله (إبراهيم) في صمت لحظات ، ثم قال :
— اجلس يا (حسين) .

تردد (حسين) في شك ، فكرر (إبراهيم) في حزم :
— اجلس .

جلس (حسين) على المقعد المواجه للمكتب ، وراح يتطلع إلى (إبراهيم)
في حذر ، فابتسم هذا الأخير ، وكأنما يحاول أن ييث في نفس (حسين) بعض
الاطمئنان ، قبل أن يقول :

— أنت طالب بالكلية الحرية .. أليس كذلك ؟

أوما (حسين) برأسه إيجابا ، وازدرد لعابه في صوت مسموع ، قبل أن يجيب :



— بل .

مال (إبراهيم) نحوه ، وسأله بغتة :

— ما معلوماتك عن الضباط الأحرار ؟

هتف (حسين) ، وكأنما كان يتوقع هذا السؤال ويتظره :

— أقسم بالله إننى لا أعلم عنهم شيئاً ، أكثر مما يردده البعض ، وأقسم بكل

عزيز لدى ، إننى وأبى من مؤيدى مولانا الملك المعظم ، وأن تلك المنشورات ،

التي وجدتموها فى السراى مدسوسة علينا ، و.....

قاطعته (إبراهيم) :

— إنها منشورات زائفة .

حدق (حسين) فى وجهه فى ذهول ، قبل أن يتف بكل ما دفعته العبارة فى

نفسه من أمل :

— زائفة ؟!

أوماً (إبراهيم) برأسه إيجاباً ، وقال فى هدوء :

— كل شيء فيها زائف على نحو واضح للغاية ، فلم يلتزم مزيفها بنوع الورق

ولا الأسلوب ، ولا حتى شكل الحروف .. إنها مزيفة من أولها إلى آخرها .

هتف (حسين) فى فرحة :

— إذن فأنتم تعلمون أننى وأبى بريتان .. حمداً لله .

ابتسم (إبراهيم مكى) فى سخرية ، دون أن ينبس ببنت شفة ، واكفى

بمراقبة فرحة (حسين) ، الذى استطرد فى لهفة :

— ستطلقون سراخنا إذن .. أليس كذلك ؟

أجابه (إبراهيم) فى هدوء :

— الأمر ليس بمثل هذه السهولة .

تهاوى الأمل فى أعماق (حسين) بغتة ، وشحب وجهه ، وهو يسأل :

— لماذا ؟ .. ألم تأكدوا من أننا بريتان ؟

مط (إبراهيم) شفتيه ، وقال :

— فى مهنتنا هذه لا تسير الأمور بتلك البساطة يا (حسين) ، فمن السهل

على أى منا أن يصدر قراراً باعتقال شخص ما ، ولكن من العسير أن تصدر قراراً

بالإفراج عنه ، حتى ولو ثبت براءته .

ازداد شحوب (حسين) ، وهو يقول :

— لماذا ؟ .. أليس من المنطقى أن ..

قاطعته (إبراهيم) فى صرامة :

— الفارق الوحيد بالنسبة لك ولوالدك هو أننا لن نستجوبكما ،

وصدقتى .. سيوفر لكما هذا الكثير .. من كرامتكما على الأقل .

ثم ابتسم ابتسامة واسعة ، وهو يستطرد :

— الواقع أنكما محظوظان يا (حسين) .

ردد (حسين) فى ذهول :

— محظوظان !!

وتجمعت فى عينيه دمعة كبيرة ، عجز عن كتبها هذه المرة ، وهو يقول :

— ماذا سيكون مصيرى ومصير أبى إذن ؟!

هز (إبراهيم) كتفيه ، قائلاً :

— متبقيان معنا بعض الوقت .

سأله فى انبهار :

— إلى متى ؟

هز كتفيه مرة أخرى ، وابتسم ابتسامة أقرب إلى الجذل ، وهو يغمغم :

— من يدري ؟

وخيل لـ (حسين) أنه يهوى فى حفرة ..

حفرة عميقة ..

رهية ..

في بئر لا قرار لها ..
ولا أمل في النجاة منها ..

لم يكن (مفيد) أبداً ممن ينهبون بـ (القاهرة) ، مثلما يفعل سكان الريف عادة ، ومثلما بدا الحاج (سعفان) ، الذي يرافقه في رحلته ، منذ توقف بهما القطار القادم من (طنطا) ، في محطة (مصر) ..
فـ (مفيد) ما زال كما هو ، يعشق الريف بأرضه وخضرته ..
وبـ (مديحة) ..
ثم إن ضخامة (القاهرة) لم تكن الشيء الذي يشغل بال (مفيد) ..
بل كان كل ما يفكر فيه هو البحث عن والده وشقيقه ..
ولهذا لم يضع لحظة واحدة ، فاستقل واحدة من سيارات الأجرة ، وهتف بسائقها :

— البوليس السياسي .

بسمل السائق وحوقل ، واستعاذ بالله (سبحانه وتعالى) من شياطين الإنس والجن ، وانطلق في طريقه لاعتنا حظه السيئ ، الذي سيذهب به إلى ذلك المكان ، الذي يخشى كل مصري مجرد المرور من أمامه ، في حين راح (مفيد) يسأل الحاج (سعفان) في المقعد الخلفي للسيارة :

— أتظننا سنجدكما يا حاج ؟

تردد الحاج (سعفان) لحظة ، ثم أجاب في خفوت :

— فليفعل الله ما فيه الخير يا ولدي .

قال (مفيد) في أمل :

— سيرشدوننا إلى مكانهما على الأقل :

سأله السائق في حذر :

— هل اعتقل البوليس السياسي أحد أقاربك ؟
أجابه (مفيد) :

— نعم .. أبى وشقيقى .

زفر السائق في أسف ، وهو يقول :

— لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .. شد حيلك يا ولدي .

شحب وجه (مفيد) ، وهو يغمغم :

— هل تعلم شيئاً عن مثل هذه الأمور ؟

هتف السائق ، وكأنما ينفي عن نفسه تهمة بغیضة :

— لا .. لست أعلم شيئاً .

سأله (مفيد) مرة أخرى :

أتظننا سنجدكما ؟

كرر السائق في رعب :

— لست أدري .. لست أدري .. لست أعلم شيئاً .

وأطبق شففيه بعدها ، فلم ينبس بحرف واحد ، حتى وصلت السيارة إلى المبنى المنشود ، فراح يرمقه في خوف ، حتى هبط (مفيد) والحاج (سعفان) من السيارة ، ونقده (مفيد) أجره ، فانطلق بالسيارة وكأنما يفر من شياطين الدنيا كلها ..

واتجه (مفيد) في ثبات إلى حارس البوابة ، وقال :

— أريد مقابلة الصاغ (إبراهيم مكى) .

تطلع الحارس في استهتار وسخرية إلى ذلك الفتى اليافع ، الذي يقف أمامه في ثبات ، وسأله :

— تريد مقابلته ؟! .. أنت قريب له ؟

أجابه (مفيد) بنفس الثبات :

— بل أريد أن أسأله عن أبى وشقيقى .

سأله الحارس :

— وما شأنه بهما ؟

أجابه فى حزم :

— لقد اعتقلهما أمس ، و.....

هتف الحارس مقاطعاً :

— اعتقلهما ؟! وتريد أن تسأله عنهما ؟!

قال (مفيد) :

— نعم .. وماذا فى هذا ؟

دفعه الحارس بكعب بندقيته ، وهو يقول فى غلظة :

— اذهب يا فتى .. اذهب .

هتف به (مفيد) :

— كيف أذهب ؟.. لقد أتيت أسأل عن أبى وشقيقى ، و.....

صاح به الحارس فى خشونة ، وهو يدفعه مرة أخرى بعيداً :

— قلت لك اذهب .

قال (مفيد) فى عناء :

— وماذا لو لم أفعل ؟

أدهشه أن صوب الحارس فوهة بندقيته إلى صدره ، وهو يقول فى قسوة :

— حاول ، وستخترق رصاصتى قلبك ، فالأوامر لدى تحم اتخاذ هذا

الأسلوب ، مع كل من يحاول الدخول إلى هنا عنوة .

أمسك الحاج (سعفران) كفى (مفيد) ، وجذبه إلى الخلف ، وهو
يقول فى مرازة :

— تعال يا ولدى .. من الواضح أن هذا الطريق مسدود فى وجوهنا ، وأنا
قد فقدنا أثر والدك وشقيقك .

غمغم (مفيد) ، وهو يتعد عن المبنى فى ألم :

— نعم .. لقد فقدناهما .. فقدناهما .

وسالت من عينيه الدموع ..

٧ - الاتهام ..



كان قرص القمر يتوسط سماء صافية ،
انتشرت فيها نجوم لامعة
كالدرر ، عندما تسلت (مديحة)
من منزلها ، وراحت تحت الخطأ وسط
الحقول الخضراء ، في طريقها إلى حيث شجرة
الصفصاف الكبيرة ، على حافة أرض
(البهاوى) ..
لم تكن أول مرة تسلل فيها من منزلها في مثل
هذا الوقت ..
ولأول مرة تذهب فيها إلى حيث شجرة
الصفصاف ..
وفي أعماقها كانت تشعر بسعادة كبيرة ..
سعادة عاشقة صغيرة ، لم تتجاوز منتصف
سن المراهقة بعد ..

وعند جذع شجرة الصفصاف ، كان (مفيد) ينتظرها ..
ولقد استقبلها في لهفة وحب حقيقيين ..

وعندما تشابكت أصابعهما ، كان قلباهما يخفقان في حنان وهيام ، وكانت
جرة الخجل تكسو وجه (مديحة) كله ، وهي تغمغم :

— كيف حالك ؟

همس (مفيد) :

— كيف حالك أنت ؟

لم يجب أيهما السؤال ، فقد كانا يعلمان أنه مدخل لتهدة لواذع قلوبهما
الصغيرين ، ومفتاح لبدء الحديث بينهما ..

ولقد عاونها (مفيد) على الجلوس عند جذع الشجرة ، وسألها في حنان :

— هل أنهيت امتحاناتك ؟

أومأت برأسها إيجاباً ، وهي تقول :

— نعم .. لقد أنهيت منها اليوم .

ثم سأله في لهفة :

— وماذا عنك ؟

ابتسم مجيئاً :

— بقي أمامي اختبار واحد .

غلفهما الصمت لحظات بغلافه الرقيق ، الذي يبدو في قلوب العاشقين أبلغ
من قصائد شعر ودواوين غزل ، وراح هو يتأمل وجهها الصبح ، وقد غلفه
ضوء القمر بغلالة فضية صافية ، زادت من بهائه وحسنه ، فاحمرت وجنتاها
خجلاً ، وزادها هذا فنة ، فخفضت عينيها في حياء ، مغممة :

— أما من أخبار عن الحاج و (حسين) بك ؟

لم تكذب تنطق بسؤالها ، حتى شملتها موجة قوية من الندم ، فقد ارتسم الحزن
على ملامحه كلها ، وغمغم في مرارة :

— لا .. لقد حاولنا أن نعثر على أثر لهما ، ولكننا عجزنا .

ربت على كتفه متعاطفة ، وسأله :

— ألا يعلم أى مخلوق أين ذهب ؟

هز رأسه نفيًا ، وقال :

— الجميع يؤكدون أنه ما من وسيلة لمعرفة مكانهما ، سوى البوليس السياسى نفسه ، ولقد عجزت عن الوصول إلى الصاغ (إبراهيم مكى) ، الذى اعتقلهما من السراى ، ويقينى أنه الوحيد الذى يمكنه إرشادى إليهما .
تمت مشقة :

— وما وقع هذا على السراى ؟

زفر فى مرارة ، وأجاب :

— كل الأمور مقلوبة ، فـ (حافظ) يكاد يكون منهارًا ، إذ أنك تعلمين شدة ارتباطه بأبى ، و (نعيمة) تركت منزلها تقريبًا لتقيم معنا ، وهى تشارك أخواتى الأخريات فى بكاتهن المتواصل ليل نهار ، أما زوج (نعيمة) فمازال يتحاشى زيارتنا ، على عكس خطيب (توحيدة) ، الذى يهيم بأحوالنا كثيرًا .
سألت فى حنان :

— وماذا عنك أنت ؟

رمقها بنظرة امتنان ، وكأنما يشكرها سؤالها عنه ، وغمغم :
— أحاول احتمال الموقف .

غمغمت وهى تربت على كتفه مرة أخرى فى حنان :

— أنت دائماً قادر على الاحتمال .

تطلع إلى عينيها فى حب ، وتسالت أصابعه تحتضن أصابعها الرقيقة ، و.....
وفجأة ، دوى طلق نارى بعيد ، ارتجف له جسدهما ، وهتفت هى فى رعب :

— ما هذا ؟

عقد حاجبيه ، وهو يتطلع إلى حيث دوى الطلق النارى ، وقال :
— لست أدرى .

تعاقبت الأعيرة النارية فى الهواء ، على نحو يوحى بمحدث أمر جلل ، مما جعل (مديحة) تهتف مذعورة :

— رباه !.. ماذا يحدث ؟

أجابها فى صلابة ، تفوق سنوات عمره بكثير :

— لا تقلقى .. عودى إلى منزلك على الفور ، ولا تغادريه .

أسرعت تعدو عائدة إلى منزلها القريب ، وسط أرض (البهاوى) ، وتابعها هو ببصره فى اهتمام ، حتى اطمأن إلى وصولها إلى المنزل ، على ضوء القمر المكتمل الاستدارة ، ثم أسرع نحو السراى ، ولم يكذب يبلغها ، حتى استقبلته (شريفة) ، وهى تسأله فى خوف :

— ماذا هناك ؟

هز رأسه ، مغمغمًا :

— لست أدرى .. ربما هى محاولة سرقة ، أو شئ من هذا القليل .

أسرعت إليهما (ناهد) من الداخل ، تقول فى قلق :

— ادخلا إلى المنزل ، فقد يصيبكما عيار طائش .

أسرع الثلاثة إلى داخل السراى ، وراى الصمت فى الخارج ، بعد أن توقفت الأعيرة النارية ، فقالت (توحيدة) فى خفوت :

— ترى من يسرق من ؟

أجابها (مفيد) :

— لن نلبث أن نعلم كل التفاصيل ، عندما تشرق شمس الغد ، فالأخبار تنتشر فى قريتنا فى سرعة .

هتفت (ناهد) فى ضيق :

— هل منتظر حتى الغد ؟

رمقها (مفيد) بنظرة استكثار ، ثم التفت إلى (توحيدة) يسألها :

— كيف حال (حافظ) ؟

أجابته وهي تنهد في عمق :

— حاله تقلبنى .. فهو لا يتناول سوى النذر اليسير من الطعام ، ويكى

طيلة الوقت تقريباً .

قال في ضيق :

— كم يضايقنى ضعفه هذا ! .. ينبغي أن يتأسك قليلاً كرجل .

قالت محاولة إيجاد مبرر :

— أنت تعلم شدة تعلقه بأبى .

قال معترضاً :

— هذا ليس مبرراً .

تناهى إلى مسامعهما — فى تلك اللحظة — وقع حوافر عدد من الخيول ،

يقترّب من السراى ، فقالت (شريفة) فى قلق :

— يارب خيراً .

وهتفت (ناهد) :

— ترى هل يتعلق قدومهم بطلقات النيران ؟

سمع الجميع الخيول تتوقف أمام باب السراى مباشرة ، فهتف (مفيد) :

— (عبد الحميد) .

أسرع إليه (عبد الحميد) ، بزىه الرث ، ونحو له الشديد ، فاستطرد :

— فلتّر من الباب .

غاب (عبد الحميد) لحظات ، ثم عاد يقول :

— البك المأمور يطلب رؤيتك ياسيدى (مفيد) .

قال (مفيد) فى قلق :

— رؤيتى أنا ؟

واتجه إلى حجرة الضيوف معقود الحاجبين ، ولم يكده يلجها ، حتى رأى
العمدة والمأمور وبعض جنود الشرطة والخفراء ، وقد بدت الصرامة فى
وجوههم جميعاً ، فقال :

— مرحباً بكم .. خيراً .

أجاب المأمور فى صوت صارم :

— جرت منذ لحظات محاولة لسرقة مواشى العمدة .

سأله (مفيد) فى هدوء :

— أكان هذا سبب تلك الأعيّة النارية ، التى انطلقت منذ قليل ؟

أجاب العمدة بابتسامة غامضة :

— نعم .. هو السبب طبعاً .

رمقه (مفيد) بنظرة باردة ، وقال :

— وما شأنى أنا بهذا ياسيادة المأمور ؟

قال المأمور بنفس الصرامة :

— لقد طارد خفراء العمدة السارقين ، ونجحوا فى إلقاء القبض على أحدهم .

عاد (مفيد) يسأله بنفس البرود :

— وما شأنى بهذا أيضاً ؟

رماه المأمور بنظرة طويلة أشد بروداً ، قبل أن يلتفت إلى أحد جنوده ، قائلاً

فى صرامة :

أحضّر اللص .

ظل (مفيد) ثابتاً هادئاً ، محتفظاً بكل قلقه وتساؤلاته فى أعماقه ، حتى عاد

الجندي باللص ، ودفعه داخل الحجرة ، فطلع إليه (مفيد) فى حيرة ، وأيقن

من أنه لم ير وجهه قط من قبل ، ولهذا كانت دهشته عارمة ، عندما رفع اللص

عينيه إليه ، وهتف :

— (مفيد) بك .. أنقذنى .

هتف (مفيد) فى دهشة :

— أنقذك ؟! .. هل أعرفك يا رجل ؟

صاح اللص :

— تعرفنى ؟! .. هل تريد التخلّى عنى يا (مفيد) بك ؟ .. ألسنت أنت من

أمرنا بسرقة المواشى ؟

تراجع (مفيد) كالمصعوق ، وهو يهتف :

— أنا ؟

ارتسمت على شففى العمدة ابتسامة متشفية ، وهو يقول :

— لقد اعترف الرجل يا (مفيد) .

رفع (مفيد) عينيه إلى وجهى العمدة والمأمور ، وفهم اللعبة كلها من

ابتسامتهما على الفور ، فعمد حاجبيه ، هاتفاً :

— يا لكما من لعينين !! ولكن خطتكما لن تفلح أبداً !

هتف اللص :

— ولكن لماذا تنكر يا (مفيد) بك ؟ .. لقد اعترفت أنا لأريج ضميرى ..

أنت كنت معنا فى أثناء السرقة .

صاح به (مفيد) فى غضب :

— كذبت أيا اللعين !!

سأله المأمور فى صرامة :

— أين كنت إذن ، عندما انطلقت الأعمرة النارية ؟

لم ينبس (مفيد) ببنت شفة لحظات ..

لقد استعاد ذهنه الموقف فى سرعة ..

لقد كان مع (مديحة) عندما انطلقت الأعمرة النارية ..

كان معها عند جذع شجرة الصفصاف ..

ولكن من المستحيل أن يذكر ذلك للمأمور ..

لن يفضح الإنسانية التى أحبها أبداً ..

وبكل صلابة ، قال :

— كنت أتنزه وحدى وسط الحقول .

هتف اللص :

— بل كنت معنا نسرق المواشى ، بناء على خطة وضعتها أنت .

صاح به (مفيد) :

— خستت أيا الحقير !! كيف تتهمنى باتهام وضع كهذا ؟! .. لماذا ألبأ

إلى سرقة مواشى العمدة ، والذى يمتلك أضعاف أضعافها ؟

أجابه المأمور بابتسامة ساخرة شامتة :

— حتى لا يعلم والدك كم تنفق على لعب القمار .

هتف (مفيد) :

— القمار ؟! .. أى قمار ؟

أجابه العمدة فى دهاء :

— القمار .. اليسر يا فتى .. إن لدينا شهوداً على أنك تدمنه ، وتتسلل من

منزلك يومياً ، تمارسه مع شلة من أدنى فئات المجتمع ، ومن بينهم هذا اللص ،

وأنت تخشى أن يدرك والدك ما تفعله ، عندما تطالبه بنقود لتغطية خسائرك

الباهظة ؛ لذا فلم يكن لديك سوى سرقة المواشى وبيعها ، لتغطية نفقاتك .

قلب (مفيد) شففيه فى امتعاض ، وهو يقول :

— شهود وخطة ودوافع .. لقد تحالفتما مع الشيطان حقاً هذه المرة .

ابتسم المأمور فى سخرية ، وهو يقول :

— كف عن تلك السفسة يا فتى .. لقد وقعت هذه المرة ، وأنا ألقى

القبض عليك بتهمة السرقة ..

ومرة أخرى ، انطلقت صرخة (شريفة) ترج السراى ..

٨ - الانهيار ..

« لماذا يارب ؟ .. لماذا ؟ .. »

هتف الحاج (البهاوى) بهذه العبارة ، بكل ما يملأ نفسه من ألم وبأس ومرارة وإحباط ، ثم لم تلبث الدموع أن تفجرت في عينيه ، وغمرت وجهه ، الذى كسسته حبة نمت مع قلة العناية والاهتمام ، فاقرب منه ابنه (حسين) ، وغمغم في تعاطف مريب :

— رويدك يا أبى .. إننا مظلومان .. الجميع هنا يعلمون هذا .

هتف الحاج (البهاوى) في ألم :

— لا فائدة يا ولدى .. لا فائدة .

وعادت الدموع تفرق وجهه ، وهو يستطرد :

— لقد خسرت كل شيء .. خسرت كل ما ربحت ، وكل ما حلمت به طيلة عمري .. إننا هنا في جحيم أرضى يا ولدى .. في قبر يدفن فيه الأحياء .
قال (حسين) محاولاً تهدئته :

— لا يا والدى .. إننا سنخرج من هنا قريباً .. قريباً جداً .

هز الحاج (البهاوى) رأسه في يأس ، وهو يقول :

— لا تحاول خداع نفسك بهذا يا ولدى .. أنت تعلم مثل أن من يدخل إلى هنا لا يخرج أبداً .. أنت تعلم هذا .

تراجع (حسين) مغمغماً في ارتياح :

— لا يا أبى .. لا تقل هذا .. لا تقل هذا .

والتصق بجدار الزنزانة ، مستطرداً :

— لا تحطم أحلام عمري كلها بهذه البساطة .

غمغم (البهاوى) في مرارة :

— أحلام عمرك !؟

ثم رفع عينيه إليه ، مستطرداً في انهيار :

— حتى الأحلام صارت سجيناً هنا يا ولدى .. حتى الأحلام ..

أطلق المأمور ضحكة ظافرة عالية ، وهو يدق بيده على فخذه ، هاتفاً :

— رائع يا عمدة !! أنت فعلاً عبقرى .. عبقرى كبير .. على الرغم من أنك

تعجز عن كتابة اسمك في وضوح .

لوح العمدة بكفه ، وهو يتسم في دهاء ، قائلاً :

— وماذا فعل المتعلمون ؟

أطلق المأمور ضحكة مجلجلة أخرى ، قبل أن يقول :

— صدقت .. وماذا فعل المتعلمون ؟

ثم ابتسم في جدل ، مستطرداً :

— ولكن خطتك كانت عبقرية بحق ، فأنت دفعت رجالك لمراقبة الفتى

طيلة الأسبوع الماضى ، وعلمت أنه يتسلل من منزله كل ليلة ؛ ليلتقى بحبيبة قلبه

عند جذع شجرة الصفصاف ، واستغللت ذلك ، واثقا من أن شهادته ستمنعه

من ذكر الحقيقة ، ومن تبرئة نفسه على حساب سمعة الفتاة ، مما يسهل إدانته في

قضية السرقة .

قال العمدة مبتسماً في ظفر :

— لقد ساعدنا (مرزوق) كثيراً أيضاً ، فعلى الرغم من أنه لص كبير ، إلا

أنه أوفى بوعده تماماً ، واثمهم (مفيد) بأنه اغرض على السرقة ، والمشارك فيها

وانخفض صوته ، وهو يستطرد :

— ومن الضروري أن توفي بوعدنا له بدورنا .

لوح المأمور بكفه هاتفا في مرج :

— بالطبع .. سنوفي بما وعدناه به .

ثم تنهد في ارتياح ، وقال :

— المهم أننا مازلنا نواصل تحطيم عائلة (البهاوى) .

قال العمدة في ثقة :

— لن تقوم لهم قائمة بعد ذلك .. صدقتي ، فلقد أشعت في القرية كلها أن

(حسين) ووالده يؤيدان تنظيم الضباط الأحرار ، وأن (حسين) بالذات أحد

كبار التنظيم ، ونشرت خبر إلقاء القبض على (مفيد) بتهمة السرقة .

وأطلق ضحكة قصيرة ، قبل أن يستطرد :

— والبقية في الطريق .

تألفت عينا المأمور ، وهو يقول :

— نعم .. البقية في الطريق .

وازداد بريق عينيه ، وهو يستطرد :

— لقد انتهت عائلة (البهاوى) .. انتهت تماما .

جلس (مفيد) في زنزانته شاردا ، يفكر فيما آل إليه أمر العائلة في الآونة

الأخيرة ، فلقد انتهالت المصائب عليهم بغثة من كل صوب ، وراح الجميع

يدسون لهم التهم والأباطيل ، كما لو أن سنوات المودة بينهم وبين أهل القرية قد

انتهت بغثة بلا رجعة ..

ولكن لماذا ؟ ..

لماذا كرههم الجميع فجأة ، وعلى رأسهم العمدة والمأمور ؟ ..

ما الذي تبدل في حياتهم ؟ ..

الآن (حسين) قد التحق بالكلية الحربية ؟ ..

أم لأن والده كان قاب قوسين أو أدنى من الحصول على رتبة الباشاوية ؟ ..

بدت له النقطة الأخيرة أكثر منطقية ؛ لأنها كانت ستصنع فجوة مباغته بين

والده والآخرين ..

فجوة تجعله يعلو العمدة والمأمور معا ، بعد أن كان يسعى دوما

لخطب ودهما ..

وفي مرارة ، ارتسمت على شفثيه ابتسامة ، وهو يغمغم :

— قر عينا إذن يا (حسين) ، ها هو ذا ما جلبه لنا سعيك وراء اللقب ..

انفص جسده بغثة ، عندما تنهى إلى مسامعه صوت هامس حنون ، يهتف

باسمه ، فهب واقفا ، وتعلق بقضبان نافذة الحجز ، وهو يهتف في صوت

خافت :

— (مديحة) .. أهو أنت ؟

أتاه صوتها الحنون مفعما باللوعة ، وهي تقول :

— نعم يا (مفيد) .. هو أنا .. كيف أنت ؟ .. ماذا فعلوا بك ؟

— أجابها في مرارة :

— بل قولي ماذا فعلوا بأسرتي يا (مديحة) .. إنهم يسعون لتدميرنا جميعا .

قالت في صوت حمل لحة من الدموع التي تفرق وجهها :

— ولكنك برىء يا (مفيد) .. لقد كنت معي عندما سمعنا الأعيمة

النارية ، وكنا

قاطعها في حزم صارم :

— إياك أن تذكرى هذا الأمر مخلوق يا (مديحة) .. إياك .

هتفت في ألم :

— ولكن يا (مفيد) ..

صاح في صرامة لا تقبل الجدل :

— إياك يا (مديحة) .

سمع صوتها وهي تبكي ، وهو يعجز عن رؤيتها لارتفاع قضبان الحجز ،
فقال مشفقاً :

— عودى إلى منزلك يا (مديحة) .. عودى قبل أن يتبه عم (إسماعيل)
إلى غيابك .

قالت باكية :

— يؤلمنى أن أتركك وحدك يا (مفيد) .

أجابها محاولاً التسرية عنها :

— لست وحدى .. فذلك اللص الذى شهد ضدى فى الحجرة المجاورة .

قالت وهي تنتحب :

— ماذا سيفعلون بك يا (مفيد) ؟

تنهد فى مرارة ، وقال :

— لست أستبعد أن يفعلوا بى أى شئ .. حتى أن يقتلوني .

صرخت فى رعب :

— يقتلونك !؟

أجابها :

— نعم .. يدعون محاولة فرارى ، ويطلقون على النار .

هتفت ملتاعة :

— لا تقل هذا يا (مفيد) .. لا تقل هذا .

تنهد فى عمق ، وقال :

— لا تشغلى عقلك بدناءاتهم يا (مديحة) .. هيا .. عودى إلى منزلك .

بللت دموعها وجهها كله ، وهي تقول :

— كم أحبك يا (مفيد) !!

اختلج قلبه ، على الرغم من القضبان المحيطة به ، وتشبث قبضته بأسوار
سجنه ، وهو يهتف :

— تخيىنى !؟

وانطلقت عواطفه كلها مع صوته ، وهو يتابع :

— يا لعجائب هذه الدنيا !!.. إننى أتمنى منذ عرفتك أن أسمع منك هذه
الكلمة ، ويشاء الله (سبحانه وتعالى) ألا أسمعها منك إلا وأنا محاط بهذه
القضبان ، وأصابعى تعجز عن احتضان أصابعك .

هتفت :

— لا يا (مفيد) .. لن تعجز أبداً .

راحت ترفع قامتها الضئيلة ، بأقصى ما يمكنها ، وتمديد يدها إلى أعلى فى شدة ،
وامتدت أصابعه هو خارج قضبان النافذة ..

وتلامست أصابعهما ..

لم تنجح يده فى احتضان كفها الرقيقة ..

ولكن الأصابع تلامست ..

وسرى تيار الحب بينها ..

وهتف (مفيد) من أعماق أعماق قلبه :

— أحبك يا (مديحة) .. أحبك .

سالت الدموع من عينيها مرة أخرى ، وهي تهتف :

— أنا أيضاً أحبك .

كان القلبان الصغيران يعرفان الحب لأول مرة ..

يعرفان حبا صاقياً نقياً ..

وفى حنان الدنيا كلها ، قال (مفيد) :

— هيا يا (مديحة) .. اذهبي .

غمغمت في أسي :

— أذهب ؟

قال :

— نعم .. عودي إلى منزلك .

هتفت وهي تحفف دموعها :

— اهم بنفسك كثيرا .

قال في قلق :

— سأفعل ، ولكن اذهبي بسرعة ، فأنا أسمع وقع أقدام تقترب .. اذهبي .

تركت موقعها ، وراحت تبعد عن المكان في سرعة ، إلا أنها لم تلبث أن

توقفت ، وغمغمت :

— ترى ماذا يريدون منه ، في مثل هذا الوقت ؟ ..

وفجأة ، تناهى إلى مسامعها صوت أحد الجنود يهتف :

— السجين يحاول الهرب .

سقط قلبها بين قدميها ، وهي تتذكر حديث (مفيد) عن اغتياله في أثناء

محاولة فرار ملفقة ، وهتفت في ذعر :

— (مفيد) .

وفجأة انطلق دوى الرصاصات في حجرة الحجز ، وصرخت (مديحة) في

لوعة لا مثيل لها :

— (مفيد) .. لا ..

٩ — التحول ..

هب عم (إسماعيل) من فراشه فرغا ، وهتف بزوجه ملتاغا :

— أين (مديحة) ؟

نهضت الزوجة من الفراش ، وهي تسأله في حيرة وقلق :

— في فراشها حتما .. لماذا تسأل ؟

غادر الفراش ، وهو يضع يده على صدره ، قائلا في صوت لاهث ،

من شدة الانفعال :

— يخيل إلى أنني قد سمعتها تصرخ في الخارج .

غمغمت زوجته ، وقد سرى قلقه إلى صدرها :

— في الخارج ؟! .. وماذا تفعل (مديحة) في الخارج الآن ؟

لم يكذب الرجل يقع على فراش ابنته الكبرى الخائبة . حتى أطلق شهقة

ذعر ، وهتف وهو يختطف جلبابه :

— (مديحة) ؟! .. ابنتي ؟

ارتدى جلبابه ، وهو يعدو خارج

منزله الصغير ، عبر الحقول ، إلى حيث

انطلقت صرخة ابنته ، حتى لمح جسدها

الصغير ، ملقى بين أعواد النباتات ،

فهرع إليها يحملها بين ذراعيه ،

هاتفا في لوعة :

— (مديحة) .. ابنتي !!



فتحت (مديحة) عينين مغرورتين بالدموع ، وهي تتحب قائلة :

— لقد قتلوه يا أبى .. قتلوا (مفيد) .

اتسعت عينا الرجل في رعب ، وهو يهتف :

— قتلوه ؟!

انتحبت هاتفة :

— نعم يا أبى .. قتلوه .. العمدة والمأمور قتلاه .. ادعيا أنه حاول الفرار ، وأمر أرحامهما بقتله .

حدق في وجهها في ذهول وذعر لحظات ، قبل أن يعقد حاجبيه ، قائلاً في صرامة :

— اذهبي إلى البيت .

هتفت :

— لقد قتلاه يا أبى .

صاح بها في حدة :

— اذهبي إلى البيت .

وقفت تترنخ أمامه ، فأضاف في صرامة قاسية :

— ستتحدث عن سبب وجودك هنا ، في هذه الساعة المتأخرة ، عندما أعود إلى المنزل .

وعلى الرغم من ألمها وحزنها على (مفيد) ، شحب وجهها رعباً لصرامة أبيها ، وانطلقت تعدو نحو المنزل ، في حين اتجه (إسماعيل) إلى نقطة الشرطة ، وهو يغمغم في توتر ذاهل :

— مستحيل أن يكونا قد قتلاه !! إن (مفيد) بك هو أكثر أبناء الحاج (البهاوى) عقلاً ورصانة ، على الرغم من صغر سنه ، حتى أنني أجزم بأن عملية سرقة المواشى هذه ملفقة .. سترك يارب الكون .. سترك .

راح يتقدم من نقطة الشرطة في قلق وتوتر ، حتى بلغها وقد امتقع وجهه كثيراً ، وسأل أحد جنود الحراسة في توتر :

— ماذا حدث ؟

أجابه الجندى في هدوء ، وكأنه الأمر لا يعنيه :

— لقد حاول أحد اللصوص الفرار ، فأطلق عليه خفيّر الحراسة النار ، وأرداه قتيلاً .

حرف لعاب (إسماعيل) ، وهو يغمغم :

— ومن هذا اللص ؟

رمقه الجندى بنظرة طويلة ، قبل أن يجيب في بساطة :

— (مرزوق) ..

وحقق قلب عم (إسماعيل) في ارتياح ..

كان (حسين) في حالة يرثى لها حقاً ، عندما تم استدعاؤه إلى مكتب الصاغ (إبراهيم مكى) ، في الخامسة صباحاً ، فقد نمت لحيته في شدة ، واتسخت ثيابه كثيراً . ونحطم الكبرياء في نفسه تماماً ، حتى أن الدهشة قد رجته من أعماقه ، عندما استقبله (إبراهيم) بابتسامة عريضة ، ونهض من خلف مكتبه يستقبله في حرارة . ويصافحه في قوة ، هاتفا :

— مرحبا يا (حسين) .. كيف حالك ؟ .. وكيف حال الحاج ؟

غمغم (حسين) في شك :

— في أسوأ حال كما ترى .

هتف (إبراهيم) في حرارة :

— لا تقل هذا يا رجل .. إنك كأخى .. والحاج كوالدى تماماً .

رمقه (حسين) في حيرة شديدة ، وقد أدهشه ذلك التحول الكبير في شخصية الصاغ (إبراهيم مكى) ، وغمغم في حذر :

— أهى وسيلة استجواب جديدة ؟

هتف (إبراهيم) مستكراً :

— استجواب ؟!.. ولماذا استجوبك يا رجل ؟.. إنك لم ترتكب جريمة .

— وأسرع ينادى حارس مكتبه الخاص ، وهو يغمز لـ (حسين) فى مودة ، مستطرداً :

— لا ريب أنك ترغب فى ارتداء زى نظيف ، وحلاقة ذقنك .. أليس كذلك ؟

غمغم (حسين) فى شك وحذر :

— بلى .

التفت (إبراهيم) إلى حارسه ، وقال فى حزم :

— أحضر شفرة حلاقة نظيفة لـ (حسين) بك ، وحلة من صوالى الخاص ، وأحضر للحاج (البهاوى) شفرة أخرى جديدة ، وثوباً يليق به .

وربت على كف (حسين) فى حرارة ، هاتفاً :

— اجلس يا رجل .. اجلس .. مارأيك فى قدح من القهوة .

جلس (حسين) ، وهو يسأله فى حذر :

— ماذا حدث بالضبط ؟

أجابه (إبراهيم) بابتسامة عريضة :

— لم يحدث شيء .. أنت والحاج برينان ، ولا يوجد أى داع لاحتجازكما

هنا .. ومن الضروري أن نطلق سراحكما على الفور .

سأله فى دهشة :

— ولكنك قلت إن أحداً لا يجرؤ على إطلاق سراحنا .

أشار (إبراهيم) إلى صدره ، قائلاً فى حزم :

— أنا أجرؤ .

وعاد يتسم بتلك الابتسامة العريضة ، مستطرداً :

— من الضروري أن يتخذ الإنسان موقفاً محازماً ، فى الوقت المناسب .. أليس كذلك ؟

غم (حسين) ، وقد تضاعف حيرته :

— بلى .

اعتدل (إبراهيم) ، وهو يقول مبتسماً :

— أتعلم أننى أحترم الشخص ، الذى يجيد اختيار طريقه يا (حسين) بك ؟

رمقه (حسين) بنظرة صامتة ، وقد تضاعف التساؤل الحائر فى أعماقه ،

عما يقصده الصاغ (إبراهيم) من هذا التحول المفاجئ ، قبل أن يميل هذا الأخير نحوه ، ويستطرد :

— مثلك أنت والحاج .

ردد (حسين) خلفه ، فى دهشة وحيرة :

— مثلى أنا والحاج ؟!

قال (إبراهيم) ، وقد بدت ابتسامته وكأنها نحتت على شفثيه نحاً :

— بالتأكيد .. لقد كان تأييدكما للضباط الأحرار منتهى الحكمة .

تطلع إليه (حسين) طويلاً ، قبل أن يقول :

— ألم أقل لك إنه استجواب جديد ؟

مال (إبراهيم) نحوه ، وهو يقول :

— بل تأييد يا (حسين) بك .. تأييد وعهنة .

غمغم (حسين) ، وقد بلغت حيرته ذروتها :

— تهنة بماذا ؟

تراجع (إبراهيم) ، وازدادت ابتسامته اتساعاً ، حتى بلغت أقصاها ،

وهو يقول :

— لقد قام أصدقاؤك بانقلاب في صفوف الجيش ، ومن الواضح أنهم سيمحون اللعبة كلها .. تهتأق أيها البطل .. تهتأق على نجاح حركة الضباط الأحرار ..

هب العمدة من فراشه وجلا ، على صوت دقات عالية على باب منزله ، فهتف ينادى خفيه الخاص :

— ماذا حدث أيها الخفير ؟ .. ماذا حدث ؟
أسرع إليه الخفير ، وعينه تحملان أثر نوم لم يتلاش بعد ، وهو يقول :
— البك المأمور يا جناب العمدة

هتف العمدة في دهشة بالغة :
— البك المأمور ؟! .. وما الذي أتى به في هذه الساعة المبكرة ؟
ثم أسرع يرتدى جلبابه ، مستطرذا :
— ادخله إلى حجرة الضيوف يا رجل ، وسأهرع إليه على الفور .
قال الخفير :

— لقد دخل إليها يا جناب العمدة ، ويطلب رؤيتك على الفور .
أسرع العمدة إلى حجرة الضيوف ، وهو يردد :
— خيرا بإذن الله .. خيرا بإذن الله ..
ولكنه لم يكن يلج حجرة استقبال الضيوف ، ويشاهد وجه المأمور الممتنع ، حتى تخاذلت قدماه ، فترك جسده يسقط فوق أريكة قريبة ، وهو يقول في شحوب :

— خيرا يا سعادة البك المأمور .
هتف المأمور في لهجة تشف عن توتره وذعره :
— مصيبة يا عمدة .. مصيبة

سأله العمدة في صوت متحشرج ، من شدة جفاف حلقه :
— مصيبة لمن ؟

ضرب المأمور كفا بكف ، وهو يهتف في مرارة :
— نحن فعلناها يا عمدة .. نحن لفقنا لـ (البهاوى) وابنه تهمة التضامن مع الضباط الأحرار ، ونحن لفقنا لـ (مفيد) تهمة سرقة المواشى ، وجعلنا (مرزوق) يعترف أمام الجميع ، ويؤكد التهمة على (مفيد) ، ثم تخلصنا من (مرزوق) ، حتى لا يتراجع في أقواله ، ويكشف أمرنا .. نحن فعلناها يا عمدة .

غمغم العمدة في شحوب تام ، وقد زاده ذعر المأمور وعلعه انبهارا :
— وماذا حدث ؟ .. هل كشف أحدهم أمرنا ؟
هتف المأمور :

— بل حدثت مصيبة يا عمدة .. مصيبة كبيرة .
ثم أمسك كفى العمدة في قوة ، مستطرذا :
— لقد قام الضباط الأحرار بانقلاب ناجح ، وعلى رأسهم اللواء (محمد نجيب) ، وأذاعوا بيانا بذلك في الإذاعة .. أتدرى من أذاعه يا عمدة ؟ .. إنه (أنور السادات) ، ذلك الضابط الذى اتهم في قضية مقتل (أمين عثمان) .. لقد ميزت صوته جيدا .

ظل العمدة يتطلع إليه في ذهول ، وهو يهتف بهذا ، ثم لم يلبث أن غمغم :
— قاموا بانقلاب ؟!
وعلى عكس ما توقع المأمور ، أطلق العمدة تنهيدة ارتياح قوية ، وهو يقول :
— أهذا هو كل شيء ؟

حدق المأمور في وجهه في ذهول ، قبل أن يهتف مستكبرا :
— أى برود هذا يا عمدة ؟ .. أقول لك إن الضباط الأحرار قد قاموا بانقلاب ، فتستبين بالأمر إلى هذا الحد ؟

لوح العمدة بذراعه ، قائلاً :

— الأمر هين بالفعل ، يساعد البك المأمور ، فما الذى يعنيه قيام الجيش بانقلاب ؟ .. إنها مجرد حركة تمرد ، وغضب ينطلق فى صورة مسلحة ، تمامًا مثلما حدث أيام (عرابى) .. ثورة وهياج ، ثم ينتهى الأمر بإعلان المطالب ، والاستجابة لها ، ويذهب قادة الانقلاب للتوقيع فى سجل التشريفات بالسراى ، وينتفى كل شيء .

ألقى المأمور جسده ، الذى هذه الانفعال ، فوق أقرب مقعد إليه ، وهو يغمغم فى دهشة :

— أهذا كل ماتوقعه ؟

أجابه العمدة فى ثقة :

— بالتأكيد .. إنه مجرد انقلاب عسكرى ، ربما ينتهى بتولى (نجيب) وزارة الحرية ، أو منصب قائد القوات .. مجرد تغيرات عسكرية لاشأن لنا بها .. وابتسم فى دهاء ، وهو يستطرد :

— ثم إنه لاشأن لنا — رسميًا — بإلقاء القبض على (البنهاوى) وولده ، أما عن (مفيد) فشهادة (مرزوق) هى التى دفعنا لإلقاء القبض عليه .. كل خطواتنا قانونية تمامًا .. اطمئن .

بدأ بعض الهدوء يتسلل إلى نفس المأمور ، وهو يتمم :

— اتظن هذا حقًا ؟

هتف العمدة فى حماس :

— دون أدنى شك .

ثم ابتسم مستطردًا :

— والآن ماذا تحب أن تتناول على الإفطار ؟

ابتسم المأمور بدوره ، وهو يقول :

— فطائر بالجبن والعسل بالطبع .

قال العمدة فى حماس :

— فليكن .

ثم استطرد وهو يستعيد ابتسامته :

— سأهدى إليك طنا من الفطائر ، عندما ينتهى هذا الانقلاب ، وأقسم

بشرى إنه لن يستمر لأكثر من أسبوع .. أسبوع واحد على الأكثر .



١٠ - العودة ..

أطلقت (شريفة) زغرودة قوية ، تحمل كل سعادتها وفرحتها ، قبل أن تندفع نحو والدها الحاج (البهاوى) ، وهو يدلف إلى السراى ، هاتفة :
— أبى .. مرحبًا بك فى بيتك يا أبى .
التفت الفتيات حول والدهن ، الذى بدا شديد الشحوب والنحول ، ورحن يغمرن وجهه بالقبلات ، فى حين أجهش (حافظ) ببكاء حار ، وغمغم (حسين) بابتسامة مرتبكة :
— هل ستكتفين بالترحاب بأينا فقط ؟
أسرعت شقيقاته إليه ، ورحن يغمرن وجهه بالقبلات بدورها ، فى حين اتجه الحاج (البهاوى) نحو ابنه (حافظ) ، وربت على رأسه فى حنان ، مغمغمًا :
— كيف حالك يا (حافظ) ؟
انهار (حافظ) على كف أبيه ، يغمرها بقبلاته ودموعه ، وهو يهتف :
— كيف حالك أنت يا أبى . حمدًا لله على عودتك سالمًا .
قال (البهاوى) فى صرامة :
— لا تبك يا ولدى .. البكاء ليس للرجال .
انهمرت دموع (حافظ) فى غزارة أكثر ، وهو يقول :
— لن أبكى يا أبى .. لن أبكى .
هتفت (زينب) ، وكأنها تحاول تغيير دفة الحديث :
— هل استمعت إلى بيان الانقلاب يا أبى ؟ .. من الواضح أنها حركة جادة بالفعل .

غمغم الأب :

— يبدو هذا يابنتى .. يبدو هذا .

ثم تلفت حوله ، مغمغمًا :

— ولكن أين (مفيد) ؟

لم يكده يلقى سؤاله ، حتى ساد المكان صمت رهيب ، على نحو أقلقه ، فعاد يسأل فى توتر وجزع :

— أين (مفيد) ؟ .. ماذا أصابه ؟

انهمرت دموع صامته من عين (شريفة) ، وأشاحت (ناهد) بوجهها ، وأخفت (توحيدة) عينها بدموعها ، فهتف بهن ، وقد بلغ به الذعر مبلغه :

— ماذا أصاب شقيقك الأصغر ؟ .. أجبن ؟

قالت (زينب) ، فى لهجة من حسمت أمرها :

— سأخبرك أنا يا أبى .

وترددت لحظة ، بدت له كالدهر ، قبل أن تضيف :

— لقد ألقى المأمور القبض على (مفيد) .. بتهمة السرقة .

اتسعت عينا (البهاوى) فى ذعر ، وهو يهتف :

— السرقة ؟ .. مستحيل !!

أسرعت (زينب) تقول :

— كلنا نعلم أنها تهمة ملفقة يا أبى ، وسيم عرض (مفيد) على النيابة اليوم .

ردد الأب الملتاع :

— على النيابة ؟

ثم التفت إلى ابنه الأكبر ، مستطرذا :

— هيا بنا يا (حسين) .. هيا نهب لنجدة شقيقك .

قال (حسين) فى حزم :

— هيا يا أبى .

ثم التفت إلى شقيقاته ، مستطرذا في صلابه :

— سنعود بـ (مفيد) .. هذا وعد ..

انكمشت (مديحة) في فراشها الصغير ، وراحت تذرف الدمع بلا حدود ، وقد انقسم قلبها بين نوعين من المشاعر ، اهترأت لهما نفسها الصغيرة ، وانكسرت لهما روحها الحاملة ..

كانت تخشى والدها ، بعد عثوره عليها خارج المنزل أمس ، وتحاول تفاديه ، بعد أن آوت إلى فراشها فور عودتها ، وتظاهرت بالنوم عند عودته ، خشية عقابه واستجوابه لها ..

وكانت في الوقت ذاته تشعر بالحزن من أجل (مفيد) ..

صحيح أنها علمت من حديث والدها ، عند عودته أمس ، أن (مفيد) لم يكن القتل ..

لقد سمعته يخبر أمها ذلك ، فاختلج قلبها فرحاً ، وإن لم تغادر فراشها ، خشية العقاب ..

ومن العجيب أن والدها لم يخبر أمها بأمرها هي ..

صحيح أن أمها قد استقبلتها أمس في دعر ، وأنها قد حاولت معرفة سبب خروجها ، في هذه الساعة المتأخرة ، إلا أنها لم تلبث أن تركها ، عندما شعرت — بغريزة الأمومة في أعماقها — أن ابنتها على وشك الانهيار ..

وعندما عاد الأب ، لم يناقش هذا الأمر أبداً ..

لامع زوجته ، ولامع (مديحة) نفسها ..

وكانت هي واثقة من أنه يعلم بأمر تظاهرها بالنوم ، إلا أنه كان — على الرغم من أميته — رجلاً متفتح العقل ، لين العريكة ..

ولكن (مديحة) كانت تشعر بحزن من أجل (مفيد) ؛ لأنه سيدفع ثمن جريمة لم يرتكبها ..

هي وحدها تعلم أن (مفيد) لم يكن يسرق المواشي ، في الوقت الذي اتهم فيه بذلك ، لأنه كان معها ..

ولكن (مفيد) نفسه يمنعها من ذكر هذا ..

هو نفسه يند الدليل الوحيد على براءته ، حتى لا يسيء إلى سمعتها بحرف واحد ..

يا لشهامته ! ..

يا لرجولته المبكرة ! ..

لحظتها أدركت كم تحبه ..

وأدركت كم تعشقه ..

وفجأة انتزعها من أفكارها صوت والدها ، وهو ينطق اسمها في هدوء ، على بعد خطوة واحدة من رأسها ، فانتفض جسدها الصغير في خوف ورهبة ، وأرادت أن تتظاهر بأنها ما تزال نائمة ، إلا أنها وجدت نفسها تحيب في خفوت : — نعم يا أبني .

قال أبوها في هدوء :

— انهضى .

نهضت جالسة على طرف الفراش ، وجسدها الصغير يرتجف في قوة ، ولكن والدها نظر إليها في إشفاق وحنان ، وهو يقول :

— لا تخافي يا صغيرتي .. لن يؤذيك أحد .

خفتت ارتجافها ، مع تربيته الحنون على رأسها ، فسمرت عينيها بوجهه ، وهي تنكمش في مجلسها ، حتى سألها :

— ماذا كنت تفعلين في الخارج يا (مديحة) ؟

أجابته على نحو مباشر :

— كنت أزور (مفيد) يا أبني .

تطلع إليها في دهشة ، وهو يغمغم :

— تزورينه ؟ .. أين ؟

أجابته منكمشة :

— في التخشبية يا أبى .

هتف مستكراً :

— في هذه الساعة المتأخرة ؟!

خفضت عينها وكأنها تعترف بذنبها ، وقالت مبررة :

— كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة لزيارته يا أبى ، فأنا أتسلل عبر الحقول ،

لأراه من نافذة التخشبية الخلفية ، وأخشى أن يراى أحد .

تطلع إليها والدها طويلاً في صمت ، قبل أن يزدرد لعبابه في مرارة ، ويقول :

— وهل فعلت هذا من قبل ؟

غمغمت :

— فعلت ماذا ؟

سألها في مرارة :

— هل التقيت بـ (مفيد) بك قبل ذلك ، في أوقات متأخرة من الليل ؟

كان يمكنها أن تنفى وتكرر ، إلا أنها أجابت في استسلام :

— نعم .

اختلج قلب الأب بين ضلوعه ، وهو يسألها في خفوت ورهبة :

— وماذا كنتم تفعلان ؟

أجابته :

— نتحدث .

سألها في حذر :

— فقط ؟!

رفعت عينها إليه ، وأجابت في استكانة مست شغاف قلبه :

— فقط يا أبى .. أقسم لك .

تهد في ارتياح ، وأغلق عينيه ، وهو يغمغم :

— حمداً لله .

سالت دموعها في صمت ، وشاركتها هو صمتها لحظة ، قبل أن يقول في

حزم :

— اسمعى يا (مديحة) .. أنا أعلم أن (مفيد) بك شاب ملتزم شهم ، وأنه

لم ولن يسيء إليك أبداً ، ولكنى أريد منك وعداً بعدم مقابلته مرة أخرى .

ارتجف قلبها في لوعة ..

كيف يطلب منها الابتعاد عنه ؟ ..

كيف يطالبها بانتزاع جزء من قلبها ؟ ..

وعلى الرغم من لوعتها ، غمغمت مستسلمة :

— كما تأمر يا أبى .

اعتدل في ارتياح ، وهو يقول :

— كنت أعلم أنك ستطيعينى !

سالت دموعها في غزارة ، وهي تقول :

— ولكن يا أبى ..

بترت عبارتها ، مما أعاد إليه قلقه ، وهو يسألها :

— ولكن ماذا ؟

أجابته في تردد :

— ولكن (مفيد) برىء من تلك التهمة .

عقد حاجبيه ، وهو يسألها :

— وكيف يمكن الجزم بذلك ؟

خفضت عينيها في حياء ، وهي تقول :

— لقد كان معي ، في ذلك الوقت ، الذي اتهموه فيه بالسرقة .

اتسعت عينا الرجل ، وهو يهتف :

— كان معك !؟

أجابته باكية :

— نعم .. وهو يعنى من ذكر ذلك ، ويصر على أنه لن يقبل اعتراي

لإنقاذه .

صمت (إسماعيل) ، وهو يتأمل ابنته ، ذات الخمسة عشر يغا ، وأدهشه أنها قد نضجت هكذا ، دون أن يشعر بذلك ، وراح يجول بعينه في تضاريس أنوثتها المبكرة ، قبل أن يتهد في عمق ، متممًا :

— ياله من شهم !

تشبثت به ابنته ، وهي تقول ضارعة :

— من الضروري أن أدلي بشهادتي يا أبى .. سيدبنونه ظلمًا لو لم أفعل .

هتف مستكبرًا :

— ولكن هذا مستحيل !.. لن يمكنني أن أواجه أهل القرية ، عندما تعترفين بأنك كنت معه وحدكما ، في هذه الساعة المتأخرة ، ولن يصدق مخلوق واحد أنكما كنتمما تتحدثان فحسب .. مستحيل .

بكت في حرارة ، وهي تقول :

— أرجوك يا أبى .. إنه مستقبلي .. مستقبل ابن الرجل الذي يرعانا ، والذي نعمل في أرضه .. مستقبل من رفض البراءة ، لو أن ثمنها هو سمعة ابنتك .

حار (إسماعيل) فيما يسمعه من ابنته ، وغمغم :

— ولكن هذا مستحيل !.. إنك حتى تفسدين ما يسعى إليه باعترافك .

اتسعت غيها في ذعر ، وهي تهتف :

— هل ستتخلي عنه إذن ؟.. هل ستتركه يدان ؟

زفر مرة أخرى في عمق ، ونهض من مكانه ، مغمغمًا :

— لا.. لن نتركه .

وانتجه نحو نافذة الحجرة الصغيرة ، وراح يطل منها على أرض (البهاوى) ، التي تحيط بمنزله الصغير من كل جانب ، وهو يدرس الأمر ، ويديره في رأسه ، ثم لم يلبث أن التفت إلى ابنته ، وهو يقول :

— لا يابنتي .. لن يدان (مفيد) بك .

وانعقد حاجباه ، وهو يستطرد في حزم :

— لقد وجدت الحل ..



لم يكده الحاج (البهاوى) وولده (حسين) بخطوان فى شوارع القرية الضيقة ، فى طريقهما إلى نقطة الشرطة ، حتى أحاط بهما أهل القرية من كل جانب ، وراحوا يصافحون الحاج (البهاوى) فى حرارة ، ويهتفون بالبراءة ، والبشر والخبور يملآن وجوههم ، مع ابتسامات عريضة ، ثم التفوا حول (حسين) ، وراحوا يهتفون به :

— مبروك يا بطل .. زملاؤك الأبطال هزموا الحكومة .. أنت وهم أعظم من أنجيبتهم (مصر) .

حاول الحاج (البهاوى) أن يشرح لهم الأمر ، إلا أن (حسين) أمسك كفه فى قوة ، وهو يهمس فى أذنه فى حسم :

— لا تقل شيئاً يا أبى .. أرجوك .

غمغم (البهاوى) فى دهشة وحيرة :

— ولكننا لا نتمنى بالفعل لأولئك الضباط الأحرار .. قاطعه فى حدة :

— ليس الآن يا أبى .. ستحدث عن هذا فيما بعد .. أرجوك .

صمت (البهاوى) مرغماً ، وقد وجد الوقت غير ملائم لمناقشة ابنه فى هذا الأمر ، واكتفى برد تحية أهل القرية ، وشكرهم على حسن استقبالهم ، حتى أصبح هو وولده يسيران على رأس موكب كبير ، أثار دهشة المأمور وذعره ، عندما رآه يتجه نحو نقطة الشرطة ، فأسرع يستقبل (البهاوى) وولده ، فاتخا ذراعيه ، هاتفاً :



— مبروك يا حاج .. مبروك يا (حسين) .. إنه لأسعد أيام قريتنا .. ألف
ألف مبروك .

صافحه الحاج (البهاوى) فى استسلام ، فى حين استقبله (حسين) فى مزيج
من البرود والتعالى ، وهو يقول :

— كانت مسألة وقت فحسب أيها المأمور .

امتقع وجه المأمور ، وخيل إليه أنه يفهم مايعنيه (حسين) ، غمغم وهو
يقودهما إلى الداخل :

— بالطبع .. بالطبع .. كنت أعلم أنكما ستخرجان حتماً .

قال (البهاوى) فى خفوت :

— الواقع أننا لم ..

قاطعه (حسين) ، مكملاً فى حزم :

— الواقع أننا لم نفهم سر عشور رجال البوليس السياسى على تلك
المنشورات ، فلقد كنا نخفى المنشورات الحقيقية فى مكان سرى للغاية .

التفت إليه والده فى دهشة ، فى حين امتقع وجه المأمور ، وهو يغمغم :

— المنشورات الحقيقية ؟! .. أيعنى هذا أنكما ..

قاطعه (حسين) فى حزم :

— نؤيد الضباط الأحرار منذ البداية بالتأكيد ، وأنا مندوبهم فى الكلية

الحرية .

شحب وجه المأمور ، وهو يلقي جسده فوق مقعده ، فى حين ضغط

(حسين) كفف أيه فى قوة ، حتى لا يفسد خطته بدهشة واضحة ،

أو استفسار مفاجئ ..

لقد كان (حسين) يعلم أن حركة الضباط الأحرار ناجحة تماماً ، بدليل
ذلك التحول العجيب فى موقف الصاغ (إبراهيم مكى) منه ومن والده ، بعد
نجاح الانقلاب .

وكان يرغب فى استثمار الموقف لصالحه تماماً ..

وفى تلك اللحظة بالذات ، كان يدرك أنه على حق فى أسلوبه هذا ، فقد بدا
المأمور شديد الارتباك والتوتر ، وهو يقول فى لهجة تخالف لهجته المعتادة ،
وتحمل الكثير من الاحترام والتوقير :

— لقد كان انقلاباً مباركاً بالفعل يا (حسين) بك .. لقد أحسنت اختيار

الجانب الرابع .

تجاهل (حسين) هذا القول ، وهو يسأله فى غطرسة :

— أين (مفيد) ؟

أجابه المأمور ، وقد سقط قلبه بين ساقيه :

— فى النيابة .. أنا آسف .. كنت أؤدى واجبى فحسب .. لقد اتهمه

لص محترف ، و.....

قاطعه (حسين) فى حزم :

— لا بأس .. سنذهب إليه ..

شحب وجه المأمور أكثر وهو يقول :

— سأسرج لكما جوادين ، فالمسافة بعيدة ..

قال (حسين) فى برود :

— هذا أفضل بالطبع .

وباله من تحول !! ..

لقد غادر (حسين) وأبوه نقطة الشرطة على صهوة جوادين ، وخلفهما
موكب رائع مهيب ، من أبناء القرية ، الذين صار (حسين) بالنسبة لهم رمزاً
للقوة والثورة ..

وهمس (البهاوى) فى ضيق :

— ما الذى تفعله يا ولدى ؟

أجابه (حسين) فى حزم :

— أعتلى الموجة الراجحة يا أبى .

همس الوالد فى ضيق أشد :

— وماذا لو فشلت الموجة ، وتم إحباط الانقلاب ؟

أجابه فى ثقة :

— ومن سيحيطه ؟ .. لقد قلتها أنت قديمًا يا أبى .. الجيش هو القوة ، ولقد

هب ذلك الجيش ليفوز بالقيمة ، وأسر كل الضباط الكبار ، الموالين للملك ،

ومن الواضح أنه قد قام بانقلاب ناجح للغاية ، إلى الحد الذى دفع (إبراهيم

مكى) إلى المخاطرة بإطلاق سراحنا ، مجرد تأكيد اعترافه وولائه لقادة

الانقلاب الجديد .. ونحن نملك فرصة ذهبية ، وهى أن الجميع يتصورون أننا

ننتهى إلى القادة الجدد ، وليس من مصلحتنا أن نعارض ذلك .. دعهم يؤمنون

بنا ، ودعنا نحن نبليغ القمة على أكتافهم .

— لم يعترض (البهاوى) على كلام ابنه الأكبر ، الذى يعقد عليه جل

آماله ، بل اكتفى بأن غمغم مستلمًا :

— كما ترى يا ولدى .. كما ترى .

انعشت اللهجة (حسين) ، فانتصبت قامته فى اعتدال ، فوق صهوة جواد

المأمور ، وقال فى حزم ، وهو يتجه مع والده إلى حيث مكتب وكيل النيابة :

— سترى أننى على حق يا أبى .. سترى أننى الرابع دومًا .

وبينا يقول هذا ، كانت عيناه ترقان بوميض قوى ..

وميض شره ..

تطلع وكيل النيابة الشاب إلى (مفيد) فى هدوء ، وهو يسأله :

— كم تبلغ من العمر ؟

أجابه (مفيد) :

— سبعة عشر عامًا .

رفع وكيل النيابة حاجبيه فى دهشة ، وهو يقول :

— فقط ؟ ..! عجبًا !!.. تصورتك فى العشرينات .

ثم لانت لهجته ، وهو يضيف :

— أتعلم أن هذا يجعلك — قانونًا — مجرد حدث يا (مفيد) ؟ .

غمغم (مفيد) فى ضيق :

— وما الفارق ؟

ابتسم وكيل النيابة مشفقًا ، وهو يقول :

— الفارق أضخم مما تتصور ، فأنت غير مسئول عن أفعالك ، من الوجهة

القانونية ، حتى تبلغ الثامنة عشرة من عمرك ، وهذا يعنى أنه يمكن لقاضى

الأحداث إطلاق سراحك ، مع أخذ التعهدات اللازمة على والدك ، و.....

قاطعه (مفيد) فى حزم :

— ولكننى برىء .

تطلع إليه وكيل النيابة فى صمت لحظات ثم سأله بنفس الابتسامة المشفقة :

— هل يمكنك أن تثبت هذا ؟

قال فى حدة :

— عليكم أنتم إثبات أننى مذنب .

هز وكيل النيابة كتفيه ، وقال :

— هناك إثبات على ذلك بالفعل ، فلقد اعترف شريكك بذلك ، قبل أن

يلقى مصرعه ، ولقد سمعه العمدة والمأمور ، و.....

قاطعه (مفيد) مرة أخرى :

— اعترافه لا يعنى شيئاً ، فربما أدلى به تحت ضغوط شديدة .

سأله في هدوء :

— مثل ماذا ؟

أجابه محتداً :

— التعذيب مثلاً ، أو التهديد ، أو حتى مقابل المادة .

مط وكيل النيابة شفّيته ، وقال :

— ربما .

ثم اعتدل ، ومال نحو (مفيد) ، مستطرذاً في حزم :

— سأسألك سؤالاً مباشراً إذن .. هل ارتكبت السرقة ؟

أجابه في حزم :

— لا .

سأله في سرعة :

— أين كنت إذن وقت ارتكابها ؟

حذق (مفيد) في وجهه لحظة ، ثم عقد حاجبيه ، قائلاً :

— هذا شأنى وحدى .

هز وكيل النيابة رأسه نفياً في ببطء ،

وهو يقول :

— لا .. لم يعد شأنك وحدك يا (مفيد) ..

إننا نحقق في أمر حادث سرقة ، ولا بد لك من

برثة نفسك ، مادام هناك أمر يدينك .

تردد (مفيد) لحظة ، ثم قال :

— كنت أجلس وسط حقول أبى ؟

سأله في اهتمام :



(مفيد)

— وحدك !؟

هم (مفيد) بقول يقول شيء ما في تردد ، ولكن قبل أن ينبس بحرف

واحد ، انفتح الباب بغتة ، وظهر على عتبة (حسين) ، فعقد وكيل النيابة

حاجبيه في غضب واستكثار ، في حين هتف (مفيد) في سعادة :

— (حسين) !؟ .. حمداً لله على سلامتك ، أين أبى ؟

سمع من خلف (حسين) صوت أبيه يقول بقلب كبير :

— هأنذا يا ولدى .

ألقي نفسه بين ذراعى والده الحائتين ، وحوّيتهف :

— حمداً لله على سلامتك يا أبى .. حمداً لله على عودتك .

هتف وكيل النيابة في غضب :

— ما الذى يحدث هنا ؟ .. كيف تفتحمان الحجر هكذا ، في أثناء تحقيق

رسمى ؟

اتجه إليه (حسين) ، وقال في استعلاء :

— أنا (حسين البهاوى) ، مندوب الضباط الأحرار .

قال وكيل النيابة في حدة :

— وماذا تريد يا مندوب الأحرار ؟

قال (حسين) في حزم ، وقد ضايقه أن عبارته لم تترك التأثير المنشود ، في

نفس وكيل النيابة :

— إننى شقيق (مفيد) .

أشار وكيل النيابة إلى الخارج ، مجيئاً في حزم أشد :

— انتظر بالخارج إذن ، حتى انتهى من استجوابه .

هتف (حسين) :

— قلت لك إننى مندوب الضباط الأحرار .

صاح به وكيل النيابة في صرامة غاضبة :

— وأنا أمرتك أن تنتظر خارجاً .

تدخل (مفيد) مرتباً على كفف شقيقه ، وهو يقول لتهدئة الموقف :

— انتظر خارجاً يا (حسين) ، أرجوك .

التفت إليه (حسين) في غضب ، في نفس اللحظة التي ظهر فيها (إسماعيل)

عند باب حجرة وكيل النيابة ، وهو يقول في خفوت :

— لدى ما أدلى به في قضية (مفيد) بك يسيادة وكيل النيابة .

أدار الجميع عيونهم إليه ، على الرغم من الخفوت الشديد ، الذي نطق به

عبارته ، وتطلع إليه (مفيد) في دهشة ، في حين هتف (حسين) :

— عم (إسماعيل) ؟! ماذا لديك هنا ؟

هب وكيل النيابة من مقعده ، هاتفاً في غضب :

— ألم أمرك بالانتظار خارجاً ، يامندوب الأحرار ؟

كاد (حسين) ينفجر ثائراً مرة أخرى ، إلا أن الحاج (البهاوي) أمسك

كفه في قوة ، قائلاً :

— كفى يا ولدي .. كفى .

ثم التفت إلى وكيل النيابة ، مستطرداً :

— سننتظر خارجاً .

وجذب ابنه في رفق إلى الخارج ، في حين ردد (إسماعيل) مرة أخرى :

— لدى ما أدلى به .

أشار إليه وكيل النيابة ، قائلاً :

ادخل وأغلق الباب خلفك .

نفذ (إسماعيل) الأمر في هدوء ، و (مفيد) ما زال يتطلع إليه في دهشة ،

في حين سأله وكيل النيابة في اهتمام :

— ماذا لديك ؟

أجابه (إسماعيل) ، وهو يتحاشى النظر في وجه (مفيد) :

— إنني واثق من أن (مفيد) بك برىء .

قال وكيل النيابة :

— مجرد ثقة ؟

أجابه (إسماعيل) :

— لدى دليل قاطع .

سأله وكيل النيابة في اهتمام :

— ماهو ؟

تردد (إسماعيل) لحظة ، ثم حسم أمره بغتة ، ليقول في حزم :

— إنني أعلم أن (مفيد) بك لم يكن يسرق المواشي ، عندما حدثت

السرقة ، فقد كان في هذه اللحظة وسط حقول والدته .

عقد وكيل النيابة حاجبيه ، وهو يتطلع إلى (إسماعيل) ، فقد أثار انتباهه أن

يتطابق قوله هذا مع آخر كلمات (مفيد) ، على الرغم من أن وكيل النيابة

يشعر ، منذ دخل (إسماعيل) إلى مكتبه ، أن الرجل سيدلى بشهادة كاذبة ،

عهدف إلى تبرئة (مفيد) فحسب ، وعلى الرغم من شعوره هذا ، فقد سأل

(إسماعيل) :

— وكيف عرفت ؟

أجابه :

— إنه لم يكن وحده .

سأله وكيل النيابة في حزم :

— من كان معه ؟

١٢ - انقلاب ..

استيقظ (مفيد) مع شروق الشمس كعادته ، إلا أنه لم يغادر فراشه هذه المرة ، وإنما ظل مستلقيا فيه ، يستعيد ما حدث له في الأيام الماضية ، وقد اختفت في حلقه غصة مريرة ، كادت تدفعه إلى بصق روحه من بين شفثيه ..
لقد أنقذته شهادة عم (إسماعيل) من الإذانة ، ولكنها لم تعفه من الحيرة ..
ما زال يذكر دهشة وكيل النيابة ، التي فاقت دهشته ، وهما يجدهقان في وجه (إسماعيل) ، بعد أن أدلى بشهادته ، واستعاد في ذاكرته صوت وكيل النيابة ، وهو يسأل عم (إسماعيل) :

— هل أنت واثق من صحة قولك هذا ؟

أجابه (إسماعيل) لحظتها في اعتداد :

— وأصر عليه .

ران الصمت — آنذاك — على حجرة وكيل النيابة ، قبل أن يسأل

(إسماعيل) في خفوت :

— هل تعلم عقوبة شهادة الزور ؟

أجابه (إسماعيل) في حزم :

— نعم .

سأله وكيل النيابة :

— وما زلت تصر على أقوالك ؟

أجابه في صلابة :

— نعم ..

خفق قلب (مفيد) في عنف ، وأنبأه قلبه بأن أمره مع (مديحة) قد انكشف ، وأنبأته محاولات (إسماعيل) لتحاشي النظر إليه بصحة هذا الاستنتاج ، وكاد يهتف مانعا (إسماعيل) من مواصلة الحديث ، قبل أن يهوى جواب هذا الأخير على أذنه كالقنبلة ، وهو يقول في حزم :

— أنا .. أنا كنت معه ..

انفتح الباب في هدوء ، وظهرت على عتبة أخيه (زينب) ، وهي تقول مشفقة :

- لا داعي لهذا التوتر .. إنه أنا .
- زفر في قوة ، وجلس على فراشه مغمغماً :
- ماذا تريد يا (زينب) ؟
- جلست إلى جواره ، وهي تقول :
- أريد منك أن تهبط إلى حجرة استقبال الضيوف ، حيث يجلس والدنا سألها في بساطة :
- لماذا ؟
- أجابته في صوت يحمل رنة حزن :
- لأن والدنا يحتاج إلى وجودنا جميعاً إلى جواره ، في هذا اللحظة .
- التفت إليها بحركة حادة ، وهتف :
- لماذا ؟ ماذا حدث ؟
- تهتدت في أسف واضح ، وهي تحيب :
- إنها قرارات هؤلاء الضباط الأحرار .. لقد أُنذروا الملك بضرورة مغادرة البلاد ، و.....
- بترت عبارتها لحظة ، جعلته يهتف بها في توتر :
- وماذا ؟
- أجابته في خفوت حزين :
- وأصدروا قراراً بإلغاء الألقاب .
- اتسعت عيناه ، وهو يتراجع مردداً :
- إلغاء الألقاب .
- ثم لم تلبث ملامحه ولهجته أن أصبحتا مثالا للغضب الحائق ، وهو يستطرد

ولم يناقش (مفيد) أو يجادل ..

فقد صمت مستسلماً .. حائراً .. قلقاً ..

كانت شهادة (إسماعيل) تشير إلى احتمالين ، لاثالث هما ..

إما أنه يحاول إنقاذه ، وفاء لوالده ..

أو أنه يعلم الحقيقة ..

وكان الاحتمال الثاني هو الذي يرجف قلب (مفيد) ..

إنه لم يناقش عم (إسماعيل) في الأمر ..

لم يجد حتى الفرصة لذلك ..

لقد غادر حجرة وكيل النيابة ، بعد أن أصدر هذا الأخير قراره بالإفراج

عنه ، بناء على شهادة عم (إسماعيل) ، ليستقبله والده وشقيقه في سعادة

وحرارة ، أنستهما حتى أن يوجها الشكر إلى (إسماعيل) ، الذي انصرف في

خطوات مسرعة ، تشف عن عدم انتظاره أو تقبله لهذا الشكر ..

ومنذ تلك اللحظة ، لم ير (مفيد) (مديحة) .

لم يجرؤ حتى أن يفعل ..

لقد اكتفى بالبقاء في منزله ، منتظراً اللحظة

المناسبة ليبرع إليها ..

وهو لا يدري متى تأتي تلك اللحظة

المناسبة ..

غرق في أفكاره طويلاً ، وهو يسترجع

لحظاته الحلوة معها ، دون أن يدري كم مر به

من الوقت ، حتى أيقظه من شريط ذكرياته صوت طرقات على باب حجرته ،

جعله يهب من فراشه في جزع لا مبرر له ، ويهتف في توتر :

— من بالباب ؟



(مديحة)

— كنت أعلم أن هذا سيحدث .. كنت أعلم أن سعيًا خلف هذا اللقب السخيف لن يريح شيئًا .. كنت أعلم أننا لن نجني منه سوى الخسارة .

قالت (زينب) في حزم :

— ادخر مشاعرك الشخصية لما بعد .. المهم الآن أن تمنع والدنا من أى انهيار قد يصيبه ، بشأن هذا القرار .

نهض مغمغمًا في حلق :

— أنت على حق ..

هبط إلى الطابق الأسفل ، حيث يجلس والده صامتًا ، وقد جلس إلى جواره كل أبنائه وبناته ، والصمت يلفهم جميعًا ، فتقدم هو نحو والده ، وانحنى يقبل يده كمادته ، قائلاً :

— صباح الخير يا أبى .

رفع إليه والده عينين حزينتين ، وهو يحجب

— صباح الخير يا ولدى .

جلس إلى جواره صامتًا بدوره ، باحثًا عن وسيلة لبدء حوار ما ، ينتزع الوالد من حزنه وصمته ، إلا أن (حسين) سبقه إلى الحديث ، وإن لم يتجاوز حديثه الأزيمة ، وهو يهتف في سخط :

— الأمر لا يستحق كل هذا .. النقود تآنى وتذهب .

رفع الوالد عينيه الحزبتين إلى (حسين) ، وهو يقول :

— ضياع النقود لا يحزننى يا (حسين) ، وإنما يحزننى ضياع الأرض .. الأرض التى أقيمت عمري لجمعها .. الأرض هى كل ما يؤمنى يا ولدى ..

وزفر في مرارة ، قبل أن يستطرد :

— كانت حماقة حقيقية منى أن أوافقك على فكرة اللقب هذه .

احتقن وجه (حسين) في شدة ، وهب من مجلسه هاتفاً :

— لم تكن هناك أية حماقات .. إنها تلك المتغيرات المفاجئة فحسب ، فمن كان يتصور أن يحدث انقلاب كهذا ، تنقلب فيه أمور (مصر) كلها ..!؟ إن ما حدث خارج عن إرادتنا جميعًا ، ولو لم يحدث هذا الانقلاب ، لكنا في طريقنا للحصول على اللقب الآن .

لم ينبس (حافظ) ببنت شفة ، وهو يتطلع إلى شقيقه في خوف ، في حين غمغم (مفيد) في حلق يحمل رنة سخرية مريرة :

— نعم .. ربما .

التفت إليه (حسين) في حدة ، ورماه بنظرة نارية صارمة ، قبل أن يتابع في عصبية :

— لقد حدث ما حدث ، ولا سبيل لردده .. المهم الآن أن نواصل سعيًا للحصول على القوة .

سأله (شريفة) في شغف :

— كيف ؟

التفت إليها ، وكأنه يتحدث لها وحدها ، وقال في حماس :

— من الواضح الآن أن الضباط الأحرار هم القوة الفعلية في البلاد ، فلقد تجاوزوا كل الأحزاب ، حتى حزب الوفد ، ذى الشعبية الضخمة ، ونجحوا في فرض سيطرتهم على الملك نفسه ، وصار من العسير أن يتوقفوا ، بعد أن ذاقوا طعم السطوة والقوة ، وهم سيواصلون تقدمهم ، حتى يملكوا الدنيا كلها في قبضتهم .

سأها (مفيد) في حدة :

— وماذا يعينك في هذا الأمر ؟

قال (حسين) في حزم ، دون أن يلتفت إليه :

— لقد أدركت قوتهم منذ اللحظة التي أطلق الصاع (إبراهيم مكى) فيها
سراحي وسراح والدي ، خشية أن يعاقب على الإساءة إلى أحد أصدقائهم ؛
ولهذا ، أرسلت لهم برقية تأييد باسمي ، فور مغادرتنا سجن البوليس السياسى .
حذق الجميع في وجهه بدهشة ، وغمغم والده :
— أكانت هذه البرقية لهم ؟ .. ولكن لماذا لم تخبرني لحظتها ؟
أجابه في سرعة :

— خشيت أن تعترض ، أو أن يقلقك الأمر .
هتف الوالد مستكراً :

— ولكن كان من الضروري أن تخبرني ، وأن تستشيرني في الأمر ، فلقد
كانت مخاطرة كبيرة أن ترسل تلك البرقية .
ابتسم (حسين) في زهو ، وهو يقول :
— كانت مخاطرة محسوبة .
وصمت لحظة ، ثم أضاف وعينه تلتصعان :
— وناجحة .

ثم عاد يتسم ، مستطرذا :
— وهذا ما شجعتني على إرسال برقية تأييد أخرى منذ ساعة واحدة .
حذق الجميع في وجهه في ذهول ، قبل أن يغمغم والده ، وكأنه لا يصدق
أذنيه :

— تأييد لماذا ؟
عقد (حسين) حاجبيه في شدة ، وكأنما يعلن موقفه ، قبل أن يدلى بدلوه ،
قائلاً في حسم :

— تأييد لقرار إلغاء الألقاب .
تبادل الجميع نظرات ذاهلة ، قبل أن يهتف (البهاوى) :

— أترسل لهم برقية تأييد ، لقرار انتزع منا مائتى فدان ، وسبعين ألفاً من
الجنبيات ، بلا طائل .

اندفع (حسين) يقول في صرامة :

— لقد ضاعت الأرض والنقود ، سواء أرسلنا برقية التأييد أم لا ، ولكننا
الآن نربح موقفاً .. ها أنتم أولاء ترون أن الضباط الأحرار قد أدركوا حقيقة
قوتهم ، وأنهم قد انطلقوا إلى نهاية الشوط ، فطالبوا الملك بالتنازل عن عرشه ،
وألغوا الألقاب ، ولن يتوقفوا عند هذا .. لن يتوقفوا قبل أن ينالوا القوة
المطلقة .

هتف الأب :

— وما شأننا بذلك ؟

صاح ملوحاً بذراعيه في حدة :

— إننا نختار الطريق الصحيح .. طريق القوة .

قال (البهاوى) في مرارة :

— القوة بأن نخسر مائتى فدان ؟

هتف (حسين) في حزم :

— لا .. بالأ نلحق إلى جوارها موقفنا .

ران صمت ذاهل عجيب على المكان ، استمر لحظات طويلاً ، قبل أن يغمغم
(مفيد) :

— موقف ثعالب .

التفت إليه (حسين) في غضب ، وهو يقول محتذاً :

— بل موقف الأذكاء .

ثم أدار عينيه في وجوه الجميع ، مستطرذا :

— سترون أنني على حق .

١٣ - المفاجأة ..

جرت الاستعدادات على قدم وساق ، داخل السراى ، لحفل زفاف (توحيدة) ، وعادت الابتسامة ترسم على الوجوه ، بعد أن غابت عنها طويلاً ، والجميع يتسابقون لإعداد المكان ، وتعليق الزينات ، أو طهو كميات الأطعمة الهائلة ، المعدة لضيوف الحفل ..

الحاج (البهاوى) وحده كان يحمل على شفتيه ابتسامة باهتة ..
ابتسامة لها طعم المرارة ..

كان من العسير جدًا عليه أن ينسى أمر أرضه ، التى ضاعت سدى ..
لقد عاش عمره كله من أجل هذه الأرض ..
عاش يصنع بكفاحه كل متر منها ..
كل حفنة تراب ..

كل قطرة ماء ..
لقد تمزق قلبه حقًا ، وهو يوقع وثيقة التنازل عنها للخاصة الملكية ، إلا أن اللقب المنتظر ، ولحفة ابنه (حسين) إليه ، جعلاه يقنع نفسه قليلاً ، بأن ذلك التنازل كان ضروريًا ..

أما الآن ، وقد خسر الأرض واللقب ، فالمرارة تسكن قلبه ، وتحفر بصماتها على جدرانها ، حتى ليستحيل أن تفارقه فى يسر ..
لقد وضع فكرة التعجيل بزواج ابنته الثانية ، لينتزع نفسه من تلك المرارة ..
ولكن هيبات ..
يبدو أنه لن ينسى أبدًا ..

زفر (البهاوى) فى قوة ، وهو يقول :

— لا فارق .. لم تعد هناك فائدة حتى لذلك .

زان الصمت مرة أخرى على المكان ، وطال فى هذه المرة كثيرًا ، وكأنما فرغ الكلام من كل الأنفواه ، ثم اعتدل الحاج (البهاوى) بفتة ، وقال فى حزم :

— ينبغي أن نتم زواج (توحيدة) .

تطلع إليه الجميع فى دهشة ، وغمغم (حافظ) :

— زواج (توحيدة) يا أبى ؟!

أجابه فى حزم :

— نعم .. زواج (توحيدة) لقد تقدم لها زوج مناسب ، ولست أدري ما إذا

كنت سألها لأراها عروسًا أم لا ، والأفضل أن يحدث هذا الآن .

وخفت صوته ، وهو يستطرد فى مرارة :

— قبل أن يصدر الضباط الأحرار قرارًا بمنع الزواج .

بدا الغضب على وجه (حسين) ، وكأنما تهبته العبارة على نحو مباشر ، فى

حين قال (مفيد) :

— لا بأس يا أبى .. فلنم زواجها ..

وكان قوله — لأول مرة — هو فصل الحتام ..

ليس من الهين أن ينسى المرء ضياع ثمرة كفاح عمره ..
من المستحيل أن يفعل ..

وعلى الرغم من آلامه ، كان يحافظ على ابتسامته فوق شفتيه ..
وكان واثقا من أن أحدا من أبنائه لا يشعر به ..
وكان هذا صحيحا نسبيا ..

لقد انشغلت بناته كلهن في إعداد العروس للزفاف ، والاستعداد لاستقبال
المدعوين ، في حين راح (حسين) يشرف على إعداد المكان في استعلاء
كعادته ، وكأنما هو قائد حربى خطير ، أما (حافظ) ، فأخذ ينفذ أوامر شقيقه
الأكبر في استسلام تام ، يحمل لمسة من الخوف والرغبة ..
(مفيد) اختفى في دكان ما ..
هذا دأبه ..

ولم يكن الحاج (البهاوى) يدرى أن (مفيد) لم يكن متهربا من العمل ..
لقد كان يسعى خلف (إسماعيل) ..
كان يحتاج إلى التحدث معه في شدة ..
وكان (إسماعيل) يهرب من ذلك اللقاء في استماتة ..
وأخيرا التقى به (مفيد) وحدهما ، فاتجه إليه في سرعة ، وقال :

— عم (إسماعيل) .. لماذا تهرب منى ؟
تطلع إليه الرجل بنظرة غامضة ، قبل أن يشيح بوجهه ، قائلا :
— ولماذا أتهرب منك يا ولدى ؟
قال (مفيد) :

— إننى أنتظر الجواب منك .
صمت (إسماعيل) طويلا ، وارتسمت الصلابة على ملامحه ، وهو يعد
عينه عن (مفيد) ، الذى تابع في حزم :

— لماذا أدليت بشهادة زور يا عم (إسماعيل) ؟
قال الرجل في مرارة :

— ألم تكن حقا وسط الحقول ، لحظة السرقة ؟
أدرك (مفيد) على الفور ما يعنيه ذلك ، فأجاب في سرعة وحسم :
— نعم .. كنت مع (مديحة) .. ابتكت .
أدار الرجل عينيه إليه في دهشة ، ثم لم تلبث الدموع أن تفرقت في العينين ،
دون أن ينس اللسان بحرف واحد ، حتى أضاف (مفيد) في صلابه :
— إننى احترم (مديحة) يا عم (إسماعيل) ، وأطلب يدها منك .
حدق الرجل في وجهه بدهشة بالغة ، ثم أشاح بوجهه ، مغمضا في اضطراب
رجل سمع على التو ما لم يتوقعه أبدا :

— ماذا تقول يا ولدى ؟
كرر (مفيد) في حزم :
— أقول إننى احترم (مديحة) ابتكت ، وإنه ليشرفى أن أطلب يدها منك .
بقي الصمت بينهما لحظات ، ثم أدار الرجل عينيه إلى (مفيد) ، يتفرس في
ملامحه في توتر ، وكأنما أراد أن يستشف منها صدق الفتى وجديته ، قبل أن
يغمغم في إنكسار :

— ولكن (مديحة) لاتصلح لك يا ولدى .
قال (مفيد) في حدة :
— من قال هذا ؟ .. إنها فتاة رائعة ، و.....
قاطعها مكتملا :
— ووالدها أجير لدى والدك .
عقد (مفيد) حاجبيه في شدة ، وهو يقول :
— وماذا فى هذا ؟ .. ألم يبدأ عهد جديد ؟ .. ألم تلغ الألقاب ؛ لتنتشر
المساواة بين الناس ؟

غمغم (إسماعيل) :

— هذا مبدأ نظري بحث يا ولدي ، فالناس درجات ، منذ بدء الخليقة إلى يوم الدين .

هتف (مفيد) :

— بل هم على قدم المساواة .. كلهم بشر .. كلهم من نسل (آدم) و (حواء) .

تمم (إسماعيل) مستسلماً :

— ربما يا ولدي .. ربما ..

ثم أضف في انكسار :

— ولكن والدك وأشقائك لن يقبلوا زواجك منها .

قال (مفيد) في حرارة :

— دع هذا لي يا عم (إسماعيل) ، وعدني أن توافق أنت على زواجي منها ، لو وافق والدي وأشقائي .. عدني بذلك ..

ارتسمت ابتسامة حانية فرحة على شفتي (إسماعيل) ، وهو يقول :

— لن أجد لابتني من هو أفضل منك يا ولدي .

تمللت أسارير (مفيد) ، وهو يهتف :

— أشكرك يا عم (إسماعيل) .. أشكرك ..

وترك الرجل ، وانطلق مسرعاً إلى حيث يجلس والده ، إلا أن حماسه لم يلبث أن أحبط بغتة بموجة من العقل ..

هل يصلح هذا الوقت ، لمناقشة والده في مثل هذا الأمر ؟ ..

ألا ينبغي أن يحصل على (البكالوريا) أولاً ؟ ..

بدا له أنه من الأفضل تأجيل مناقشة الأمر ، حتى انتهاء حفل زفاف (توحيد) على الأقل ، وعلى الرغم من أن هذا القرار قد ضايقه ، إلا أن رجاحة

عقله المبكرة جعلته يتقبله ، لما ينطوي عليه من حكمة ورصانة ، فعاد أدراجه إلى حيث وقف شقيقه (حسين) ، يلقي أوامره إلى العاملين ، ووقف إلى جواره صامتاً ، فالتفت إليه (حسين) ، وقال في مزيج من السخرية والصرامة :

— أين أنت ؟ .. إنني أبحث عنك منذ زمن .

تمم (مفيد) :

— كنت أؤدي بعض الأعمال .

قال (حسين) في لهجة أقرب إلى السخرية :

— أعمال ؟ .. !

وهم بإضافة عبارة أخرى ، لولا أن ارتفع صوت يهتف :

— (حسين) بك .. (حسين) بك .. هناك برقية عاجلة لك .

كان هذا هو عامل مكتب بريد القرية ، وقد انطلق يعدو نحو السراي ، والفرحة تملأ وجهه كله ، حتى أن الأمر قد دفع الجميع إلى التوقف بغتة عن العمل ، و (حسين) يسأله في لهفة وقلق :

— أية برقية تلك ؟

بلغ الرجل موقع (حسين) في هذه اللحظة ، فدفع إليه البرقية ، وهتف وهو يلهث ، ووجهه يحمل ابتسامة عريضة :

— إنها برقية من زملائك الأبطال .

هتف (حسين) ، وهو يختطف البرقية :

— من زملائي ؟

وراح يلتهم كلمات البرقية في سرعة ، وعيناه تلتصقان ببريق ظافر قوي ، قبل أن يندفع بغتة إلى حيث يجلس والده ، هاتفاً :

— ألم أقل لك إنني على حق ؟ .. لقد ربخنا الموقف كله .

سأله والده في دهشة :

— أى موقف ؟ .. وماذا تعنى ؟

فرد البرقية أمام والده ، وهو يبتف فى سعادة رائعة :

— انظر يا أبى .. إنهم يستدعونى للقائهم .. يدعوننى لأصبح واحدا

منهم .

غمغم والده فى دهشة وحيرة :

— من هم ؟

أجابته والفرحة تتقاذف من كل حرف من حروف كلماته :

— الضباط يا أبى .. الضباط الأحرار ..

.. وكانت مفاجأة حقاً ..

١٤ — استثناء ..

ارتبك (حسين) كثيراً ، وهو يقف أمام مكتب البكباشى (رفعت كساب) ، الذى أرسل إليه برفقة تحمل توقيع (الضباط الأحرار) ، وراح (حسين) يهندم زيه الرسمى للمرة الألف ، ويتحسس أكتافه فى توتر ، وقد آله — لأول مرة — أنه لا يحمل على كتفيه رتبة رسمية ، بل يحمل فقط تلك العلامة التى تشير إلى كونه طالباً بالكلية الحربية ..

ولم يطل انتظاره ، فلم تمض دقائق على وصوله ، حتى خرج إليه جندى المراسلة الخاص بالبكباشى (رفعت) ، وقال فى احترام :

— تفضل ياسيدى ..

ازدرد (حسين) لعبابه فى توتر ، وخطا داخل حجرة (رفعت كساب) ، الذى بدا له أكثر شباهاً مما كان يتوقع ، وهو يرفع عينيه إليه ، قائلاً بابتسامة عريضة :

— إذن فأنت (حسين البهاوى) ! ..

غمغم (حسين) ، وقد عجز عن السيطرة على توتره :

— نعم ياسيدى .. هو أنا ..

راح (رفعت) يتأمله فى صمت بضع لحظات ، ثم لوح بكفه ، قائلاً :

— أتعلم أنك صاحب أول برفقة تأيد تلقتها حركتنا يا (حسين) ؟

قال (حسين) فى سعادة :

— ولى كل الشرف ياسيدى ..

عاد (رفعت) يتسم ، وهو يقول :

— كانت شجاعة حقيقية منك أن تبادر بتأييد حركة لم يتضح مصيرها بعد .

قال (حسين) في حزم :

— لم أكن لأتردد في ذلك ياسيدي ، فلقد فعلتم ما حملنا به كلنا .

أوما (رفعت) برأسه موافقا ومستحسنا ، ثم سأل (حسين) فجأة :

— هل كان حفل زفاف شقيقك جيدا أمس ؟

حدق (حسين) في وجهه في دهشة ، وغغمغ :

— حفل زفافها ؟

ابتسم (رفعت) في زهو وكأنها أسعدته دهشة (حسين) ، وقال في تلذذ :

— لقد تزوجت ابن عمدة القرية المجاورة لكم .. أليس كذلك ؟

نعم (حسين) في ذهول :

— بل ياسيدي ، ولكن كيف ..

قاطعه (رفعت) :

— لا تسألني كيف عرفت ، فهذه

طبعتي .. أحب أن أعلم دوما كل شيء

عمن أعمل معهم .

غغمغ (حسين) في حيرة :

— تعمل معهم ؟

اعتدل (رفعت) ، ومال نحو

(حسين) ، وهو يقول في لهجة تشف عن خطورة الأمر : (حسين)

— اسمعني جيدا يا (حسين) .. إننا بصدد إنشاء جهاز أمني جديد ، على

غرار جهاز المخابرات البريطانية ، مهمته هي أن يعلم كل شيء عن كل شيء ،

ومثل هذا الجهاز يحتاج إلى رجال مخلصين ، لا يترددون في الإبلاغ عن أقرب

أقربائهم ، لو اشتموا في خديته وأسلوبه رائحة كراهية حركتنا ، أو محاولة

تسفيها .. إننا بداية عهد جديد يا (حسين) ، ولكل عهد أعداء .. هل تفهم ؟



قالها والتفت إلى (حسين) ، الذى كان يحدق فيه فى ذهول ، ثم ابتسم فى زهو ، وأضاف :

— ومنحه رتبة ملازم أول أيضًا .
أدى جندى المراسلة التحية العسكرية ، وذهب لتنفيذ الأمر ، فى حين هتف (حسين) مبهورًا :

— سيدى .. هذا مستحيل !!
عقد (رفعت) حاجبيه ، قائلاً :
— لا تنطق هذه الكلمة أبدًا .. مع (رفعت كساب) لا يوجد مستحيل .
هتف (حسين) ، وقد تضاعف انبهاره :
— بالتأكيد يا سيدى .. بالتأكيد .
ابتسم (رفعت) ابتسامة الرجل ، الذى يروق له قيادة الآخرين ، وقال :
— هيا .. عد إلى قريتك ، لتبلغ والدك خبر ترقيةك الاستثنائية ، ولكن حذار أن تبلغ أى مخلوق بأمر ذلك الجهاز الجديد .. هل تفهم ؟
هتف (حسين) فى حماس : وهو يؤدى التحية العسكرية لـ (رفعت) فى قوة :

— بالتأكيد يا سيدى .. بالتأكيد .
— وكانت النشوة تملأ عروقه عن آخرها ..
نشوة الظفر ..
وبدء حياة جديدة ..

و مخادع .. أراهنك أنه مخادع ..
نطق العمدة تلك العبارة فى حق هائل ، وهو يجلس مع الأمور وحدهما ، فى مساحة منزل الأول ، فقال الأمور فى مراة :
— كيف يا عمدة ؟ .. ألم تر كيف التفت البلدة كلها حوله وحول أبيه ، بعد الإفراج عنهما .

هتف العمدة :

— القرية كلها كانت تتفاعل مع شائعة إطلاقها نحن ، وكل ما فعله ذلك الثعلب (حسين) ، هو أنه أحسن استغلال الموقف بكل دهاء وخبث .
سأله الأمور فى عصبية :
— هل تجد مبررًا للإفراج عنهما ، فور قيام حركة الضباط الأحرار ونجاحها إذن ؟

هز العمدة كتفيه ، وقال :
— إنها الفكرة نفسها .. لقد تصور ضابط البوليس السياسى ، الذى ألقى القبض عليهما ، أنهما ينتميان حقًا إلى تنظيم الضباط الأحرار ، ولم يشأ جلب غضب هذا التنظيم على نفسه ، فأفرج عنهما :
قال الأمور متوترًا :
— ولكن (حسين) قال لى

قاطعه العمدة :
— مخادع يابك .. إنك لن تفهم اللعين أكثر منى ..
ثم مال نحوه ، مستطرذا :
— هل تحب أن أثبت لك هذا ؟
سأله الأمور فى دهشة :
— كيف ؟

نهض قائلاً فى حزم :
— سنسأل (البهاوى) نفسه على نحو مباشر .
هتف الأمور :
— تسأله ؟
أجابه فى حسم :
— بالطبع .. إنه لن يكذب أبدًا .. هيا .

امتطى الاثنان جواديهما ، واتجها إلى سراى (البهاوى) ، ولقد استقبلهما
الحاج فى حرارة حقيقية ، وقد تصور أنهما إنما أتيا لتهنئته بزفاف ابنته ، وقادهما إلى
حجرة استقبال الضيوف ، وهو يردد :
— شكراً لكما .. شكراً لك باسعادة البك المأمور ، وشكراً لك
يا عمدة ..

جلس العمدة وهو يسأله فى خبث :

— كيف حالك الآن يا حاج ؟

أجابه (البهاوى) ، وابتسامته العريضة تملأ وجهه :

— فى خير حال والحمد لله يا عمدة .. كيف تتصور حالى ، وقد تم زفاف
ابنتى الثانية أمس فقط ؟

قال المأمور بغتة ، وكأنما لم يطق صبراً على الانتظار :

— هل سمعت ما يردده الناس فى القرية يا حاج ؟

سأله (البهاوى) ، وابتسامته ماتزال تملأ وجهه :

— ماذا يقولون ؟

تبادل المأمور نظرة عصبية مع العمدة ، ثم قال :

— يقولون إن انتهاءك و (حسين) إلى الضباط الأحرار مجرد شائعة .

بهت الحاج (البهاوى) ، وتطلع إلى ضيفيه فى حيرة ، ثم غمغم :

— الواقع أن

قاطعه صوت (حسين) ، وهو يقول فى صرامة :

— سأقطع لسان كل من يقول هذا .

وعندما التفت الجميع إليه ، كان يحمل على كتفيه دليلاً لا يقبل الشك ، على
انتهاه للضباط الأحرار ..

كان يحمل رتبته الاستثنائية الجديدة ..

١٥ — إلى المجد ..

لم يشعر الحاج (البهاوى) فى حياته كلها بالسعادة ، مثلما شعر وهو
يتحسس الرتبة الجديدة ، على كفى ابنه ، بعد انصراف المأمور والعمدة ، قبل
أن يهتف ، وقد أغرورقت عيناه بالدموع :

— أخيراً .. أخيراً يا (حسين) .. أخيراً رأيتك ضابطاً يابنى .

قال (حسين) فى زهو :

— وليس مجرد ضابط عادى يا أبى .. إننى أحد رجال الضباط الأحرار ،

وأحمل رتبة لن يحملها رفاقى دفعنى ، إلا بعد سنوات .

سأله (مفيد) فى دهشة :

— وكيف حدث هذا ؟

أجابه (حسين) مزهواً :

— ألم أقل لك إننى أجيد قواعد اللعبة ؟ .. كل هذا بسبب البرقيات التى
أرسلتها .

سأله أخته (زينب) ، فى مزيج من الدهشة والفرح :

— كيف ؟

راح يقص عليهم كل ما حدث بالتفصيل ، وكلهم يستمعون إليه فى انبهار ،

حتى انتهى من روايته ، فهتف زوج (نعيمة) :

— مبارك يا (حسين) بك .. هكذا يفخر المرء بمصاهرة عائلة

(البهاوى) .

عقد (مفيد) حاجيه فى صرامة ، وهو يقول :

— ألم تكن تفخر بذلك من قبل ؟

أدار الرجل عينيه إليه في استنكار ، وغمغم :

— بالطبع .. بالطبع .

أما (حافظ) ، فقد سأل (حسين) في اهتمام :

— أيعنى هذا أنك قد أصبحت أقوى من الأمور ؟

أجابه (حسين) :

— بالطبع .

أطلقت (شريفة) زغرودة طويلة ، واحتضنت (ناهد) شقيقتها في سعادة

وهي تهتف :

— إنك تستحق هذا يا (حسين) .

شعر (حسين) بالفخر ، لهذا الاهتمام والتبجيل ، الذى أحاطته بهما

أسرته ، والتفت إلى (مفيد) ، يسأله في لهجة أشبه بالأوامر :

— وأنت .. مارأيك ؟

هز (مفيد) كتفيه ، وقال :

— رأى أنها مأساة .

ران الصمت التام بغتة داخل المكان ، وحدث الجميع في وجه (مفيد) في

دهشة تمتزج بالاستنكار ، قبل أن يهتف الحاج (البهاوى) :

— مأساة ١؟ .. مأساة أن يبلغ شقيقك هذا الشأن ١؟

هز (مفيد) رأسه نفياً ، وقال :

— بل مأساة أن تنتهك القواعد هكذا .

صاح به (حسين) بحنقا :

— أية قواعد ١؟

التفت إليه (مفيد) ، وقال في هدوء :

١٢٢

— حاول أن تفهمنى يا (حسين) .. الأمر لا يقتصر على ترقية

الاستثنائية ، ولكنه أكبر من ذلك .. لقد سن (رفعت كساب) هذا سنة سيئة ،

وهي أن التقرب إلى رجال الحركة بمنح امتيازات خاصة ، وسيدفع هذا عشرات

المنتفعين إلى الالتفاف حول حركة الجيش ، دون تأييد حقيقى صادق ، وهذا في

حد ذاته أخطر من أن يعلنوا عدم تأييدهم لها .

صاح (حسين) :

— كف عن فلسفتك السخيفة هذه .. من الطبيعى أن تمنح حركة الضباط

الأحرار امتيازات خاصة ، لمن تمنحه ثقتها .

قال (مفيد) في ضيق :

— ولكن ليس من الطبيعى أن يملك بكباشى سلطة منح طالب في الكلية

الحرية ترقية استثنائية .

صرخ به (حسين) في ثورة :

— اخرس .. لست تفهم شيئا .

تنهد (مفيد) في يأس ، وقال :

— حسنا يا (حسين) .. لن أناقش هذا الأمر ، ولكن ما حدث اليوم

يجعلنى على يقين من أننا نتجه نحو عهد فوضى عفيف .

ابتسم (حسين) في عصبية وازدراء ، وهو يقول :

— أيها الفر الساذج ١! كيف لك أن تحكم على عهد جديد ، وأنت لم

تحصل على البكالوريا بعد ؟

قال (مفيد) في هدوء :

— وهل يحتاج الأمر إلى شهادة البكالوريا ، ليفهم المرء مثل هذه الأمور ؟

صاح (حسين) في صرامة :

— ولا حتى اللسانس .

١٢٣

ولوح بكفيه ، مستطرذا :

— إنها أمور أعظم وأكبر من أن تدركها يافتي .. أعظم بكثير .
لم يواصل (مفيد) المناقشة ، ولكنه شعر في أعماقه بخوف مبهم ..
خوف من المستقبل ..

استلقت (زينب) على فراشها شاردة ، تسترجع تفاصيل ما حدث في تلك
الليلة ..

قصة (حسين) ..

اعترض (مفيد) ..

الموقف كله ..

وراحت في أعماقها تتساءل : من منهما على حق ؟ ..

(حسين) أم (مفيد) ؟ ..

كانت لكل منهما مكانة خاصة في نفسها ، ف (حسين) هو أكبر البنين من
أشقائها ، و (مفيد) هو آخر العنقود كما يقولون ..

ولكنها في الواقع أكثر ميلاً لـ (مفيد) ..

ربما لأنها لا تشعر به كشقيق فقط ، وإنما كابن أيضاً ، فهي التي تعهده
برعايتها واهتمامها ، بعد وفاة أمهما ، وهو بعد رضيع مسكين ، وهي التي
شاهدته ينمو لحظة لحظة ..

ثم إنه يبدو بالنسبة لها — أرجحهم عقلاً ، على الرغم من صغر سنه ..

وهي تشاركه مشاعره وأحاسيسه دوماً ..

هي أيضاً تشعر بقلق مبهم ، تجاه المرحلة القادمة ..

قلق قد يبدو — في ظل الظروف الحالية — ليس له ما يبرره ، ولكنها
تشعر به ..

قطع أفكارها بفتة صوت (شريفة) ، وهي تتسلل إلى فراشها ، قائلة
بابتسامة خيثة :

— حان دورك .

التفت إليها في دهشة ، وهي تقول :

— دورى ؟! .. أى دور ؟ .. ماذا تعنين ؟

أجابتها (شريفة) ، وهي تحتفظ بابتسامتها الخيثة على شفيتها :

— حان دورك في ركب الزواج .. لقد تزوجت (نعيمة) ، وستجب

الحفيد الأول بعد شهور قليلة ، ولحقت بها (توحيدة) أمس ، وهذا يعني
أنك التالية .



ابتسمت (زينب) في شرود ، وهي تقول :

— هل يملك الأمر إلى هذا الحد ؟

هتفت وهي تندس إلى جوارها ، تحت غطاء الفراش الرقيق :

— بالطبع ، فلقد أصبحت العقبة الوحيدة في طريقى الآن .

ضحكت (زينب) ، وهي تقول :

— عقبه ؟! .. أنا عقبه أيتها ال

صاحت (شريفة) تستوقفها :

— لا.. لن أقبل سبابا واحدا .

ضحكت (زينب) في مرج ، وواجهت شقيقتها ، قائلة :

— مارأيك لو قلت لك : إننى لا أفكر حاليا في الزواج ؟

مالت (شريفة) نحوها ، حتى كاد أنفاهما يتلامسان ، وهى تقول في

سخرية :

— سأقول لك : إنك كاذبة .

أطلقت (زينب) ضحكة صافية عالية ، وهى تقول :

— وما الدليل أيتها العبقريّة ؟

أدنت (شريفة) شفيتها من أذن (زينب) ، وهمست :

— (ماهر) .

ارتجف جسد (زينب) ارتجافة لذيذة ، وتخضب وجهها بحمرة الخجل ،

وهى تغتمغ في خفوت وحياء :

— (ماهر) ؟!

همست (شريفة) :

— نعم (ماهر) .. ذلك الطويل النحيل الوسيم ، الذى يحلو له التنزه إلى

جوار السراى ، وتحت نافذة ججرتنا بالذات ، والذى يتصادف وقوفك في

النافذة مع موعد مروره ، و.....

ضربتها (زينب) بأناملها في رفق ، وهى تتمم في حياء :

— أيتها الحبيبة .

ضحكت (شريفة) ، قائلة :

— أقول يتصادف .

وانفجرت الاثنان في ضحك مكتوم ، خشية أن يبلغ صوتهما حجرة

(حسين) ، ثم شردت (زينب) ببصرها لحظات وغمغمت :

— أتعلمين ماذا أتمنى يا (شريفة) ؟

سألها في اهتمام :

— ماذا ؟

شردت ببصرها لحظات أخرى ، ثم قالت في حنان :

— أن أتزوج (ماهر) ، ونحيا معا ألف عام .

ضحكت (شريفة) ، وقالت :

— أما أنا فأتمنى أن أتزوج أى مخلوق ، وأن أنجب ألف طفل .

انطلقت ضحكاتهما المرححة معا ، دون أن تدرك إحداهما ما يجنبه لهما

القدر ..

ويا له من قدر !! ..

رفع (حسين) يده بالتحية العسكرية في قوة ، أمام (رفعت كساب) ،

الذى ابتسم ، قائلاً :

— ممتاز يا (حسين) .. لقد حضرت في موعدك تماما ، وهذه واحدة من

صفات الرجال الذين أبحث عنهم .

قال (حسين) في حماس :

— في خدمتك دوما ياسيدى .

جلس (رفعت) خلف مكتبه ، وهو يقول :

— اسمع يا (حسين) .. المهمة التى ستؤديها ليست بالمهمة السهلة ، فهذا

النوع من العمل السرى يحتاج إلى خبرات ومهارات خاصة ، ليس من الهين

اكتسابها ، لذا فستحتاج إلى تدريبات مكثفة ، قبل أن تبدأ عملك معنا .

ثم ضغط زر الجرس المجاور لمكتبه ، وقال لجندى المراسلة الخاص ، الذى لى النداء على الفور :

— اطلب من الصاغ أن يأتى .

أدى الجندى التحية العسكرية ، وغاب خارج الحجرة ، ثم لم يلبث شاب قوى البنية ، أن دلف إلى الحجرة ، وهو يقول فى هدوء :

— فى خدمتك يا سيادة البكاشى .

ولم يستطع (حسين) كتمان ذلك الدهول ، الذى ملأ نفسه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه فلقد كان مدربه هو آخر شخص يتوقعه ..

كان رجل البوليس السياسى ، الصاغ (إبراهيم) ..

(إبراهيم مكى) !!



قال (حسين) فى حسم :

— أنا رهن إشارتك يا سيدى .

ارتسمت ابتسامة على شفتى (رفعت) ، وكأنما يروق له ذلك الأسلوب الذى يتسم بالطاعة والولاء الشديدين ، والذى يستخدمه معه (حسين) ، وقال :

— إننى أضع آمالاً عظيمة على كفيلك يا (حسين) ، وأريد أن تبذل أقصى جهدك لتحقيق مانصو إليه .. لقد تحدثت (جمال) نفسه فى أننى أستطيع أن أصنع منك محترفاً .

سأله (حسين) فى اهتمام :

— (جمال) من يا سيدى ؟

تطلع إليه (رفعت) لحظات فى صمت ، ثم قال :

— البكاشى (جمال عبد الناصر) .. هل سمعت به ؟

أجابه فى سرعة :

— بالطبع يا سيدى .. إنه ذلك الشاب الهادى ، الذى يقولون عنه إنه

الرجل الثانى فى الحركة ، بعد سيادة اللواء (محمد نجيب) نفسه .

عقد (رفعت) حاجبيه ، وهو يقول :

— من الواضح أنك لا تعرفه جيداً ، ف (جمال) لا يقبل لنفسه موقع الرجل

الثانى أبداً .

سأله (حسين) فى حيرة واهتمام :

— ماذا تعنى يا سيدى ؟

هز (رفعت) كتفيه ، ثم قال فى حزم :

— دعك من هذا .. إننا لن نضيع الوقت فى التحدث عن (جمال) .. لقد

طلبت منك الحضور إلى هنا ، لتلتقى بالرجل الذى سيتولى مهمة تدريبك على

أعمال وظيفتك الجديدة .

مضت لحظات من الصمت ، و (حسين) يحدق في وجه (إبراهيم مكى)
في ذهول ، قبل أن يقفز من مقعده ، هائفاً :
— ولكن هذا مستحيل !!
سأله (رفعت) في دهشة :
— ماهو المستحيل ؟!
ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتى (إبراهيم) ، في حين هتف (حسين)
في سخط :
— هذا الرجل ينتمى إلى البوليس السياسى .. إنه واحد من رجال الملك .
قال (إبراهيم) في مزيج من السخرية والبرود :
— من رجال الملك ؟! .. ياله من قول ..! إننى لم أكن أبداً من رجال الملك
أيها الملازم ، وإنما كنت أؤدى عمل .
صاح (حسين) في غضب :
— أى عمل هذا ؟! .. أن تعتقل الأبرياء ؟!
أجابه في برود :
— بل أن أحمى الحكومة ، التى تمنحنى مرتبى .
هتف (حسين) :
— حكومة الملك ؟!
هب (رفعت) من مقعده ، وقال في صرامة :
— كفى .. لست أسمح لكما بالتشاجر هكذا فى مكتبى .

التفت إليه (حسين) ، يقول فى توتر :

— هذا الرجل ياسيدى

قاطعه (رفعت) فى حزم :

— لقد كان يؤدى عمله ، ويطيع أوامر رؤسائه .

ثم عاد يجلس ، مستطرذا :

— ونحن نحتاج إلى خبرته الآن .

ارتسمت ابتسامة ساخرة شامتة ، على شفتى (إبراهيم) ، واحتقن وجهه

(حسين) فى سخط ، لم يمنعه من أن يغمغم :

— كما تأمر يا سيدى .

أشار (رفعت) إلى (إبراهيم) بالجلوس ، وهو يوجه حديثه إلى

(حسين) قائلاً :

— سيداً الصاغ (رفعت) تدريك ، اعتباراً من اليوم ، وعليك أن تبدل

أقصى جهدك ، لاستيعاب كل ما سيلقنك إياه ، بحيث يمكنك مباشرة العمل بعد

أسبوعين على الأكثر .

سأله (حسين) فى قلق :

— هل الأمر عاجل إلى هذا الحد يا سيدى ؟

أجابه فى لهجة تشف عن أهمية الأمر :

— بل هو أكثر من ذلك ..

وتراجع فى مقعده مستطرذا فى حزم :

— إنه مستقبلى .. ومستقبل الحركة كلها .. مستقبل (مصر) .

لم يكذ (حسين) بفرد به (إبراهيم) ، فى مكتب هذا الأخير ، حتى سأله فى

حق واضح :

— كيف فعلت هذا ؟

استرخى (إبراهيم) في مقعده ، وارتسمت على شففيه اجسامه ساخرة مستهترة ، وهو يقول :

— فعلت ماذا ؟

هتف (حسين) :

— كيف بلغت هذه المرتبة ، بعد قيام حركة الجيش ؟

أجابه مبتسماً :

— تمامًا مثلما فعلت أنت .. تسلفت أكتاف الآخرين .

صاح (حسين) :

— أيها الوقح .

انعقد حاجبا (إبراهيم) في صرامة مخيفة ، وهو يقول :

— حذار أيها الملازم .. إلزم حدودك ، ولا تنس أنك تخاطب ضابطاً يفوقك

رتبة .

انتبه (حسين) إلى تلك الحقيقة ، التي أخفاها الغضب عنه ، فاحتقن

وجهه ، وعاد يجلس على مقعده ، متمتماً :

— لن أنسى .

ثم استدرك وكأنما يعجز عن ضبط فضوله :

— ولكن كيف ؟ ..

اجتمع (إبراهيم) ابتسامة رجل يعرف قدر نفسه جيلاً ، وقال في هدوء :

— لم أفعل سوى ما فعلته أنت .. أرسلت برقية تأييد للحركة ، ولم تكن

برقيتي نتاج مخاطرة هوجاء ، مثلما فعلت أنت ، وإنما كانت لعبة ذكية ، بناء

على ماتوفر لدى من معلومات عن قوة الضباط الأحرار ، وضعف الجهاز

الحاكم والملك .

قال (حسين) في توتر :

— إذن فالبرقية وحدها قد

قاطعه مبتسماً :

— لا .. ليست وحدها ، فلم يكذ الأمر يستقر ، حتى ذهبت إلى (رفعت)

بك ، وعرضت عليه خبراتي وخدماتي ، ولم يرفض بالطبع ، بل رحب بي ،

وكنت أنا صاحب فكرة إنشاء هذا الجهاز الجديد .

هتف (حسين) في دهشة :

— أنت ؟

هز (إبراهيم) كفيه ، قائلاً :

— بالطبع .. والفكرة ليست فكرتي في الواقع ، بل هي فكرة طرحها زميل

من زملاء ، وأعدت أنا طرحها على (رفعت) بك ، دون أن أذكر اسم

الزميل بالطبع .

حدق (حسين) في وجهه ، وهو يقول :

— وتخبرني هذا بكل بساطة ؟

أجابه بابتسامة عريضة :

— ولم لا ؟ .. ليست هناك جدوى من أن تخبر أحداً بالأمر ، فهم يتشبثون بي

في مجلس قيادة الحركة ، وبخاصة (رفعت كساب) .

ران الصمت عليهما لحظات ، و (حسين) يحاول استيعاب واقعه الجديد ،

قبل أن يغتم في تردد :

— ولكن ما تزال هناك نقطة أخرى تخبرني .

سأله (إبراهيم) في هدوء :

— ماهي ؟

اعتدل (حسين) ، وهو يقول :

— لقد كنت تعلم — كما أخبرتنى — أن المنشورات التى عثرتم عليها فى سراى والدى ، والتى تحمل توقيع الضباط الأحرار زائفة ، وعلى الرغم من ذلك فلقد أطلقت سراحي وسراح والدى ، على نحو يوحى بأنك تؤمن تمامًا بانتمائنا إلى حركة الضباط الأحرار ، فما الذى يعنيه هذا ؟

هز (إبراهيم) كفيه ، كعادته ، وأجاب فى هدوء :

— يمكنك اعتبار هذا نوع من الحذر الزائد ، فلقد ألقيت على نفسى حينذاك سؤالاً واحداً ، إلا وهو : وماذا لو أنهما يتبعان إليها ؟ .. وحسباً للصراع فى داخلى ، أطلقت سراحيهما .

ثم اعتدل قائلاً فى حزم :

— والآن لا مزيد من الأسئلة .. مستمع فحسب ، فسنبداً تدريباتنا

على الفور .

صمت (حسين) تمامًا ، وراح يصفى إليه فى اهتمام شديد ، وفى أعماقه راح يعد خطة جديدة ..

خطة الإطاحة بـ (إبراهيم مكى) ..

جلس الحاج (البهاوى) فى شرفة السراى ساكناً ، وبصره يشرود بعيداً .. أبعد من المكان والزمان ..

لقد اقترب حلمه من مهبط الواقع ..

صحيح أنه قد خسر ما يقرب من مائة وعشرين ألفاً من الجنيهات ، مع خسارته لمائتى فدان من أرضه ، جمعها بعرق وكفاح ودماء السنين ، إلا أنه ما يزال أغنى أغنياء القرية ، والقرى المحيطة ..

إنه حتى أكثر ثراء من الباشا السابق ، صاحب العزبة المجاورة ..

ولقد بلغ ابنه (حسين) شأنًا كبيراً فى السلطة ..

وفى المنصب ..

آه لو حقق (حافظ) و (مفيد) حلمه مثله ..

استرجع فى ذهنه بسرعة طبيعة (حافظ) المستكينة المرتاعة المنطوية ، وفشله لسنوات فى نيل شهادة البكالوريا ، واستسلامه التام لكل الأمور ، وزفر فى مرارة ، وهو يفهم :

— لك الله يا (حافظ) .. إنك أضعف أبنائى بالفعل .

كان (مفيد) هو أمله ، بعد (حسين) ، إلا أن عناد (مفيد) الشديد ، وأسلوبه الجاف العنيف فى معالجة الأمور كان يقلقه ، وكان يخشى أن تنهار المملكة التى صنعها بكفاحه بعد وفاته ، بسبب اختلاف أبنائه ..

وكان هناك حل وحيد ينقذه من هذا ..

حل وحيد يحافظ على اسم (البهاوى) على مر الأجيال ..

انتبه من شروده على صوت شاب يتنحنح ، فالتفت إلى مصدر الصوت ، ووقعت عيناه على شاب طويل وسيم مليح ، يقول فى ارتباك :

— صباح الخير يا حاج .



أجابه (البهاوى) فى هدوء :

— صباح الخير يا ولدى .. تفضل .

جلس الشاب مرتبكاً ، ولم يشأ الحاج (البهاوى) أن يزيد من ارتباكك ،
بسؤاله عن من يكون ؟ أو لماذا جاء ؟ فالتزم الصمت ، وهو يتطلع إليه فى
هدوء ، حتى قال الشاب :

— اسمى (ماهر سليمان) .. ابن الحاج (سليمان) ، صاحب الطاحونة
القبلية .

ابتسم الحاج (البهاوى) ، وهو يقول :

— كريم وابن كريم يا ولدى .. كيف حالك ، وكيف حال والدك ؟

لم يجب (ماهر) عن سؤال الحاج ، وإنما قال فى سرعة ، وكأنما يخشى أن
يعاوده الارتباك ، فمعجز عن إكمال ما أتى من أجله :

— أنا حاصل على ليسانس الحقوق يا حاج ، وأمتلك باسمى ستة أفدنة ،

وأعمل فى وظيفة محترمة ، بديوان مديرية الغربية ، و.....

قاطع الحاج ، وهو يتسم ابتسامة أبوية :

— وماذا تريد يا ولدى ؟

اندفع (ماهر) يقول :

— (زينب) .

ثم ارتبك فى شدة ، وتضرج وجهه بحمرة الخجل ، وهو يستطرد فى سرعة :

— أقصد أننى أطلب يد كريمتك الآنسة (زينب) ، ولى جم الشرف ،

و.....

قاطع الحاج فى اهتمام :

— هل تعرف (زينب) ؟

بدا وجه (ماهر) شديد الحمرة ، وهو يقول :

— ومن يجهل منزلك وأبناءك يا حاج .. أنتم أعلام قريتنا .

ابتسم الحاج فى حنان ، وهو يسأله :

— ولماذا لم يأت والدك لطلب يدها يا ولدى ؟ .. أليست هذه هى التقاليد ؟

خفض (ماهر) عينيه ، وهو يقول فى حياء :

— لقد خشى والدى أن يرفض طلبه ، لأننا أقل منكم ثراء ، وأردت أنا أن

أستطلع رأيك ، قبل أن يواجه هو الموقف ، و.....

صمت (ماهر) ، وكأنما يعجز عن إتمام عبارته ، فابتسم الحاج

(البهاوى) ، وقال :

— عندما أتيت إلى قريتك ، كنت أفقر أهلها يا ولدى .. المال لا يصنع

الرجال ، ولكن الرجال يصنعون المال .

ثم ربت على كتفه مستطرداً :

— قل لوالدك أن يأتى لزيارتي .

تهللت أسارير (ماهر) ، وهو يهتف فى سعادة :

— حقاً يا حاج ؟

اتسعت ابتسامة الحاج ، وهو يقول :

— بالتأكيد يا ولدى .. سأنتظره هذا المساء .

هتف (ماهر) :

— شكراً يا حاج .. شكراً ..

ثم انطلق يعدو عائداً إلى منزله ، وكأنما لا يطيق صبراً على إخبار والده ، فى

حين أسرع (شريفة) ، التى كانت تختلس السمع ، إلى حجرة (زينب) ،

وهتفت بها فى سعادة :

— (زينب) .. (زينب) .. عندى لك خبر يستحق مكافأة كبيرة .

سألتها (زينب) فى لهفة :

— أى خبر ؟

١٧ - الصدمة ..

مالت (شريفة) نحوها ، وهي تقول في سعادة :

— كان (ماهر) هنا .. مع والدى .

خفق قلب (زينب) في قوة ، وارتجفت حروف كلماتها ، وهي تقول :

— (ماهر) !؟ .. هنا !؟

صفقت (شريفة) بكفيها كالأطفال ، وهي تقول في جذل :

— نعم .. ولقد وافق والدى .

أمسكت (زينب) كفى (شريفة) في قوة ، وهي تهتف :

— وافق ؟ وافق على زواجنا ؟

أومأت (شريفة) برأسها إيجاباً ، وهي تبسم ابتسامة واسعة ، تكاد تلتهم

وجهها كله ، وتستطرد في سعادة :

— نعم يا (زينب) ، وافق مبدئياً ، وسيحضر والد (ماهر) لمقابلته ،

وطلب يدك رسمياً الليلة .

عاد قلب (زينب) يخفق في قوة ، وارتفع حاجباها في حب وحنان ، وهي

همس في سعادة :

— الليلة !!

مالت (شريفة) تطبع قبلة على وجنة شقيقتها ، وهي تقول :

— مبارك يا شقيقتى العزيزة .. الليلة سيتحقق حلمك ، ستزوجين

(ماهر) ، وتعيشان معا ألف عام ..

استلقت (زينب) على فراشها في نشوة ، وهي تقول :

— وغدا يتحقق حلمك أنت يا (شريفة) ، وتزوجين رجلاً فاضلاً

عظيماً ، وتنجبن ألف طفل ..

ضحكت (شريفة) ، وهي تقول :

— هذا إذا ما أتى الغد .

نعم ..

إذا ما أتى الغد ..

رفع (رفعت كساب) عينيه عن أوراقه ، عندما سمع طرقات على باب

مكتبه ، وقال بلهجته الصارمة المتعالية :

— ادخل .

دلف (حسين) إلى مكتبه ، وأدى التحية العسكرية في قوة ، فقال

(رفعت) :

— ماذا تريد يا (حسين) ؟ .. هل أنهيت تدريبك الأول ؟

أجابه (حسين) بصوت جهورى :

— نعم ياسيدى .

ابتسم (رفعت) قائلاً :

— لا داعى لذلك الصوت القوى .. استرح .. إننا نتعامل هنا دون

قيود صارمة ..

أرخى (حسين) وقفته العسكرية المشددة ، وهو يغمغم :

— شكراً ياسيدى .

اعتدل (رفعت) ، ووضع قدمه فوق أوراقه وهو يقول :

— حسناً .. ماذا لديك ؟

تنحنح (حسين) ، وقال :

— إنه أمر يتعلق بالصاغ (إبراهيم مكى) ياسيدى .

سأله مبتسماً :

— ماذا عنه ؟

هز (حسين) كفيه ، دون أن ينتبه إلى أنه بذلك يقلد (رفعت) كثيرًا ،
وقال في صوت منخفض ، شأن من يذيع سرًا خطيرًا :
— لست أثق به .

مرت لحظة من الصمت ، قبل أن ينفجر (رفعت) مقهقها ، على نحو احتقن
له وجه (حسين) ، قبل أن يقول (رفعت) ضاحكًا :

— لا أثق به .. يا لها من عبارة !

ثم مال إلى الأمام ، يسأله بغتة :

— ولماذا لا أثق به ؟ .. لأنه كان يعمل في البوليس السياسي ؟

عقد (حسين) حاجبيه ، وهو يقول في ضيق :

— بل لأنه غير أهل للثقة يا سيدى .

تطلع إليه (رفعت) طويلًا في صمت ، ثم تراجع في مقعده ، وراح يعث
بقلمه ، قائلاً :

— اسمع يا (حسين) .. كلنا في مجلس القيادة نعلم حقيقة (إبراهيم مكى)
وأمثاله .. إلا أننا نحتاج إلى خبرائهم ؛ لذا فنحن نسمح لهم بالعمل معنا ، عن ثقة
في أنهم لن يجدوا من هو أفضل منا ، في الوقت الحالى على الأقل ، ولكن هذا
لا يعنى أن نمنحهم كل ثقتنا .

وعاد يميل إلى الأمام بغتة ، مستطرذاً في اهتمام :

— لهذا أريد منك أن تراقبه .

بهت (حسين) للعبارة ، وغمغم في دهشة :

— أراقبه ؟!

أجابته (رفعت) في حزم :

— نعم .. أريد منك أن تستفيد منه أقصى استفادة ممكنة ، وأن تسلبه كل
خبراته ، دون أن تمنحه ثقتك في الوقت ذاته ، وفي نفس الوقت أريد منك أن
تنقل لى كل ما يفعله أو يقوله ، حتى نتخذ حذرنا منه .. هل تفهم ؟.

هتف (حسين) في حماس :

— بالتأكيد يا سيدى ..

ورقص قلبه طربًا في ظفر ..

لقد جاءته الفرصة على طبق من ذهب ..

فرصة تحطيم خصمه ..

ارتسمت اجسامه واسعة على شفتى الحاج (البهاوى) وهو يستقبل
(ماهر) ووالده في السراى ، وصافح والد (ماهر) في حرارة وهو يقول :

— مرحبًا بك يا حاج .. مرحبًا بك في منزلك .

أجابته والد (ماهر) في سعادة :

— هو منزل الكرم والكرماء يا حاج .. ونعم النسب ..

جلس الثلاثة في حجرة استقبال الضيوف ، وانضم إليهم (مفيد)

و (حافظ) ، وراح الجميع يتبادلون أحاديث عادية ، حول حركة الضباط ،

وشعبية (محمد نجيب) ، وغيرها من المواضيع العامة ، و (شريفة)

و (زينب) ، و (ناهد) يسترقن السمع من الحجرة المجاورة في لهفة ، حتى

تتضح والد (ماهر) واعتدل في مجلسه ، ليقول :

— لقد أتيناك الليلة لشأن حث عليه الله ورسوله يا حاج .

ابتسم الحاج (البهاوى) ، وقال :

— وأنا رهن إشارتك يا حاج (سليمان) .. ربما تشاء .

هتف الحاج (سليمان) :

— عفواً يا حاج .. أنت سيد الجميع .

ثم ابتسم بدوره ، وهو يقول :

— أتيت أطلب يد ..

قبل أن يتم عبارته ، تهللت أسارير الحاج (البهاوى) ، وهو يتطلع إلى باب
الحجرة ، هاتفاً :

— لقد وصل ابنى (حسين) .

هب الجميع لتحية (حسين) ، الذى رد نحيبتهم فى نوع من التعالى المغرور ،
وهو يلقى نظرة فاحصة طويلة على (ماهر) ووالده ، فى حين هتفت (زينب)
فى الحجرة المجاورة فى سخط :

— أكان من الضرورى أن يصل (حسين) الآن ؟! كان والد (ماهر)
سيطلب يدي .

ضحكت (شريفة) ، وهى تقول :

— اصبرى أيتها المتعجلة .. إن غدا لناظره قريب .

أما (حسين) فقد جلس وهو يدير عينيه فى الحاضرين ، قبل أن يقول والده
مبتسماً :

— الحاج (سليمان) صاحب الطاحونة القبلية ، وابنه (ماهر) .

قال (حسين) فى لامبالاة :

— تشرفنا .

أشاح (مفيد) بوجهه فى ضيق من أسلوب شقيقه الفظ ، فى حين انكمش
(حافظ) فى مقعده ، كعادته فى وجود (حسين) وتنحج والد (ماهر) ،
وهو يقول :

— الواقع أننا قد أتينا نطلب يد الأنسة (زينب) لولدى (ماهر) .

كان من الواضح أن الحاج (البهاوى) يوافق على هذا ، فقد اتسعت
ابتسامته فى سعادة وحنان ، وخفق قلب (زينب) ، وهى تنتظر الجواب ، وقبل
أن يتفوه والده بكلمة واحدة ، قال (حسين) فى برود :

— ليس هذا وقت زواج (زينب) .

احتقن وجه الحاج (سليمان) فى شدة ، وشحب وجه ابنه (ماهر) ، وهو
ينقل بصره بين وجهى الحاج (البهاوى) ، الذى تجمدت ملامحه فى شدة
ودهشة ، و (حسين) الذى بدأ شديد البرود ، وغمغم (ماهر) :

— ولكن الحاج قال .. أعنى أن ..

أرتج عليه ، فلم يتفوه بكلمة زائدة ، فى حين قال (حسين) بنفس البرود :

— لم تمض أيام بعد على زواج (توحيدة) ، و.....

قاطعته والده فى حزم يحمل رنة الغضب :

— والأفضل أن يتم زواج (زينب) بعد أسبوعين .

ارتجف قلب (زينب) بين ضلوعها ، وحدث (حسين) فى وجه والده فى
ذهول ، فى حين التمتعت عينا (مفيد) فى إعجاب ، وهتف (ماهر) غير
مصدق :

— إذن فأنت توافق يا حاج .

رمق الحاج (البهاوى) ابنه (حسين) بنظرة صارمة ، وهو يقول :

— نعم .. أوافق .

ثم مد يده إلى الحاج (سليمان) ، قائلاً :

— فلنقرأ الفاتحة ..

وانطلقت زغرودة فرحة ، من بين شفتى (شريفة) ..

لم يناقش (حسين) والده فيما حدث .. لقد انسحب قبل قراء الفاتحة ،
وذهب إلى حجرته غاضباً ، ينتظر أن يستدعيه والده بعد قليل ، إلا أن الحاج
(البهاوى) تجاهله تماماً ، حتى أنه لم يسأل عنه مطلقاً ، عندما لم يجده حول
مائدة الإفطار فى الصباح التالى ، ولم يناقشه فى الأمر ، عندما اجتمعا حول مائدة
الغداء ، فلم يطق (حسين) صبراً ، وقال فى غضب :



— لقد أهنتى إهانة بالغة أمس يا والدى .
انعقد حاجبا الحاج (البهاوى) فى شدة ، وهو يقول فى حدة :
— أنا أهنتك ؟ .. بل أنت الذى صرت تتعالى على الجميع ، ولا تتورع حتى
عن إهانة والدك .
بهت (حسين) لثورة والده ، التى لم يعهد لها من قبل ، فغمغم :
— إننى لم أقصد أن ..
قاطعته والده فى ثورة :
— ليس من حقت أن تتدخل فى أمر يخص الكبار ، مادمت أنا حيا .. لقد
طلب (ماهر) يد (زينب) ، وأنا وافقت ، وسيتزوجان برغم أنف الجميع ..
هل تفهم ؟ .. برغم أنف الجميع .
انكمش (حسين) فى مقعده ، وهو يغمغم :
— كما تأمر يا أبى .. كما تأمر .
كان من الواضح أن الحاج (البهاوى) شديد الثورة هذه المرة ، وأنه لم يعد
يسمح لأحد بفرض إرادته عليه .. حتى ابنه (حسين) ، لذا فقد تابع بنفس
الثورة ، التى احتقن لها وجهه فى شدة :
— إنك لم تعد كما كنت .. لقد أصابتك السلطة بالغرور ، ولم تعد تستحق
ما منحك إياه .. لم تعد تستحقه .
تمم (حسين) :
— حسنا يا أبى أنا لم أكن أقصد ، و.....
قاطعته صوت العمدة ، وهو يقول :
— لماذا هذا الشجار ؟
أدار الجميع عيونهم إلى العمدة ، وبذل الحاج (البهاوى) جهذا رهينا ،
ليسيطر على أعصابه ، وهو يقول :

— إنه مجرد حوار عائلي .. مرحبًا يا عمدة .. تفضل الطعام ..
حمل وجه العمدة ابتسامة متشفية ، لم ترق لـ (مفيد) ، وهو يقول :
— لقد تناولت غدائي ، ولكنني أتيت أسأل (حسين) بك عن صحة
ما أذاعه المذيع .

التفت إليه (حسين) ، يقول في توتر :

— ماذا أذاع ؟

تطلع العمدة إلى وجه (البهاوى) ، الذى احتقن على نحو مخيف ، وقال في
بطء ، يحمل نبرة تشف واضحة :
— لقد أصدرنا قرارًا بتحديد الملكية الزراعية .. سيصادرون ما يزيد على
المائتى فدان .

اتسعت عيون الجميع في دهشة وجزع ، وأدار (مفيد) عينيه إلى والده في
خوف وقلق ، ورأى وجه الحاج (البهاوى) يزداد احتقانًا في شدة ، وعيناه
تكتسيان بعروق رفيعة متكاثفة ..

وفي أعماق (البهاوى) ، انهار كيان ضخم ..

أرضه ضاعت ..

الأرض التى جمعها بكفاحه وعرقه ذهبت ..

ذهبت بقرار واحد ..

هدف حياته وكفاحها انهارا في لحظة ..

وشعر بنهر من الدماء يصعد إلى رأسه وعينه ، و.....

وسقطت رأسه فوق المائدة ..

وانطلقت صرخة (مفيد) :

— أبى .. أبى .

وألصق أذنه بصدر أبيه ، في محاولة لسماع دقات قلبه ، ثم لم يلبث أن رفع

وجهه في شحوب هائل ، وهو يقول في انهيار :

— لقد مات .. مات أبى .

وسقط (حافظ) فاقد الوعي ..

١٨ — الميراث ..

كانت جنازة (البهاوى) مهيبة بحق ، وهى تعبر شوارع القرية في صمت
تام ، خلا حتى من صراخ النساء التقليدى ، في القرى المصرية ، وهن يشيعن
موتاهن ، وكأنما أضفى وقار الراحل وهيته غطاء خاصًا على تشيع جنازته ، أو أن
ذلك الإطار الذى أحيطت به الجنازة قد حبس الصرخات في حلق النساء ، فلم
تخرج القرية كلها لتشيع الرجل إلى مثواه الأخير ، مدفوعة بحبه واحترامه
فحسب ، وإنما انضم إلى الصورة حشد من رجال الجيش ، تلتصق رتبهم الرسمية
على أكفاهم ، ويتقدمهم عدد من الضباط الأحرار ، الذين هم محور حياة
(مصر) كلها ، في ذلك الوقت ..

ومضت الجنازة صامتة ، حتى تم إيداع (البهاوى) مثواه الأخير ، في تراب
القرية التى شهدت كفاحه وغموه ، ثم بدأ أبناؤه يتقبلون العزاء ، وصافح
(رفعت كساب) (حسين) في حرارة ، وهو يقول :

— البقاء لله .. لا تستسلم للأحزان .

أجابه (حسين) في لهجة عسكرية ، بدت عجيبة في إطار الموقف :

— لن أفعل ياسيدى .

التفت (رفعت) بصافح (مفيد) ، قائلاً وهو يشد على
يده في قوة :

— القول نفسه ينطبق عليك .

غمغم (مفيد) ، وهو يجتر الكلمات من حزنه اجترارًا :

— سأحاول .

ربت (رفعت) على كفه ، ثم التفت إلى (حسين) ، وقال وكأنما نسي
جلال الموقف :

— متى ستأتى إلى مكنتى ؟

أجابه (حسين) فى سرعة :

— وقتما تشاء ياسيدى .

لوح (رفعت) بكفه ، قائلاً :

— خذ أسبوعاً كاملاً ، ولكن حاول أن تتخلص من الأحران فى سرعة .

أجابه بنفس اللهجة العسكرية :

— سأحاول ياسيدى .

شعر (مفيد) بغصة فى حلقه ، وباشمئزاز ، عتيف فى أعماقه ..

كيف يمكنهما أن يتحدثا هكذا ، فى موقف له كل هذا الجلال ؟ ..!

ألم يعد لمشاعرهما مجال أو مكان ؟ ..

أصارت السلطة فى الحياة ملهية لهم عن الموت ؟ ..

تمنى لحظتها لو انفجر فى وجه شقيقه ، وانهمه بالعقوق والنكران ، إلا أنه راح

يقاوم رغبته هذه فى شدة ، وهو يفكر فى شقيقهما (حافظ) ، الذى لم تحمل

أعصابه الصدمة ، فانهار تماماً ..

هكذا هو (حافظ) دوماً ..

أضعف من أن يحتمل أية صدمة ..

ترى ماذا سيفعل المسكين ، بعد أن فقد والده ، الوحيد الذى كان ينقله من

بطش (حسين) به ؟ ..

يا للبائس المسكين ؟ ..!

أفاق (مفيد) من أفكاره على وجه أثار دهشته ..

وجه شاب وسيم ، برز من بين الصفوف فجأة ، واتجه إليه ، ومد يده
يصافحه ، وهو يقول فى هدوء يحمل نبرة قوة واضحة :

— البقاء لله .

صافحه (مفيد) فى حيرة ، وهو يتساءل : أين رأى هذا الوجه من قبل ؟

ثم فجأة تذكر ..

وأدهشته الذكرى ..

إنه ضابط البوليس السياسى ، الذى ألقى القبض على والده ، وعلى

(حسين) ، منذ شهور ..

إنه الصاغ (إبراهيم مكى) نفسه ..

وفى دهشة بالغة ، حدق (مفيد) فى وجه (إبراهيم) ، الذى استدار إلى

(حسين) ، ومد يده يصافحه فى هدوء ، مكرراً عبارته نفسها ..

وأدرك (مفيد) على الفور أن علاقة ماقد نشأت بين (حسين)

و (إبراهيم) ..

لم يدر طبيعة تلك العلاقة بالضبط ، ولكنهما تصافحا على نحو يؤكد اعتياد كل

منهما على الآخر ، وتبادلا نظرة غامضة عجيبة ، توحي بأن كلا منهما يحمل فى

قلبه كراهية لأحد لهما ، تجاه الآخر ..

ولكن الموقف لم يكن يحتمل التفكير فى هذه النقطة أو بحثها ؛ لذا فقد انشغل

(مفيد) و (حسين) فى تقبل العزاء ، حتى انفض الموقف ، فعادا إلى السراى ،

وقد بدأ الحزن يتخذ مساراً جديداً فى نفسيهما ، بعد جرعة المشاعر المفرطة ،

التي حقنهما بها الموقف ، منذ الوفاة ..

وفى السراى لم تكن النيران قد خمدت بعد ..

كانت بنات (البهاوى) يذرفن الدمع فى غزارة ، ويبكين ويتحبن فى مرارة

وحزن لا أحد لهما ..

وحدها (زينب) بدت متماسكة إلى حد كبير ، على الرغم من التماسكة دمع
تملاً عينها ، فاتجه إليها (مفيد) ، وسألها :

— أين (حافظ) ؟

أجابته والمرارة تتقاطر من صوتها :

— يجلس وحده في الشرفة الخلفية .

سألها في قلق :

— هل يكي ؟

هزت رأسها نفياً ، وهي تقول :

— مطلقاً .

ثم أضافت في حيرة :

— وهذا ما يقلقني في الواقع .

تنهد (مفيد) وقال :

— سأذهب إليه .

اتجه إلى حيث يجلس (حافظ) ، الذي بدا صامتاً جامداً ، كتمثال من
حجر ، وعيناه تشردان بعيداً في الفراغ ، وقد بدتا أقرب إلى عيني جثة هامدة ،
فجلس (مفيد) إلى جواره صامتاً بعض الوقت ، ثم ربت على كتفه ، مغمغماً :

— لا تستسلم لأحزانك هكذا .

لم يبد أن (حافظ) قد سمعه ..

لم يبد حتى أنه قد شعر بوجوده ..

لقد ظل صامتاً ، جامداً ، يحدق في الفراغ ، فتابع (مفيد) :

— إنه والدنا كلنا ، و.....

لم يتم عبارته ، بل لم يشعر حتى بالرغبة أو الحاجة إلى ذلك ..

إنه يعلم جيداً أن احتمال (حافظ) للصدمة بالغ الضعف ، وأنه سيمضي

وقت طويل حتى يتمكن استيعاب ذلك التغير ، الذي طرأ على الأسرة ..

وعلى فقدان أبيه ، وسنده ، ودرعه ..

وتنهد (مفيد) مرة أخرى ، وربت على كتف شقيقه ، ثم نهض يغادر
الشرفة ، إلا أن همسة تحمل اسمه جعلته ينتفض ، وجعلت قلبه يدق في عنف ،
وهو يلتفت إلى مصدرها ، هاتفاً بكل الوجد في أعماقه :

— (مديحة) !؟

كانت تختفي يجسدها الضئيل وسط أشجار المانجو والبرتغال ، في حديقة
المنزل الخلفية ، ووجهها الرقيق يحمل خليطاً من القلق واللهفة والحنان ، وهي
تلوح لـ (مفيد) بكفها الصغير ، وهم (مفيد) بالاندفاع نحوها ، ولكنها
لوححت له ، قائلة :

— ليس الآن .

ثم أضافت في حنان وتعاطف :

— البقية في حياتك .. لقد أتيت لتعزينك .

هتف بها في خفوت :

— أريد أن أراك .

ترددت لحظة ، ثم أجابته :

— الليلة ، في نفس الموعد والمكان .

غمغم :

— فليكن .

أسرعت تنصرف مبتعدة ، وتابعها هو ببصره ، وقلبه يخفق خلفها ، وعأوده
كل شوقه وحنينه إليها ، ثم لم يلبث أن شعر بنغمة بتأنيب الضمير ؛ لأنه يفكر في
هذا ، ولم يمض سوى يوم واحد على وفاة أبيه ، فتمتم في توتر :

— يا لها من حياة !

وألقى نظرة أخرى على (حافظ) الجامد ، ثم اتجه إلى حجرة استقبال الضيوف ، ووقع بصره فيها على (حسين) والحاج (سفيان) ، و (ماهر) ووالده الحاج (سليمان) ، وزوجي شقيقته (نعيمة) و (توحيدة) ، ولم يكده الحاج (سفيان) يلمحه ، حتى نهض يصافحه ، قائلاً :

— رحم الله والدك يا ولدي .. كان خير الرجال .
شكره (مفيد) بتمتمة مبهمه ، واتخذ مكانه وسط المجلس ، وساد الصمت لحظات ، قبل أن يتنحى (عمر) ، زوج (نعيمة) ، ويقول بصوت مرتفع :
— البقاء لله ..

همهم الجالسون عبارات مبهمه ، يصعب تمييزها ، وعاد الصمت يغلف المجلس مرة أخرى ، قبل أن يقول (عمر) :

— أظن الأمر سيحتاج بعض الوقت ، لإتمام الإجراءات .
التفت إليه الجميع في دهشة ، وسأله (حسين) في شيء من الحدة :
— أية إجراءات ؟

رسم (عمر) على شفثيه ابتسامة بلهاء ، وهو يقول :
— إجراءات الميراث .

بدأ الجواب أشبه برنين حاد ، انطلق بغتة في حجرة صامتة ، فساد صمت تام بعده ، والجميع يحدقون في وجه (عمر) ، في مزيج من الدهشة والاستكار ، قبل أن يهتف (عبد الحكيم) ، زوج (توحيدة) :
— أهذا وقت الحديث عن الميراث يا رجل ؟

قال (عمر) في حدة :

— وماذا يمنع ؟

هتف (عبد الحكيم) غاضباً :

— الرجل لم يرد في قبره بعد .

قال (عمر) في تبجح :

— الحق لا يعرف موعداً .

كاد (عبد الحكيم) ينفجر في وجهه مرة أخرى ، لولا أن قال (حسين) في صرامة :

— أي حق يا رجل ؟

التفت إليه (عمر) ، وقال :

— حق الجميع .. ألسنا كلنا شركاء في هذا الميراث ؟ ..

لقد تركت لكم الحكومة مائتي فدان ، وسيلغ نصيب زوجتي منها ما يقل قليلاً عن عشرين فداناً ، و.....

بدأ الغضب على وجه (حسين) ، وهب من مقعده بحركة حادة ، فهتف (عمر) ، وهو يتراجع حامياً وجهه بذراعه :

— إنني أطالب بحق زوجتي فحسب .

صاح (حسين) غاضباً :

— أنت أحقر مخلوق رأيته في حياتي .

هتف (عمر) :

— إنه حق .

تنحى الحاج (سفيان) ، وقال متردداً :

— ليس لك الحق في قيراط واحد يا (عمر) .

التفت إليه (عمر) ، صارخاً :

— هل تجامله يا حاج (سفيان) ؟ .. الشرع لا يقبل المجاملة .. ستصادر منهم

الحكومة ثمانمائة فدان ، وستترك مائتين ، وستوزع الأقدنة الباقية على الجميع ،

وبحسبة بسيطة ستجد أن نصيب زوجتي هو واحد من أحد عشر نصيباً ، و.....

قاطعه الحاج (سفيان) في صرامة :

١٩ - الظلم ..

حذق الجميع في وجه الحاج (سفيان) في ذهول ، وكان أكثرهم ذهولا هو
(حسين) نفسه ، الذي كان أيضا أول من تحدث ، مغمغما :
— لي أنا ؟!



أوماً الحاج (سفيان) برأسه
إيجابا ، وقال متحاشيا النظر في وجوه
الجميع :

— لقد كان (رحمه الله) يخشى أن
تفتت الأرض من بعده ، وأن يسيء كل
منكم التصرف في نصيبه منها ؛ لذا فقد
واتته تلك الفكرة ، ولقد حاولت أنا
إثناؤه عنها ، وإقناعه بترك الشريعة
لمجراها ، ولكنه أصر على أن يكتب

أرضه كلها باسم (حسين) ، بعقود بيع صحيحة ، سدد عنها الرسوم المطلوبة
كاملة ، على أن يتولى (حسين) مهمة الإنفاق على الجميع ، ومنحهم أنصبتهم
الشرعية من إيراد الأرض سنويا .

هتف (عمر) محق :

— ولكن هذا ظلم .. ظلم بين .

صرخ (حسين) في وجهه :

— تحشم يا رجل .. إنها إرادة أبي .

— قلت لك إنك لن تحصل على قيراط واحد .

صاح (عمر) ، وقد أفرعه مجرد تصور عدم حصوله على شيء :

— ماذا تعني يا حاج (سفيان) ؟

أما (مفيد) فقد شعر بالقلق ، وهو يغمغم :

— ماذا تقول يا حاج (سفيان) ؟

أطلق الحاج (سفيان) من صدره زفرة قوية ، وقال :

— أنتم تعلمون جميعا أن الحاج (البهاوي) كان يحلم دوماً بأن يمتد اسمه إلى

عشرات الأجيال ، و.....

قاطعه (حسين) في توتر صارم :

— لا داعي للمقدمات الطويلة ، ادخل في الموضوع مباشرة .

تنحى الحاج (سفيان) ، وبدأ الحرج على وجهه ، وهو يقول :

— الواقع أن الحاج (البهاوي) (رحمه الله) ، لم يترك ميراثه للتقسيم

الشرعي .

ثم أشاح بوجهه ، وكأنما يتجنب مواجهة الموقف ، قبل أن يستطرد :

— لقد كتب أرضه كلها لـ (حسين) .. (حسين) فقط .

صاح (عمر) محتجًا :

— إرادته تتجاوز شرع الله ؟

صرخ (حسين) بكل صرامته :

— اخرس .. لا تنطق بكلمة واحدة ضد أبى ، وإلا ألقيت بك فى السجن .

انكمش (عمر) فى مقعده ، وهو يعلم أن منصب (حسين) الجديد يمنحه

القدرة على تحويل تهديده إلى حقيقة ، خاصة وأن طبيعة (حسين) لا تجعله يتورع

عن ذلك ، وراى صمت قصير على المكان ، والجميع يتطلعون فى وجوه بعضهم

البعض فى حيرة ودهشة ، قبل أن يشق صوت (مفيد) حاجز الصمت ، وهو

يقول :

— إنه حقًا ظلم .

التفت إليه (حسين) فى حركة حادة عنيفة ، وبوجه يحمل كل الغضب

والاستكثار ، فرفع (مفيد) صوته ، مكررًا فى حزم :

— إنه حقًا ظلم .. ليس من حق مخلوق فى الكون كله أن يخالف قانون

الخالق .

هتف (حسين) فى غضب :

— اصمت .

ولكن (مفيد) تابع متجاهلاً الأمر :

— لقد حدد الخالق (عز وجل) كل قواعد الإرث ، ولن نبلغ حكمته

سبحانه أبدًا ، مهما بلغنا من الشأن والقوة والحكمة ، والواجب هو أن نطيعه

دون نقاش ، ودون تحوير لأوامره .

هتف به (حسين) مرة أخرى :

— قلت لك اصمت .

قال (مفيد) فى صرامه :

— لا .. لن أصمت عن الحق .. الساكت عن الحق شيطان أخرس .. إن

ما حدث ظلم .. ظلم .. ظلم .

صاح (حسين) فى غضب :

— هكذا؟! وماذا لو أن أبى قد منحك أنت الأرض كلها؟! أكنت

ستجد الأمر ظلمًا أيضًا ؟

لوح (مفيد) بكفه فى مرارة ، واستدار متجهًا إلى الخارج ، فصرخ به

(حسين) فى ثورة :

— إلى أين؟! إننى لم أتم حديثى بعد .

أجابه (مفيد) فى غضب :

— سأنصرف يا (حسين) .. سأنصرف قبل أن أختق .

ثم التفت إليه ، مستطرذاً فى حق :

— وحتى لا نوصم دومًا بأننا ، فى ليلة دفن والدنا ، قد رحنا نتشاجر من

أجل الميراث .

واندفع يغادر المكان فى حدة واضحة ، فهتف (حسين) فى غيظ :

— غبى !

نهض (ماهر) ووالده ، وقال الأول فى حياء :

— أظن أنه قد حان وقت الانصراف .. البقية فى حياتك أنت يا (حسين) بك

غمغم (حسين) فى انقباض :

— شكرًا .

صحبهما الحاج (سفيان) فى انصرافهما ، دون أن يتبادل كلمة واحدة مع

(حسين) ، سوى أن غمغم وهو يضافحه :

— كل الأوراق ستجدها فى دولاب والدك .

صافحه (حسين) فى صمت ، وودعه حتى بوابة السراى ، ثم عاد إلى

حجرة استقبال الضيوف ، وتطلع إلى زوجى شقيقته فى تحد مسافر ، وهو يقول :

— مارأيكما فيما سمعناه ؟

عقد (عمر) حاجيه في غضب ، وهو يقول :

— سنقول رأينا في المحكمة .

وهب مغادراً المكان في غضب ، وهو يهتف باسم زوجته ، التي لحقت به في
سرعة ، وتبعته في انكسار وحزن ، وبطنها الممتلئة بجينها الأول تترجرج أمامها ،
في حين سأل (حسين) (عبد الحكيم) في صرامة :

— مارأيك أنت ؟

تبادل معه (عبد الحكيم) نظرة متحدية ، قبل أن ينهض قائلاً :

— لم نكن أبداً في حاجة إلى أموال والدك .

ولم يلبث أن انصرف مع زوجته في صمت ..

وبقى (حسين) وحده ..

والعجيب أنه ، على الرغم من حزنه لوفاة والده ، قد شعر في تلك الليلة

بنشوة عجيبة ..

نشوة القوة ...

كان (مفيد) يحتاج حقاً إلى لقاء (مديحة) هذا المساء ..

إنه لم يرها منذ زمن طويل ..

منذ كشف والدها الحاج (إسماعيل) طبيعة العلاقة بينهما ..

وهو يشعر بشوق هائل إليها ..

ثم إنه يحتاج إلى من يستمع إلى أحزانه ولوعته ، وإلى من يتشله من ذلك

الشعور العام بالاختناق ، الذي أورثته إياه وصية والده ..

كان يشعر أن هذا ظلم مجحف ..

ظلم بين ..

لماذا فعل والده هذا ؟ ..

لماذا خالف مشيئة الخالق (عز وجل) ، ومنح (حسين) وحده الثروة
كلها ؟ ..

لم يكن حزن (مفيد) من أجل الثروة ، ولا من أجل فوز (حسين) بالغنيمة
كلها ، ولا حتى من أجل فقدان الأرض ، التي يعشقها ..

وإنما كان من أجل الظلم ..

لم يكن يحتمل أبداً مبدأ الظلم ..

أبداً ..

انتزع من أفكاره صوت (مديحة) ، وهي تهمس :

— (مفيد) ..

التفت إليها بكل جوانحه وجوارحه ..

.. بكل شوقه وحبه ..

بكل لطفه ولوعته ..

ولم تكذ تلقى كفيها الرقيقتين في راحتيه ، وقلبا يرتجف حباً وشوقاً ، حتى

كاد يضمها إلى صدره ، ويفرغ على شفيتها لواذع قلبه ، لولا أن أخلاقه وشهامته

قد منعه من تدنيسها بفعل حرمه الله (سبحانه وتعالى) إلا على الأزواج ، فهتف

في همس يحمل كل الحب :



أوحشتي .

تضرج وجهها بحمرة الخجل ، مغممة :

— وأنت .

جلسا متجاورين فوق العشب الطرى ، عند جذع الشجرة الكبيرة ،
وتشبثت أصابع كل منهما بكف الآخر ، وهما يلتزمان وجهي بعضهما البعض ،
بنظرات ملؤها اللهفة والشوق والحب ، حتى همست (مديحة) :

— البقية في حياتك .

غمغم :

— أشكرك .

ثم سألتها في خفوت :

— هل تعلم والدك أنك هنا ؟

تتمت وهي تملأ عينيها بوسامته :

— إنه يتظاهر بأنه لا يعلم ، ولكنني واثقة من معرفته بلقائنا ، ويبدو أنه يعلم

كم تعالى ، ولم يشأ مني من التخفيف عنك .

تهدد مغممًا :

— والدك رجل رانع يا (مديحة) .

تنازعت عوامل شتى ، ما بين لفته للقيامها ، وذلك الوعد الذي قطعه بأن
تكون علاقتهما واضحة نظيفة ، ثم لم تلبث أخلاق الفارس في أعماقه أن
انتصرت ، فنهض قائلاً في حزم :

— (مديحة) .. صحيح أنني أتلهف شوقاً لقضاء حياتي كلها معك ، ولكن

لا بد لك من العودة إلى منزلك .

سألته في دهشة وخوف :

— لماذا ؟ .. ماذا حدث ؟

أمسك كفها بكفيه ، وتطلع إلى عينيها مباشرة ، وهو يقول :

— اسمعي يا (مديحة) .. لقد كنت أذوب طلباً للقاءنا معاً ، وكان لدى
الكثير لألقيه على مسامعك ، إلا أنني قد قطعت وعداً بعدم لقائك سراً مرة
أخرى .

سألته في دهشة :

— لمن قطعت هذا الوعد ؟

أجابها في حزم :

— لا عليك في هذا .. المهم أننا لن نلتقى مرة أخرى ، إلا على نحو رسمي
وشرعي تماماً ، وعلينا أن نحتمل الفراق ، حتى يأتي ذلك اليوم .

ترقرقت الدموع في عينيها ، مع حيرتها وقلقها ، فرسم على شفثيه ابتسامة ،
وهو يضيف :

— ولن يتأخر ذلك اليوم يا (مديحة) .. لن تمض شهور قليلة ، إلا
وتصيرين .

اتسعت ابتسامته ، وهو يضيف في حنان :

— زوجتي ..

وانطلقت في قلبها زغرودة فرح قوية ..

حافظت (زينب) على ثباتها وتماسكها ، حتى أوى الجميع إلى فراشهم ، ثم
اندست في فراشها ، وتركت لدموعها العنان ..

وانسكبت دموعها تفرق وسادتها ..

لقد أحبت والدها كما لم تحب فتاة والدها ..

كان لها بمنابة مثل أعلى ، وصرح تحترمه وتوقره ..

إنها حتى ، في اختيارها لـ (ماهر) ، كانت تحب تلك الصورة فيه ، التي
تذكرها بكفاح والدها في شبابه ..

صورة الشاب المقاتل ، الذى لا يتراجع أمام الصعاب ..

لهذا نحب (ماهر) ..

ولهذا تتمنى أن تتزوجه ..

فجأة امتلأت نفسها بعذاب الضمير ..

كيف تفكر فى الزواج ، ولم يستقر والدها فى قبره سوى صباح اليوم ؟ ..

آلتها الفكرة ، فانهمر مزيد من الدموع من عينيها ، ودفنت وجهها فى

الوسادة فى شدة ..

ولكن (ماهر) ظل يلح على أفكارها ..

ودون وعى ، عادت تفكر فى أمره ..

ترى هل تحبه حقاً ، أم تحب فيه صورة شباب والدها فحسب ؟ ..

بدا لها أن الوسيلة الوحيدة للتيقن من هذا هو أن تتزوجه ، وبعدها سيوضح

لها الأمر ..

رأدوتها فجأة فكرة عجيبة ، خفق لها قلبها ..

— هل ستزوج (ماهر) حقاً ؟ ..

لقد وافق والدها على إتمام هذا الزواج ، ثم رحل ، وترك كل شيء

لـ (حسين) ، فهل يوافق (حسين) على ماوافق عليه والده ؟ ..

لا أحد يدرى ..

لقد انتهى عهد (محمد البهاوى) ..

وبدأ عهد (حسين البهاوى) ..

ومن المستحيل أن يتساوى العهدان ، وأن يتشابه ..

هذا هو المستحيل بعينه ..

٢٠ — القفزة ..

ابتسم العمدة ابتسامة باهتة ، وهو ينهض لاستقبال المأمور فى ساحته ،
وصافحه فى هدوء ، قائلاً :

— صباح الخير يا (باشا) .

تلقت المأمور حوله فى جزع ، وهو يقول :

— صه يا رجل .. لا تخرب بيوتنا .. لقد ألغوا الألقاب .

ضحك العمدة ، وهو يقول :

— ألغوا الألقاب الفعلية بإسعادة المأمور ، وليس الشرفية .

عقد المأمور حاجبيه ، وهو يقول فى حدة :

— ماذا تقصد ؟

ضحك العمدة مرة أخرى ، قائلاً :

— لا شيء ، بإسعادة المأمور .. لا شيء .. مارأيك فى قدح من الشاي ؟



جلس المأمور إلى جواره ، وهو يقول في صرامة :

— قبل تناول الغذاء أم بعده ؟

أطلق العمدة ضحكة خبيثة ، وقال :

— قبله وبعده .. نحن رهن إشارتك يا سعادة المأمور .

لم تمض إلا دقائق حتى وصلت أقذاح الشاي ، وارتشف المأمور رشقة من قدحه ، قبل أن يقول في مرارة :

— أرايت ما آل إليه الأمر يا عمدة ؟ .. لقد مات (البهاوي) ، وترك كل شيء لابنه (حسين) ، الذي أصبح أحد أصحاب الشأن في العهد الجديد ، وخسرنا نحن كل شيء .

ابتسم العمدة في دهاء ، وهو يقول :

— خسرنا ؟! .. من قال هذا يا سعادة المأمور ، كل ما في الأمر هو أن اللعبة قد اتخذت مسارًا جديدًا ، يتناسب مع متغيرات الحياة .

قال المأمور صارمًا :

— لن يمكننا محاربة (حسين البهاوي) الآن يا عمدة ، أطلق العمدة ضحكة صفراء ، وقال :

— لماذا يا سعادة المأمور ؟ .. لأنه يتمسح في ركب رجال حركة الجيش ؟ .. لا يا باشا .. عيبك هو أن تلك الأمور تبهرك ، وتلغى قدرتك على حسن تقديرك للأمور ، ولكن من حسن الحظ أنها لا تفعل هذا بي ، ف (حسين) الآن ليس سوى تابع يخشى فقدان موقعه ، وأمثاله يدفعهم التوتر إلى الخدر الزائد ، في نفس الوقت الذي يدفعهم فيه الإحساس بالقوة إلى إبراز مواطن سطوتهم ، وهذا التناقض يوقعهم عادة في حماقات يسهل تخطيطهم بواسطتها .

سأله المأمور مبهوثًا :

— أنظن هذا ؟

رفع العمدة قدح الشاي إلى شفتيه ، وهو يقول :

— بالتأكيد يا سعادة المأمور .. إن الأمور لم تختلف كثيرًا كما أخبرتك .

وارتشف رشقة كبيرة من الشاي ، في صوت مسموع ، قبل أن يضيف :

— وحربنا مع عائلة (البهاوي) لم نخسم بعد ..

ابتسم (رفعت كساب) في إعجاب ، عندما رأى (حسين) يخطو إلى مكتبه ، بعد ثلاثة أيام فقط من وفاة والده ، ويؤدي التحية العسكرية في قوة ، فمد يده يصافحه ، وهو يقول :

— لماذا لم تهم إجازتك ؟

أجابه (حسين) :

— أحب أن أدفن أحزائي في عملي يا سيدي .

أومأ (رفعت) برأسه ، وقال :

— رائع .. هكذا أحب الرجال .

ثم جلس ، وتراجع في مقعده ، واستطرد في اهتمام :

— كيف حال تدريباتك ؟

أجابه (حسين) وكأنما كان ينتظر هذا السؤال :

— إنني أتقدم في سرعة ، ولكن ..

سأله (رفعت) في قلق :

— ولكن ماذا ؟

عقد (حسين) حاجبيه ، وكأنما يوحى بأهمية الأمر وخطورته ، قائلاً :

— لست أثق في إخلاص هذا الرجل ، أو ولائه للحركة .

سأله (رفعت) :

— أتقصد (إبراهيم مكى) ؟

أوماً (حسين) برأسه إيجاباً ، وهو يجيب :

— ومن غيره ؟

استرعى (رفعت) في مقعده مرة أخرى ، وهو يسأله :

— وما الذى يجعلك تشك في أمره ؟

أجابه (حسين) في سرعة :

— إنه يتعامل مع الأمر في سخرية ، كما لو كان لا يثق في استمرار نجاح حركة

الجيش .

سأله (رفعت) في لهجة توحى بأنه لم يهتم كثيراً بالنقطة الأولى :

— وماذا أيضاً ؟

ارتبك (حسين) ، وبدأ له أن يحاوله قد باءت بفشل ذريع ، وتعم :

— إنه .. إنه ..

ثم اندفع فجأة يستطرد :

— إنه أحد أعضاء البوليس السياسى سابقاً .

ابتسم (رفعت) ، وهو يقول :

— أهذا هو أسلوب تفكيرك ؟

زاد هذا من ارتباك (حسين) ، فقال متوتراً :

— إننى لا أثق فيه فحسب .

تأمله (رفعت) لحظة من صمت ، ثم نهض يربت على كتفه ، قائلاً :

— اسمع يا (حسين) .. سبق أن أخبرتك أننا نحتاج إلى خبرة (إبراهيم

مكى) ، وأنا لأنهم كثيراً بولائه للحركة من عدمه ، ولكن من الواضح أنك

تكرهه للغاية ، وأنت تحاول إقصاءه بوسائل صيانية .

تعم (حسين) في توتر :

— سيدى .. إننى ..

قاطعه (رفعت) مبتسماً :

— لست أريد تفسيرات أو تبريرات .. سنعتبر أنك لم تقل شيئاً ، وإننى لم

أسمع شيئاً .. قل لى : ما رأيك لو تصحبنى إلى نادى الجزيرة ؟

هتف (حسين) مبهوراً :

— نادى الجزيرة ؟! .. ألا يقولون إن هذا النادى يقتصر على الأمراء ، و... ؟

لوح (رفعت) بكفه ، قائلاً :

— لقد مضى هذا العهد .. ستفتح أبواب نادى الجزيرة للشعب .. إنه عصر

المساواة ..

ثم عاد يتسم ، مستطرداً :

— والآن هيا بنا .. ستجد الجميع هناك .

ابتهج (حسين) ، وشعر بالفخر كثيراً ، وهو يجلس إلى جوار (رفعت) ،

في سيارة الجيش ، التى نقلتهما إلى نادى الجزيرة ، وشعر وهو يخطو بقدميه على

أرض النادى ، أنه قد قفز قفزة اجتماعية خطيرة ..

لقد استطاع دخول نادى الجزيرة ، الذى لم يكن يسمح بدخوله فيما مضى ،

سوى لحاملى الألقاب الرسمية وأسرهم ، من الأمراء والبشوات ..

وفي كثير من الزهو ، صحب (رفعت) إلى تلك القاعة الأنيقة ، التى

مازالت شعار الملكية ، والتى صارت منذ قيام حركة الجيش مقراً لاجتماع مجلس

قيادة الحركة ، وقتما يحلوا لأعضائه ..

والتقى (حسين) — للمرة الثانية في حياته — بالضباط الأحرار ،

وصافحهم واحداً واحداً ، وبخاصة ذلك الشاب الطويل ، ذو العينين

اللامعتين ، الذى يحمل اسم (جمال عبد الناصر) ..

وداعبه (عبد الحكيم) ، وهو يمتنى له حظاً سعيداً في النادى ، غامراً بعينه

على نحو خاص ، في حين قال (صلاح سالم) في حزم :

— معذرة يا فتي .. هذا الاجتماع يقتصر على أعضاء مجلس القيادة
فحسب ..

ارتبك (حسين) ، واحتقن وجهه خجلاً ، فابتسم (رفعت) ، وربت على
كفها ، قائلاً :

— لا تنوتر إلى هذا الحد .. هيا .. اذهب وأمرح قليلاً في النادي ،
وسنرحل معاً .

غمغم (حسين) :

— شكراً يا سيدي .

غادر القاعة الفاخرة ، وهو يلقي نظرة أخيرة على التاج الملكي ، الذي يزين
أحد جدرانها ، وزاح يسير في حديقة النادي على غير هدى ، حتى سمع صوتاً
أنثوياً بالغ الرقة ، بدا في أذنيه أشبه بتغريد عشرات البلابل ، يقول :

— أنت أحدهم ؟

التفت إلى مصدر الصوت بكيانه كله ، وتطلع مسحوراً إلى شابة فاتنة ، لها
بشرة في لون اللبن ، المختلط بقطرات من عصير الفراولة ، وعنق ناعم طويل ،
وشعر أسود فاحم طويل ، يسدل على كتفها في رقة ونعومة ، ويصنع من وجهها
لوحة رائعة ، بعينها الواسعتين الخضراوين ، وفمها الدقيق الساحر ..
وابتسمت تلك الفتاة ابتسامة تؤكد ثقها في سحرها ، وفي تأثيرها عليه ،

وقالت بصوت أكثر رقة :

— أما من جواب ؟

نعم مسحوراً مأخوذاً :

— جواب لماذا ؟

اتسعت ابتسامتها ، فبدت أكثر جمالاً من (أفروديت) نفسها ، وهي

تقول :

— سألتك أنت أحدهم ؟

نعم مبهوراً :

— أحد من ؟!

أطلقت ضحكة عذبة قصيرة ، اختلج لها قلبه بين ضلوعه ، وهي تقول :

— أحد الضباط الأحرار بالطبع .

أجابها في خفوت :

— لا .. لست أحدهم .

ثم استدرك في سرعة :

— ولكنني أعمل معهم .. إنني الذراع اليمنى للبكباشي (رفعت
كساب) .

رفعت حاجبها الرفيعين الجميلين ، وهي تقول :

— إذن فأنت رجل ذو شأن .

هتف في حماس :

— بالطبع .

تأملته لحظات بعينها الساحرتين ، قبل أن تقول في خفوت :

— أنعلم أنك وسم جيداً ؟

لم يصدق أذنيه ، وهو يسمع تلك العبارة ، من فاتنة مثلها ، فهتف :

— أنا ؟

ثم استدرك :

— أشكرك يا سيدي .

رفعت رأسها في ترفع ، وهي تقول :

— الأميرة (عابدة) .

هتف مبهوراً ، وهو يميل أعينه بوجهها وفستانها مرة أخرى :



— أميرة ؟
 قالت في لهجة تحمل شيئاً من السخرية :
 — أيهرك أن تتحدث إلى أميرة ؟
 لم يتبه إلى الرنة الساخرة في صوتها ، وهو يقول :
 — بل يسحرنى أن أتحدث إلى فاتنة مثلك .
 ابتسمت شأن امرأة نجحت في إغواء رجل ، وقالت في هدوء :
 — أشكرك .
 ثم استدارت تنصرف في هدوء ، فاستوقفها هاتفاً :
 — أهذا كل شيء ؟
 التفتت إليه تسأله في رصانة :
 — ماذا تعنى ؟
 ارتبك وهو يقول :
 — أعنى ألن نلتقى مرة أخرى ؟
 ابتسمت قائلة :
 — سأفكر في هذا .
 ثم أضافت في سرعة :
 — إننى آتى إلى هنا كل يوم .
 وابتعدت في خطوات رقيقة سريعة ، وهى تعلم أنها قد تركت خلفها رجلاً
 مسحوراً ..
 رجلاً قفز قفزة واسعة ..
 في سماء الحب ..

أطلق (حسين) صغيراً مغفوماً من بين شفتيه ، وهو يرتدى ثيابه في الصباح التالي ، وتضاعفت داخله تلك الفكرة ، التي تراود عقله منذ زمن ، في أن يبحث عن شقة أنيقة في (القاهرة) لسكنائه ، بعد أن مل السفر يومياً إلى هناك ، وبدأ شديد الاهتمام بزيه هذا الصباح ، وشديد العناية بالنجوم التي تزين كتفيه ، وكأنها يسمي إلى إبراز رتبته جيداً ، وبدأ مرشحاً للغاية ، حتى أنه قد ابتسم ابتسامة واسعة في وجه (مفيد) ، وهو يدلف إلى حجراته ، وقال له في مرح واضح :

— صباح الخير يا (مفيد) .. كيف حالك ؟

جلس (مفيد) على طرف فراشه شقيقه ، وهو يقول :

— في خير حال .. ولكن (حافظ) ليس كذلك ؟

سأله (حسين) بنفس المرح :

— لماذا ؟

أجابته (مفيد) في حدة مباغتة :

— إنك لا تهتم بشأنه قط يا (حسين) ، على الرغم من أنه مصاب بنوع من الانهيار العصبي الفائق ، حتى أنه لم يذرف قطرة دمع واحدة ، حزناً على والدنا ، إلى هذه اللحظة .

عقد (حسين) حاجبيه في صرامة ، وهو يقول :

— الرجال لا يكونون .

صاح (مفيد) :

— هذا القول لا ينطبق على (حافظ) .. أنت تعلم أنه ضعيف الشخصية ، ولا يحتمل الصدمات عادة ، ومن الواضح أن وفاة والدنا قد أصابته بصدمة شديدة .

قال (حسين) في حدة :

— لست طبيباً متخصصاً لتقول هذا .

لوح (مفيد) بذراعه ، قائلاً :

— فلنسمع قول طبيب متخصص إذن .

صمت (حسين) ، وهو يتطلع إليه ، قبل أن يقول مستكراً :

— أتريد أن تعرض (حافظ) على طبيب نفساني ؟

قال (مفيد) :

— ولم لا ؟

صاح (حسين) غاضباً :

— ألا تدرك طبيعة وضعي ومركزي الآن .. أتريد أن يقال إن شقيق

(حسين البهاوي) مصاب بالجنون ؟

هتف (مفيد) :

— ليس هذا أفضل من أن يصاب بالجنون بالفعل ؟

صاح (حسين) :

— ومن أدراك أن هذا سيحدث ؟

— ومن أدراك أنه لن يحدث ؟

— هذه الأمور في علم الغيب .

— ولكن الله (سبحانه وتعالى) أمرنا بالأخذ بالأسباب .

— لا ترتد عباءة الدين .

— ولا تنزع أنت معطف العلم .. شقيقنا يتعرض لأزمة نفسية عنيفة .

وصمت لحظة ، قبل أن يتابع في مرارة :

— ولو كان أبى حيا ماتركه هكذا .

ران الصمت لحظات ، و (حسين) يتطلع إليه في غضب ، ثم قال في

صرامة :

— لو

واندفع يغادر الحجرة كالعاصفة ، فعض (مفيد) شفتيه في غيظ ، مغمغما :

— صدقت (زينب) .. لقد بدأ عهد جديد ..

لم يدري (ماهر) ما الذى يمكن أن يحدث ، بشأن زواجه من (زينب) ، بعد وفاة (البهاوى) ، وشعر بالخرج من مناقشة الأمر ، في مثل هذه الظروف ، ولكنه راح يسير جيئة وذهابا من أمام السراى ، وتحت نافذة حجرة (زينب) ، وهو يأمل رؤيتها يوما ، دون أن يدري أن المسكينة كانت تراقبه من فتحات النافذة الخشبية ، وقلبا يخفق في لوحة وأسى ، ويحاول إقناعها بمناداته ، ولكن عقلها يعود فيستكر مجرد التفكير في أمر الزواج من (ماهر) ، وهى لم تطلع ثوبها الأسود بعد ..

وفي هذه الليلة بالذات لم تعد تحتمل ، فلم تكذ تلمحه يسير أسفل النافذة ، حتى فحتها ، وأطلت عليه دون أن تنبس ببنت شفة .. ولم ينس هو أيضا بنت شفة ..

فقط اختلج قلباهما في حب ولهفة ، وكل منهما يملأ عينيه بملاحم الآخر .. لحظتها فقط أدركت (زينب) أنها تحب (ماهر) ..

لحظتها فقط حددت مشاعرهما نحوه .. وبكل الحب ، لوححت له بكفها ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة حانية محبة ، اختلطت بخيطين من الدموع الصامتة ، انحدرتا على وجنتيها ..

ودون أن تنطق ألسنتهما حرفا ، دار بينهما حوار طويل :

— أحبك ..

— وأنا أيضا ..

— طال اشتياق إليك ..

— لن يبلغ شوقى ..

— ترى هل نلتقى ؟ ..

— إننى أحلم بهذا ..

— متى ؟

— من يدري ؟

— سأنتظر ..

— لن يطول الانتظار بإذن الله .

وفي حنان ، مال (ماهر) على أنامله ، وأودعها قبلة دافئة ، ثم رفع كفه إلى شفتيه ، ودفع القبلة إلى شفتى (زينب) بنفخة هادئة كالنسيم .. وتلقت (زينب) القبلة على شفتيها ، كما لو أن (ماهر) يحتويها بين ذراعيه ، على الرغم من الأمطار التى تفصل بينهما ، وهى تطل عليه من نافذة الطابق الثانى ..

وفي صعوبة ، انتزع هو قدميه من الأرض انتزاعا ..

وفي عُسر ، جذبت هى ضلفتى النافذة الخشبية ..

وافترق الحبيبان وقد بردت نار شوقهما قليلا ..

افترقا على وعد بقاء غامض ..

لقاء لا يدري سوى الله وحده ، أيم في هذه الدنيا ؟ ..

أم في دار البقاء ؟ ..

ابتسمت الأميرة (عائدة) ابتسامة هادئة وثقة ، عندما رأت (حسين)
يعبر بوابة نادى الجزيرة ، وعيناه تبحثان عنها في لهفة ، وتعمدت تركه يبحث عنها
لحظات ، قبل أن تلوح له بيدها ، هاتفة :

— أنا هنا .

تهللت أساريره كلها ، وهو يتجه نحوها في خطوات أشبه بالعدو ، قبل أن
يهتف :

— كيف حالك ؟

ضحكت قائلة :

— هذه الاستهلاكية تناسب الرجال لا النساء .

غمغم خجلاً مرتبكاً :

— معذرة .

أمسكت كفه في بساطة ، وهي تبسم في دهاء ، وكأنها تعلم جيداً تأثير
لملمس أناملها الرقيقة لكفه ، وقادته إلى مائدة منعزلة ، في شرفة النادى ،
وقالت :

— كنت أعلم أنك ستأتى .

هتف بها في حماس :

— ما كنت لأتأخر أبداً .

ابتسمت في ثقة ، وكأنها راقى لها الجواب ، أو كانت تتوقعه ، ثم سأله في
اهتمام :

— كيف حال عملك مع (رفعت كساب) ؟

أجابها في زهو :

— عظيم .. إننى أستعد لتقلد منصب كبير ، في إدارة جديدة ، ستصبح
أقوى سلطة في الدولة يوماً ما .

قالت في حماس :

— رائع .

ثم مطت شفيتها ، مستطردة :

— على الرغم من أننى لا أزيد هذه الحركة كثيراً .

سأها في دهشة :

— لماذا ؟

أجابته في ضحكة عصبية :

— أتسألنى ؟.. لقد أتيمم للقضاء علينا ، ولتجريدنا من كل ألقابنا

وممتلكاتنا .

قال محاولاً الدفاع :

— إننا نهدف إلى المساواة .

قالت ساخرة :

— أية مساواة ؟.. حتى بين المسؤولين توجد فروق ، فهناك من يراس

آخرين ، ومن يتسول في مناطق راقية ، وهناك من يرأسه غيره ، ولا يملك حتى

نصف ما يتسوله .

سأها في دهشة :

— وكيف تعلمين أمراً كهذا ؟

قالت ساخرة :

— من الروايات .

ثم مالت نحوه ، تضيف في تحد :

— أخبرنى ما الذى فعلته حركتكم هذه حتى الآن ؟.. لم تفعل سوى

التدمير .. إلغاء الألقاب ، مصادرة أموال وممتلكات أسرة (محمد على) ، منع

السفر خارج البلاد بدون تصاريح خاصة ، اعتقال السياسيين .. قانون الإصلاح

الزراعى ونزع الملكية .. أهكذا ترون الثورة ؟.. منع فقط ؟

ارتبك وهو يقول :

— إنها مجرد مرحلة ، ثم ..

قاطعه ساخرة :

— ثم ماذا ؟ .. هل مستبحونا ؟

زفر في ضيق ، وهو الذى كان يتوقع لحظات عاطفية سعيدة ، لاهجومًا

شرما ، وقال :

— يبدو أنك تنظرين إلى الثورة بمنظار أسود .

قالت فى سخرية :

— ثورة ؟! .. هل أطلقكم على انقلابكم هذا اسم الثورة ؟

ثم لوح بكفها ، مستطردة :

— هذا لا يغير من الأمور شيئاً على أية حال .. فلتكن ثورة .. سيضفى هذا

عليها لمسة شاعرية على الأقل .

عقد حاجبيه ، قائلاً :

— أهذا كل ما ستحدث فيه ؟

ضحكت قائلة :

— لا بالطبع .. إنه مجرد حوار .. ثم إننى لست ناقمة عليكم على أية حال ،

على الرغم من أنكم قد استوليم على بعض مجوهراتى .. أعنى كلها .

ثم مالت نحوه بغتة ، مستطردة :

— قل لى : أين تقيم ؟

أدهشه السؤال ، ولكنه أجاب فى سرعة :

— فى سراى والدى ، فى قريتنا .

رفعت حاجبها ، هانفة فى دهشة :

— سراى ؟! .. إذن فأنت أحد أعيان الريف .

ثم رسمت على شفيتها ابتسامة ساحرة ، وهى تستطرد :

— ولماذا لا تقيم فى (القاهرة) ؟

نعم وكأنما لم تخطر الفكرة بباليه أبداً :

— هنا ؟

مالت نحوه ، وهى تقول فى همس :

— سيكون هذا أفضل ، فلو أنك تقيم هنا ، فسيمكننا أن نلتقى فى شقتك .

خفق قلبه ، وهو يقول :

— حقاً ؟!

ازداد ميلها نحوه ، حتى شعر بأنفاسها العطرة تملأ أنفاسه ، وهى تهمس :

— أليس هذا أفضل من اللقاء هنا ؟

همس وقلبه ينبض فى عنف :

— بالتأكيد .. لقد حسمت قضية تشغل فكرى منذ زمن .

وضرب سطح المنضدة فى رفق ، مستطرداً فى حزم :

— سأترك القرية ، وأحيا هنا ، فى (القاهرة) ..

وبدأت ملامح العهد الجديد تتضح ..

رفع (رفعت كساب) عيه إلى (حسين) ، وتطلع إليه طويلاً ، قبل أن ينسم قائلاً :

— تقيم في (القاهرة) ؟ .. بالطبع .. هذا ما كان ينبغي لك أن تفعله منذ البداية .. ماذا ستفعل في قريتك الصغيرة ؟ .. المستقبل هنا .. في قلب الثورة . ونهض في حزم ، مستطرذاً :

— سنبحث لك عن شقة أنيقة واسعة ، تليق بك ومنصبك الجديد .. مارأيك في شقة على النيل ، في (جاردن سيتي) ؟

لم يصدق (حسين) أذنيه ، وهو يهتف :

— هذا أروع مما تصورت ياسيدى .

قال (رفعت) في حماس :

— فليكن .. لقد أمرت الثورة بترحيل صحفي أرمنى خارج البلاد ، وشقته خالية في الوقت الحاضر ، ويمكنك أن تسلمها من الغد .

هتف (حسين) في امتنان بالغ :

— كيف أشكرك ياسيدى ؟ .. كيف ؟

رفع (رفعت) سبابته أمام وجهه ، محذراً :

— ستدفع إيجارها بالطبع .

ضحك (حسين) ، وهو يقول :

— بالطبع .

ابتسم (رفعت) ، وهو يقول :

— بالمناسبة ، هناك شكوى مقدمة ضدك .

عقد (حسين) حاجبيه ، وهو يسأله في دهشة :

— ضدى أنا ؟

ضحك (رفعت) ، قائلاً :

— لا تقلق هكذا .. إنها شكوى تافهة ، قدمها زوج شقيقتك (عمر) إلى (محمد نجيب) نفسه ، يقول فيها إنك قد استوليت على ميراث والدك كله لنفسك ، ويطالب بالعدل والإنصاف .

هتف (حسين) في غضب :

— ذلك الحقير !! لقد كتب والدى الأرض كلها باسمي قبيل وفاته .

أجابه (رفعت) في هدوء :

— أعلم ذلك ، ولكن أحد المخامين الكبار يقول : إنه لو استطاع أشقاؤك إثبات أن عقد البيع صوري ، وأنت لم تملك أبداً ما يكفي ثمناً للأرض ، فيمكنهم استصدار حكم بعدم صحة البيع ، وتوزيع الميراث شرعياً !

اندهش (حسين) لحظات ، ثم قال في عصبية :

— هذا لو وصل الأمر إلى القضاء .

اتسعت ابتسامة (رفعت) ، وهو يقول :

— لقد وصل .

حدق (حسين) في وجهه بدهشة ، فاستطرد :

— لقد رفع (عمر) قضية بهذا الشأن صباح اليوم .

هتف (حسين) :

— كيف عرفت ذلك ياسيدى ؟

رفع (رفعت) حاجبيه ، هاتفاً :

— كيف عرفت ؟ .. ياله من سؤال يا (حسين) ! .. أنسيت أنك تتلقى

تدريبات في هذا الشأن ؟ .. في فن المعرفة .

ثم (حسين) :

— بالتأكيد .

ثم استطرد في توتر وقلق :

— ولكن ماذا أفعل لو أن (عمر) استصدر قرارا بإلغاء البيع ؟

ابتسم (رفعت) ابتسامة غامضة ، وقال :

— لن يفعل .

— قال (حسين) :

— كيف ؟ .. إنه رجل شره للمال ، وشديد العناد ..

قاطعه (رفعت) مبتسما :

— دع لي هذا الأمر .. وسيتازل (عمر) عن القضية .

ثم أشعل سيجارته ، مستطردا في غموض :

— لن يكون أمامه سوى أن يفعل ..

واتسعت ابتسامته ..

تابع (مفيد) بعينه شقيقه (حسين) ، وهو يعد حقائبه ، للانتقال إلى شقته

الجديدة في (القاهرة) ، وقال في ضيق :

— إنك تترك أمورا خلفك بلا حسم يا (حسين) .

قال (حسين) في برود :

— كل الأمور يمكن حسمها ، ثم إنني لست ذاهبا إلى القمر .. إنها

(القاهرة) فحسب .

— وماذا عن زواج (زينب) ؟

— هذا ال (ماهر) لا يروق لي .

— ولكن والدنا (رحمه الله) وافق على زواجها منه .

— فليكن .. لتزوجه ، لو أنه يحلو لها .

— بهذه البساطة ؟

— أنتخب من ألبا إلى التعقيدات ؟

— لا .. وبالمناسبة ، لقد عرضت (حافظ) على طبيب .

التفت إليه (حسين) في حدة ، عندما بلغ هذه النقطة وهتف مستكبرا :

— طبيب ؟ .. ألم تناقش هذا الأمر من قبل ؟

تجاهل (مفيد) ذلك السؤال الاعتراضي ، وأكمل :

— والطبيب يقول إنه مصاب بانهايار عصبي تام ، وبانفصام شخصية وقتي ،

بسبب عجزه عن تقبل الأمر الواقع ، وصراع رغباته مع واقعه ، ويؤكد الطبيب

ضرورة نقله إلى مستشفى الأمراض النفسية لعلاج ..

قاطعه (حسين) في صرامة :

— لن يذهب .

قال (مفيد) في حدة :

— سيصاب باكتئاب تام لو لم يذهب ..

هتف (حسين) في غضب .

— قلت لك إنه لن يذهب .. لن يردد خصومي أبدا أن شقيقي مجنون .

صاح (مفيد) :

— في هذه الحالة سأذهب أنا معه .

انتزع (حسين) مسدسه من سترته ، وهو يقول في غضب صارم :

— عندئذ أفضل أن أقتله .

وكان (مفيد) يعلم أن (حسين) قادر على فعلها حقا ..

ودون تردد ..

أدارت (عائدة) عينها في أرجاء شقة (حسين) الفاخرة ، وهي تقول في

لامبالاة :

— جيدة إلى حد ما .

هتف (حسين) في حماس :

— إننى أراها رائعة .

ابتسمت في سخرية ، وهي تقول :

— من الطبعي أن تراها أنت كذلك .

ضغطت في قرة حروف لفظ (أنت) ، إلا أنه لم يتجه إلى المعنى الذى

تقصده ، وهو يضع يديه على كفتيها من الخلف ، قائلاً في هيام :

— أخيراً أصبحنا وحدنا .

قالت دون أن تلتفت إليه :

— أخيراً .

وانتهت في هدوء نحو مقعد وثير ، وتركت جسدها بغوص فيه ، وهي

تسأله :

— قل لي يا (حسين) : ألم تغادر (مصر) أبداً ؟

جلس على المقعد المجاور لها ، وهو يقول :

— لست أشعر بالرغبة في هذا .

قالت في حماس :

— خطأ يا (حسين) .. إنك لم تر (أوروبا) .. قارة الجمال .. لو أنك

رأيت (باريس) مرة واحدة فستعشقها إلى الأبد ، ولو أنك شاهدت (روما)

وآثارها ومتاحفها ، فستسجد لها طيلة العمر ، ولو أنك ..

قاطعها في ضجر :

— ولكننى أحب (مصر) .

مطت شفيتها في ازدراء ، وقالت :

— تحبها ؟! .. حبها كما يحلو لك ، ولكن سافر لترى الدنيا .

ثم غاصت أكثر في مقعدها ، واتممت عيناها ببريق خاص ، وهي تضيف :

— أم أنك تعجز عن الحصول على تصريح سفر خاص ؟

أشار إلى صدره ، وهو يقول في زهو :

— أنا ؟! .. إننى أسافر وقتما أشاء .

اتممت عيناها مرة أخرى ، ونهضت من المقعد ، وجلست على مسند

مقعده ، ومالت برأسها نحوه ، وهي تقول هامسة :

— كم أتمنى لو نذهب إلى (باريس) معاً .. إلى عاصمة الفن والحب

والجمال .. هناك تتألق المشاعر ، و.....

قاطعها في لهفة :

— هنا أيضاً تتألق المشاعر .

أطلقت ضحكة عابثة طويلة ، وقالت :

— لا .. (باريس) شئ آخر .

هم بتطويق خصرها بذراعها ، عندما ارتفع فجأة رنين جرس الباب ،

فأجفلت هاتفة :

— هل تنتظر أحداً ؟

هز رأسه نفيًا ، وقال :

— مطلقاً .. لا ريب أنه زائر للساكن السابق .. لم يعلم بأمر ترحيله بعد .

قالت في قلق :

— من الأفضل أن نخطأ .. سأخفى في حجرة النوم .

قال وهو يتجه نحو الباب :

— هذا أفضل بالفعل .. اذهبي .

أغلقت خلفها باب حجرة النوم ، في حين اتجه هو إلى الباب ، وفتحته ..

وتجمدت الدماء في عروقه ..

لقد وجد أمامه آخر شخص يحب أن يراه ، في هذه اللحظة بالذات ..

وجد أمامه (إبراهيم) ..

الصاغ (إبراهيم مكى) ...

كان (إبراهيم مكى) هو آخر شخص يتوقع أو يتمنى (حسين) رؤيته ، وخاصة في مثل هذه الظروف ، حتى أنه بقي يحدق طويلاً في عيني (إبراهيم) ، الشبهتين بعيني ثعلب ماكر ، قبل أن يقطع (إبراهيم) جبل الصمت ، قائلاً في هدوء خبيث :

— ألن تدعوني للدخول ؟

تراجع (حسين) مفسحاً الطريق له ، وهو يغمغم مسلوب الإرادة :
— بالطبع .. تفضل .

خطأ (إبراهيم) داخل المنزل في بطاء ، وراح يدير عينيه في المكان ، قبل أن يقول بابتسامة غامضة ، لم يرتح لها قلب (حسين) أبداً :

— شقة رائعة .. أنت حسن الحظ بحق .

سأله (حسين) بصوت مخنق :

— كيف علمت بأمر الشقة ؟

اتسعت ابتسامة (إبراهيم) ، وهو يقول :

— ياله من سؤال !.. إننى أنا اخترتها لك .

هتف (حسين) في ذهول :

— أنت ؟

قال (إبراهيم) في هدوء ، وهو يواصل تأمل الشقة :

— بالطبع .. لقد طلب منى (رفعت) بك أن أبحث عن شقة لك ، حتى

تقيم هنا في (القاهرة) ، من قبل حتى أن تطلب أنت منه ذلك ، ولما كان ذلك الأمرنى ، صاحب الشقة ، رجلاً مترمناً سخيلاً ، يصر على تعليق صورة الملك

السابق في صدر ردهة منزله ، على الرغم من قيام الثورة ، فقد قمنا بترحيله ، وبقيت الشقة لك .

وبدا مزيج من الحث والسخرية في صوته وابتسامته ، وهو يدير عينيه إلى (حسين) ، مستطرداً :

— لقد كنت أتوقع منك شكراً لهذا .

تمم (حسين) مرتبكاً :

— إنك تستحقه بالتأكيد .

أدار (إبراهيم) عينيه في الشقة مرة أخرى ، ثم قال في هدوء :

— أتعلم أنها أول مرة أرى الشقة ، على الرغم من كل هذا ؟

واتجه بفتة نحو حجرة النوم ، التى تختبئ داخلها (عايدة) ، وهو يستطرد :

— هذه حجرة النوم .. أليس كذلك ؟

تجمد (حسين) في مكانه ، واتسعت عيناه في ذعر ، واحتبست الكلمات

في حلقه ، عندما امتدت يد (إبراهيم) إلى مقبض باب حجرة النوم ..

ماذا لو فتح الباب ، ووجد (عايدة) أمامه ؟ ..

ماذا يمكن أن يفعل ؟ ..

وماذا يكون موقفه هو ؟ ..

بل ما موقف (عايدة) ؟ ..

تلاشت مخاوفه وأفكاره دفعة واحدة ، عندما تراجعت يد (إبراهيم) بفتة

عن مقبض الباب ، وهو يقول مبتسماً :

— لا .. ليس من اللائق أن يشاهد المرء حجرة نوم آخر .

ووقف يتطلع إلى الشقة مرة أخرى ، قبل أن يدير عينيه إلى وجه (حسين)

الشاحب ، ويقول :

— مبارك .

تمم (حسين) في صعوبة :

— شكراً لك .

اتسعت ابتسامة (إبراهيم) أكثر وأكثر ، وخيل لـ (حسين) أنها تحمل
حبث الدنيا كلها ، فقال محاولاً إخفاء توتره :

— هل تناول شيئاً ؟

لوح (إبراهيم) بكفه ، قائلاً :

— لا .. إننى مرتبط بموعد هام .. لقد أتيت لتهنتك فحسب .

وانجه إلى الباب فى خطوات سريعة ، مستطرداً :

— سنلتقى فى المكتب .

تنفس (حسين) الصعداء ، وهو يقول :

— بإذن الله .

كان يشعر بارتياح شديد ، لأن (إبراهيم) سينصرف ، دون أن ينتبه إلى
وجود (عائدة) ، إلا أن ارتياحه هذا لم يلبث أن تحول إلى دعر هائل ، عندما
توقف (إبراهيم) فجأة ، بعد أن فتح الباب ، وقال وهو يتسم فى حبث
ساحر :

— لا تنسى أن تبلغ نحياتي إلى الأميرة (عائدة) .

جف لعاب (حسين) ، وشحب وجهه وهو يتمم :

— (عائدة) ؟

قال (إبراهيم) بنفس اللهجة الساخرة الحبيثة :

— نعم .. إنك لن تبدل جهذا فى البحث عنها لإبلاغها ، فهى هناك ، فى

حجرة نومك .

ثم أطلق ضحكة عالية ساحرة ، وهو يفلق الباب خلفه ، تاركاً (حسين)
وقد تجمدت الدماء فى عروقه ، وفى نفس اللحظة اندفعت (عائدة) ، خارج

حجرة النوم ، وهى تقول فى غضب :

— يا للوغد !

هتف بها (حسين) فى شحوب :

— ولكن كيف عرف ؟

انجهت نحو البار الصغير ، الذى يحتل ركناً من الردهة الكبيرة ، والنقطة
زجاجة حمراء فى عضية ، وضبت بعضاً من محتوياتها فى كأس ، وهى تقول :

— كان يراقبك بالتأكيد .

وجرعت الكأس دفعة واحدة ، فازدادت بشرتها احمراراً ، وهى تستطرد :

— إنه وغد حقيقى .

ألقي (حسين) جسده على أقرب مقعد إليه ، وهو يتمم منزعجاً :

— يا إلهى !.. إذن فقد علموا .. ماذا سأفعل ؟

صرخت به فى غضب :

— ماذا دهالك ؟.. إنه لم يضبطك مع عاهرة محترفة .. إننى أميرة .

تطلع فى صمت إلى جمالها الفتان ، وإلى الكأس فى يدها ، والسيجارة التى
أشعلتها فى عضية ، وذلك الثوب الرائع الذى ترتديه ، والذى يساوى ثمنه راتبه
فى شهرين كاملين ، ثم أطلق من أعماق صدره تنهيدة حارة ، قبل أن يشيح
بوجهه ، متمتماً :

— من يدري ؟.. ربما كانت العاهرة أفضل ، فى هذه الأيام .

تقاقر الغضب من كل خلية من خلاياها ، وهى ترمقه بنظرة قاسية ، قبل أن
تقول فى ازدراء :

— يالك من وقح !

وملأت كأسها مرة أخرى فى عضية ، ونفثت دخان سيجارتها فى حدة ،
وهى تستطرد :

— ولكنها مرحلة .. مرحلة مؤقتة .

رفع عينيه إليها ، وهو يسألها :

— ماذا تعين بأنها مرحلة مؤقتة ؟

جرعت الكأس دفعة واحدة كعادتها ، وقالت ووجهها يندو أشد فتنة ، مع تلك السحابة الحمراء ، التي تسلت تحت بشرتها :

— هل قرأت تاريخ الثورة الفرنسية ؟.. لقد ثار الرعاع أيضا ، وبلغوا مقاعد الحكم ، وأعدموا الملك والملكة ، إلا أنهم لم يلبثوا أن انقلبوا على بعضهم البعض ، والتهمت الثورة أبناءها ، وعادت الملكية .. بل الإمبراطورية .

سألها في توتر :

— وهل تتوقعين أن يحدث هذا هنا ؟

نفثت دخان سيجارتها في قوة ، وقالت بالتماعة عين أثارت قلقه :

— بالتأكيد .

خامره شعور قوى بالقلق ، وتساءل عن مصيره لو حدث هذا بالفعل ، إلا أنه لم يلبث أن طرد كل هذا من ذهنه ، وهو يقول في عصبية :

— ليست هذه هي المشكلة الآن ، المشكلة الحقيقية هي أن (إبراهيم مكى) هذا مجرد وغد ، يسعى للإيقاع بي ، وتدميري ، وسيجد في وجودك هنا فرصة مثالية لذلك ، وسيلبغ (رفعت) بك ، و.....

قاطعته في حزم :

— اطمئن .. إنه لن يفعل .

قال في حدة :

— ولماذا لا يفعل ؟

ابتسمت ابتسامة خبيثة ، وهي تقول :

— لأنه لا يسعى لتدميرك كما تظن .

ونفثت دخان سيجارتها مرة أخرى في عمق ، قبل أن تضيف :

— بل للسيطرة عليك .

ردد مبهوئا :

— السيطرة ؟!

أطلقت ضحكة عابثة طويلة ، وكأنما راقى لها سذاجته ودهشته ، وانجهت نحوه ، وألقت كفيها الرقيقتين على كتفيه ، ومالت بوجهها نحوه ، وهي تقول :



— دعك من هذا الآن .. إنك مجرد ضابط صغير ، لن تلبث أن تدرك تلك الألعاب فيما بعد ، أما أنا ، فقد تربيت في أحضان المكائد والدسائس ، وفي أروقة قصر ، يسعى كل من فيه للسيطرة على الآخر ، ولا تقلق ، سأمنحك كل خبرتي ، و.....

مالت أكثر ، وصار صوتها همسا ، وهي تضيف :

— وحي .

خفق قلبه في وله ، وهتف وهو يحاول ضمها إليه :

— متى ؟

أطلقت ضحكة عابثة أخرى ، وأفلتت من بين ذراعيه في خفة ، والتقطت كأسها مرة أخرى ، ورفعتها عالية ، وهي تقول :

— في (باريس) .

وفي تلك اللحظة انتبه (حسين) إلى أن عيني (عائدة) تحملان شيئا شبيها بعيني (إبراهيم) ..

انتبه إلى أن كليهما يحمل عيني ثعلب ..

بكت (زينب) في حرارة ، بين ذراعى شقيقها الأصغر (مفيد) ، وهي تقول بقلب كسير :

— لا يا (مفيد) .. لا تقل هذا .. لا تقل إن (حافظ) قد صار مجنوناً .

ربت (مفيد) على ظهرها في حنان ، وهو يقول في مرارة :

— هذا ما قرره الأطباء يا (زينب) ، ولا حيلة لي في هذا ، ثم إنه ليس مجنوناً .. إنه مصاب فقط بانهايار نفسى حاد ، ونوع من انفصام الشخصية ، ويحتاج إلى دخول مصحة نفسية للعلاج ، و.....

دفعت جسدها عنه ، وهي تهتف :

— مستشفى مجاذيب ؟! .. لا .. مستحيل !

قال في ضيق :

— لو أن هذا في صالحه فمن الضروري أن ..

قاطعت صارخة :

— لا .. لن يذهب أخى إلى مستشفى مجاذيب إلا على جثى .

هتف (مفيد) في صرامة :

— ولكن هذا أمر محتم ، وكل الأطباء يصرون على أنها الوسيلة الوحيدة

لعلاجه .

قالت في صرامة شديدة :

— قلت لا .

ثم أشاحت بوجهها مستطردة :

— لن يغادر أخى هذا المنزل .. سنعالجه هنا .

واستدارت إليه تهتف كنمرة شرسية :

— مهما كان الثمن .

زفر (مفيد) في يأس ومرارة ، وقال :

— أرجوك يا (زينب) ، ليس هذا وقت العناد .

هتفت في حدة :

— قلت لا .

ثم استطردت في حزم :

— سأتصل بـ (حسين) في (القاهرة) ، وأطلب منه أن يفعل شيئاً .

قال في سخرية تحمل الكثير من المرارة :

— (حسين) ؟! .. لم يعد (حسين) بك متفرغاً لنا .. لقد صار واحداً من

رجال الحكم .. إنه حتى لم يمنحنا عنوان شقته الجديدة في (القاهرة) .

قالت في عناد :

— ولكنه يمتلك سلطات واسعة ، ويمكنه أن يفعل الكثير .

هز كتفيه قائلاً :

— ربما .

ودون أن يضيف كلمة أخرى ، استدار وانصرف إلى حجرته ، وكأنما أعياه

اليأس من محاولة شفاء شقيقه ..

وفي أعماقه ، كان (مفيد) يعلم أن شفاء (حافظ) شبه مستحيل ..

ليس لأن مرض (حافظ) من نوع غير قابل للشفاء ، وإنما لأن (حافظ)

نفسه شخص غير قابل للشفاء ، بكل ما يملأ نفسه من ضعف وتحاذل

واستكانة ..

إنه يختلف كثيراً عنه ، وعن (حسين) ..

ولكن ما العجب في هذا ؟ ..

إنه و (حسين) يختلفان تمام الاختلاف ، فلماذا لا يختلف (حافظ) عنهما ؟ ..

مرح مع محاولة عقد المقارنات بينه وبين (حسين) و (حافظ) ، حتى سمع

دقاً على باب حجرته ، أعقبه صوت شقيقته (ناهد) ، تقول :

— (عمر) يريدك يا (مفيد) .

اعتدل وهو يسألها :

- استقبل (رفعت كساب) (حسين) بابتسامة مريحة واسعة ، وهو يقول :
 — أهلاً يا (حسين) .. يبدو أنك تثير حولك عادة الكثير من المشاكل .
 هوى قلب (حسين) بين قدميه ، وهو يقول :
 — مشاكل ١٢ .. أية مشاكل يا سيدى ؟
 لوح (رفعت) بكفه ، قائلاً :
 — لقد اتصل بى (محمد نجيب) بشأنك هذا الصباح .
 ردد (حسين) ، وقد تضاعف ذعره :
 — اللواء (محمد نجيب) بنفسه ١٢ ؟
 ضحك (رفعت) ، وهو يقول :
 — نعم .. هو نفسه .. تصور .. لقد أبلغنى أنه غاضب بشأن مسألة عائلية تخصك .
 قال (حسين) فى دهشة :
 — مسألة عائلية ١٢ ؟
 أجابه (رفعت) ، وهو يواصل ضحكه :
 — نعم .. لقد التقى به زوج شقيقتك (نعيمة) ، وشكا له أمر أرض والدك ، التى منحك إياها بعقود بيع ، وطلب منه أن يتدخل لتطبيق الشرع .
 غمغم (حسين) فى توتر :
 — لم أتصور أن يبلغ هذا المدى !
 لوح (رفعت) بكفه مرة أخرى ، وهو يقول :
 — دعك منه .

- (عمر) من ؟
 كررت ضاحكة :
 — (عمر) من ١٢ .. (عمر) زوج (نعيمة) بالطبع .. هل نسيته ؟
 ابتسم وهو يفتح الباب ، متمتماً :
 — معذرة .. كنت شارد الذهن فحسب .
 ربت على كتفه ، قائلة فى إشفاق :
 — كان الله فى عونك .
 هبط إلى حجرة استقبال الضيوف فى الطابق السفلى للسراى ، ورأى (عمر) يجلس والغضب يملأ ملامحه ، فسأله مبتسماً :
 — ماذا أصابك ؟
 أجابه (عمر) فى جفاء :
 — أتيت فقط لأخلص ضميرى .
 سأله (مفيد) ، والابتسامة لم تفارق شفاهه بعد :
 — من ماذا ؟
 أجابه (عمر) فى صرامة :
 لقد شكوت شقيقكم (حسين) .. أعلم أنه يظن نفسه فوق المستولية ، ولكننى لن أتنازل عن حق زوجتى فى ميراث أبيها ، ولقد رفعت الأمر للقضاء كما تعلم ، ولكننى لم أكتف بذلك ، لقد شكوت (حسين) للشخص الوحيد الذى يمكنه أن يتزع لى حقى منه .
 وانتفضت أوداجه ، وهو يستطرد فى زهو :
 — اللواء (محمد نجيب) نفسه .
 وأدرك (مفيد) لحظتها أن المعركة ستحتدم ..
 ستحتدم كثيراً ..

قال (حسين) في تردد :

— ولكنه شكاً الأمر لقائد الثورة نفسه .

أطلق (رفعت) ضحكة عالية ، وهو يقول :

— قائد الثورة ؟ لا .. اطمئن .. صحيح أن (نجيب) هو الأكبر منا

ورتبة ، ولكنه ليس قائد الثورة .

واعتدل فجأة ، مستطرذا :

— ثم إنني وعدتك بإنهاء هذه المسألة تماماً .

غمغم (حسين) :

— نعم ياسيدى .. لقد وعدتني .

اعتدل (رفعت) في مجلسه ، واتسم وهو يقول :

— ألم تفكر بعد في دعوتنا إلى تلك السراى ، في قريتك ؟

هتف (حسين) بذلك الكرم القطرى في أعماقه :

— على الرحب والسعة دوماً ياسيدى .

غمز (رفعت) بعينه ، وهو يقول :

— كنت أقصد مجلس قيادة الثورة كله ، بكل ما سيتكلفه ذلك من طيور

مذبوحة وفطائر ريفية ، و.....

كرر (حسين) في حسم :

— الجميع على الرحب والسعة ياسيدى .

أطلق (رفعت) ضحكة ارتياح ، وهو يقول :

— تماماً كما يقولون عنك يا (حسين) .. كريم ومندفع .

تمتم (حسين) في شيء من الحياء :

— إننى لأفعل أى شيء من أجلك ياسيدى .

ارتسمت ابتسامة واسعة على شفتي (رفعت) ، وغمز بعينه ، قائلاً في خبث :

— من أجل وحدى ، أم من أجل الأميرة (عائدة) أيضاً ؟

شحب وجه (حسين) ، وارتبك في شدة ، وهو يقول :

— سيدى .. اسمح لى أن أشرح الأمر ، ولا تصدق ما أخبرك به الصاغ

(إبراهيم مكى) ، و.....

قاطعه (رفعت) بضحكة مجلجلة ، وهو يقول :

— لا يا (حسين) .. لم يخبرنى (إبراهيم مكى) بأى شيء ، ولم تكن هناك

حاجة إلى أن يخبرنى ، فنادى الجزيرة كله يعلم بأمر علاقتك مع الأميرة

(عائدة) ، كما يعلم بأمر علاقة (صلاح سالم) بالأميرة (فوزية) ..

ثم مال نحوه ، مستطرذا :

— وهذا الأمر لا يدعو للقلق ، فأنت شاب وسيم ، وهى شابة فاتنة ..

وأطلق ضحكة أخرى ، قبل أن يستطرد :

— ثم إن هذا هو تحالف قوى الشعب العاملة .. أليس كذلك ؟

انطلق يضحك في مرج ، وكأنما راقى له دعابته ، في حين تمتم (حسين) في

مرج من الدهشة والحيرة ، وهو الذى لم يتوقع أبداً أن يمر الأمر بهذه السهولة :

— بالطبع ياسيدى .. بالطبع .

ربت (رفعت) على كفه في قوة ، وقال :

— هيا .. أمرح وتمتع بشبابك كما يجلبو لك ، ولكن حاول ألا تتورط كثيراً .

سأله في ارتباك :

— ماذا تعنى ياسيدى ؟

أجابه ضاحكاً :

— أعنى أنها تزورك كثيراً في شقتك .. أليس كذلك ؟

هتف (حسين) :

— بلى ، ولكن أقسم لك إن علاقتنا لا تتجاوز ...

قاطعه ملوفاً بكفه :

— هذا أمر يخصك وحدك يا (حسين) .

ثم عاد يجلس خلف مكتبه ، ويسأله في بساطة :
— والآن .. متى تدعوننا لتناول فطائركم الريفية ؟

غذا ١٢ ..

هتف العمدة بالكلمة في دعر ، قبل أن يستطرد متوترا :
— هل تحدث جازا يا جناب الأمور ؟ .. هل يأتي مجلس قيادة الثورة كله إلى هنا غدا ؟

ضرب الأمور خده بأطراف أصابعه ، وهو يقول في غبط :

— وهل يصح الهذر في مثل هذه الأمور يا عمدة ؟ ..

أقول لك إن إشارة عاجلة قد وردت من الرئاسة في (القاهرة) ، تقول : إن مجلس قيادة الثورة مدعو لتناول طعام الغداء هنا ، في سراي (البهاوي) ، وتطلب تأمين أقصى حماية ممكنة ، على الرغم من وجود ثلة من الحرس معهم .

وضرب خديه بكفيه ، مستطردا في مرارة :

— أريت أي شأ وبلغ ابن (البهاوي) يا عمدة ؟

عقد العمدة حاجبيه ، ومط شفته في غضب ، وهو يقول :

— ياله من زمن !

هتف الأمور :

— ونحن الذين كنا نأمل في تحطيم أسرة (البهاوي) كلها .

قال العمدة في صرامة :

— من قال إن هذا لن يحدث ؟

وماه الأمور بنظرة قاسية غاضبة ، وهو يقول :

— كفالك يا عمدة .. كفالك الحديث بلا عمل .. إنني لن أصدقك بعد الآن ،

ولن أعتمد عليك .. لقد أوهمتني من قبل أن حركة الجيش هذه مجرد حركة مؤقتة ،

يعود بعدها الجيش إلى ثكناته ، ثم هاهم أولاء يحكمون البلاد كلها ، و.....

قاطعه العمدة في خبث :

— وهل أنا قاري للغيب يا جناب الأمور ؟

— هتف الأمور :

— بل أنت مخطط فاشل .

ضرب العمدة صدره براحته ، وهو يقول :

— أنا يا جناب الأمور ١٢ .. على العكس .. إن خططي كلها تسير على خير

مايرام ، ولكن القدر يتدخل لإفسادها .

وعاد يتسم بنفس الحيث ، مستطردا :

— ولكن دوام الحال من المحال .. لن يبقى الأمر على ما هو عليه إلى الأبد ..

لن يلبث حظ آل (البهاوي) أن يتبدل ، وعندئذ سنضرب ضربتنا .

هتف الأمور في لهفة :

— حقا يا عمدة .

اتسعت ابتسامة العمدة ، حتى كادت تلتهم وجهه كله ، وهو يقول :

— بالتأكيد يا جناب الأمور .. إن اللعبة لم تنته بعد ، وعندما تنتهي لن نكون

نحن الخاسرين .. بل هم .. وسنمحو اسم (البهاوي) من خريطة الزمن ..

وإلى الأبد ..

لم تكد (مديحة) تلمح (مفيد) ، وهو يقترب من الشجرة الكبيرة ، حتى

خفق قلبها في قوة ، وارتفع حاجباها في حنان ، وهي تهتف :

— (مفيد)

قطع الأمتار الباقية في ثلاث خطوات ، واختطف كفها في راحتيه ،

واحضنها بكل لهفة ، وهو يملأ عينيه بجمال عينيها ، هامسا :

— (مديحة) .. لقد أوحشتني كثيرا .

تمتمت وهي تشيح بوجهها حياء :

— أنت الأكثر .
جلسا في صمت عند جذع الشجرة الكبيرة ، وراحته مائتالان تحتضنان
كفهما ، ولفهما الصمت طويلا برداء وردى محملى هادى ، وعيونهما تطلق
حوارا عاشقا بريئا ، قبل أن يغمغم هو :
— صرت أكثر جهالا يا (مديحة) .

تمتت في حياء :
— وأنت صرت أكثر رجولة بشاربك هذا .
ابتسم قائلا :

— هل يعلم عم (إسماعيل) أنك هنا ؟
قالت هامة :

— لا .. خشيت أن أخبره فيرفض .
تهدد في عمق ، وقال :

— إنه محق في غضبه .
ثم التفت إليها ، مستطرذا :

— اسمعى يا (مديحة) .. لقد نلت شهادة البكالوريا كما تعلمين ، وقررت
الالتحاق بكلية التجارة في (القاهرة) ، فما رأيك لو نتزوج ، وتذهبين معى إلى
هناك ؟

رقص قلبها الصغير فرحا ، وأشاحت بوجهها في حياء ، وهى تهمس :
— هل تسألنى يا (مفيد) ؟

تهللت أساريره ، وهو يقول في حماس :
— سأخير (حسين) غدا .

ترددت لحظات ، ثم قالت :

— ولكن والدى يقول إنه من الأفضل أن نؤجل الأمر قليلا .
سألها في دهشة :



— لماذا ؟

أجابته بكلمة مقتضبة :

— التقاليد .

سألها في حيرة :

— أية تقاليد ؟

قالت في ضيق :

— تقاليد القرية ، التي تحم أن يمر عام على الأقل ، على وفاة والدك الحاج (محمد) — رحمه الله — قبل أن تتقدم لخطبتي .

قال في حدة :

— وماذا يضير والدي ، لو أننى خطبتك الآن ؟ لقد انقطعت علاقته بالدنيا منذ وفاته .

غمغمت :

— والدي شديد التمسك بالتقاليد .

ثم ربت على كفه في حنان ، مستطردة :

— ثم إنه لن يضيرنا أن ننتظر حتى يمضى العام .

شرد ببصره طويلاً ، يتطلع إلى النجوم ، قبل أن يتمم :

— لا بأس .. لكل شيء أوانه .

ران عليهما الصمت لحظات أخرى ، ثم سأله في اهتمام :

— قل لى يا (مفيد) .. أصحيح أن مجلس قيادة الثورة كله سيتناول طعام

الغداء لديكم غدا ؟

أجابها وهو لم يفارق شروده بعد :

— نعم .. هذا صحيح .

ثم التفت إليها ، مستطرداً في ضيق :

— أتعلمين كم كلفنا هذا من جهد ومشقة ، إلى جانب المال ؟

تمتمت :

— ما زلت قادرين يا (مفيد) .

قال بنفس الضيق :

— ماديا نعم ، ولكن (حسين) فاجأنا بالخير ، ولم يحدد حتى عدد المدعوين ، لذا فقد قامت شقيقاتي بذبح كميات هائلة من مختلف أنواع الطيور ، وهن ينهمن في تنظيفها وطهوها ، إلى جانب مقادير ضخمة من الأرز والخضراوات ، والفطائر التي طلبها (حسين) ولست أظنهم ينتهون منها قبل صباح الغد .

تمتمت على استحياء :

— يمكننى أن أذهب لمعاونتهم .

ابتسم وربت على كفها ، قائلاً :

— لا عليك .. (فاطمة) ابنة عم (عبد الحميد) تعاونهم .

قالت مشفقة :

— فتاة طيبة (فاطمة) هذه ، ولكنها تفتقر إلى الجمال ، ثم إن صوتها الأجش يذكرنى بالرجال .

ضحك ضحكة قصيرة للغاية ، وهو يقول :

— المهم أن تحيد التنظيف والطهو .

ثم زفر في قوة ، وأضاف :

— ولكن (شريفة) و (ناهد) لن يعجبهما طهو أية مخلوقة ، مهما بلغت براعتها ، فهما شديدتا التزمت في هذه الأمور .

وابتسم في شرود مستطرداً :

— على الرغم من أن (شريفة) هى أشد المتحمسات لتلك الدعوة ، ربما لأنها ستضم أشهر رجال في البلاد الآن .

قالها دون أن يدري أن تلك الدعوة ستكون سبباً في تغيير حياة (شريفة) ..

(شريفة) بالذات ..

كان يوماً مبهرًا ، تحدثت عنه القرية لسنوات تالية ، وارتفعت فيه هامة أسرة (البنهاوى) عاليًا ، بعد أن توافد رجال مجلس قيادة الثورة ، في زعيم العسكرى ، داخل عربات حربية ، وامتلات بهم ردهة السراى ، وراح (عبد الحميد) و(إسماعيل) يخدمان الحاضرين في حماس وسعادة ، وهما يشعران بالفخر والزهو ، لأنهما يقومان على خدمة أبطال الساعة ، في حين التف أهل القرية حول السراى ، يطلقون صيحات الفرح ، ويخدمون الحراس التابعين لرجال الثورة بكل الإخلاص والسعادة .

كان عيداً للقرية الصغيرة ، ولأسرة (البنهاوى) بالذات .. وعلى الرغم من خلافه مع (حسين) ، استقبل (مفيد) رجال الثورة بكل الترحاب والحرارة والاعتزاز ، وقدم لهم (عبد الحكيم) زوج (توحيدة) ، و(ماهر) خطيب (زينب) في فخر ، في حين لم يحضر (عمر) الوليمة ، بعد أن علم أن (محمد نجيب) بالذات لم يقبل الدعوة ؛ بسبب خلاف مبهم بينه وبين بعض رجال مجلس قيادة الثورة ، الذين بدوا غاية في المرح والبساطة في ذلك اليوم ، فيما عدا (جمال عبد الناصر) ، الذى اكفى كعادته بابتسامة رصينة هادئة ، وبعبارة واحدة ، سأل بها (حسين) :

— يبدو أنك أرسقراطى المنشأ . أليس كذلك ؟

أجابه (حسين) في زهو :

— بل كان والدى مكافحاً بحق .. لقد نشأ من الصفر ، وصنع كل هذا بكده وعرقه .

رفع (جمال) حاجبيه ، وهو يقول في إعجاب :

— حقاً .. إنه لرجل عظيم إذن .. أقصد كان كذلك (رحمه الله) .

وبعدها لم يشارك (جمال) في الحديث ، ولا في الدعابات التى تبادلها الرجال ، مع بعضهم البعض ، وهم يتناولون طعام الغداء ، أو يشربون أقذاح الشاي والشراب المثليج ، ولقد أبدى الجميع إعجابهم بالسراى ، وبعائلة (البنهاوى) ، وجذب (مفيد) انتباههم برشاقة أسلوبه ، وبساطته الخفية ، ورصانته التى تفوق سنوات عمره بكثير ، وعند انصرافهم ، مال (رفعت) على أذن (حسين) وهو يصافحه ، وقال :

— أهنتك .. كانت زيارة ناجحة للغاية ، توقع ترقية قريباً .

غمغم (حسين) ، وهو يكاد يطير من فرط السعادة :

— كان شرفاً عظيماً لنا وللقرية كلها ياسيدى ، وكنت أتمنى لو اكتمل فرحنا بوجود سيادة اللواء (محمد نجيب) ، و..... قاطعه (رفعت) في استهتار :

— دعك منه .

تراجع (حسين) ، متمماً في دهشة :

— ماذا ؟!

أطلق (رفعت) ضحكة قصيرة ، وقال :

— يبدو أن التسلسل القيادى مازال يملأ كيانتك ، ولكن لا بأس .. قل لى :

من من زوجى شقيقتيك صاحب الشكوى ؟

هز (حسين) رأسه نفياً ، وقال :

— ليس أيهما .. إنه لم يحضر الوليمة .

ابتسم (رفعت) ابتسامة غامضة ، وهو يقول :

— عظيم .. هذا يجعل الأمور أكثر سهولة .

انصرف رجال مجلس قيادة الثورة ، في موكب رائع ، صنعته أهل القرية ،

وعلى رأسهم العمدة والمأمور ، وبداء (حسين) غاية في السعادة ، وهو يمود إلى

السراى ، هاتفاً :

— ما رأيكم ؟

أجابه (مفيد) بابتسامة كبيرة :

— كانت دعوة رائعة .

بدت له عبارة (مفيد) عظيمة بحق ، وهو الذى اعتاد أن يختلفا فى كل

صغيرة وكبيرة ، فالتفت إليه بكيانه كله ، يسأله :

— حقًا يا (مفيد) ؟

أجابه (مفيد) بصدقه المعتاد :

— بالتأكيد .. إنهم مجموعة رائعة .

وصلت (زينب) إلى الحجرة ، قائلة :

— حمائم الله لشبابهم .

ووضعت صينية تحمل أكواب الشاي الساخنة أمام (حسين) و (مفيد) ،

ثم أشارت إلى (عبد الحكيم) و (ماهر) فى حياء ، مغممة :

— الشاي .

نهض (عبد الحكيم) ، قائلاً :

— لن يمكننى تناول قطرة واحدة منه للأسف ، فمعدتى متخمة بالطعام عن

آخرها .. سأعود إلى المنزل .

شعر (ماهر) بالضيق لموقف (عبد الحكيم) ؛ فقد كان هذا يضطره أدبياً

للانصراف ، فنهض بدوره متمتماً :

— سأنصرف أنا أيضاً .

قالت (زينب) فى صوت يحمل خيبة أمل واضحة :

— أنت أيضاً ؟

ثم لم يلبث وجهها أن تخضب بحمرة الخجل ، عندما لاحظت أنها قد نظقت

عبارتها بصوت واضح مسموع ، فأسرعت تغادر المكان فى خطوات متعثرة ،

زادت من ارتباك (ماهر) ، فأضاف وهو يتجه نحو الباب :

— طاب مساؤكم .

لم يعترضه (حسين) أو (مفيد) ، على عكس المألوف فى الأرياف ، وكأنما

يرغبان فى البقاء وحدهما ، وبالفعل لم يكذب يذهب ، حتى سأل (حسين) شقيقه

الأصغر (مفيد) فى لهفة :

— ما انطباعك عن رجال الثورة ؟

لم يجب (مفيد) على الفور ، وإنما حدى فى سقف الحجرة ، وكأنما يسترجع

فى ذهنه كل أحداث الزيارة ، قبل أن يقول فى بلاء :

— لو ظلوا على بساطتهم ، فالمستقبل الذى ينتظر البلاد مشرق للغاية ،

ولكن ..

سأله (حسين) فى اهتمام :

— ولكن ماذا ؟ .. هيا .. أخبرنى بكل ما لديك .

اعتدل (مفيد) ، وواجه شقيقه ، قائلاً :

— لو أنك أردت رأى بكل صراحة ، فهؤلاء الشبان أبسط من أن يتولوا

وحدهم حكم دولة كـ (مصر) ، فلم يعمل منهم بالسياسة من قبل سوى (أنور

السادات) ، وهأنذا تراه صامتاً ، يكتفى بالابتسام ، والضحك مجاملة لهم ،

مما يعنى أن مركزه وسطهم ليس قوياً ، على عكس (صلاح) و (جمال سالم) ،

فشخصيتهما قوية مهيمنة ، لا يعيبها سوى العصبية المفرطة ، وشيء من الغرور

والخيلاء ، و (عبد الحكيم عامر) بسيط للغاية ، وطيب القلب ، وأمثاله

يندفعون فى إصدار قراراتهم ، و.....

قاطعته (حسين) فى ضيق :

— أنت تراهم جميعاً لا يصلحون إذن ؟

قال (مفيد) فى سرعة :

— على العكس .. إن بينهم من ولد قائداً بطبعه ، ويمتلك شخصية قوية

مهيمنة ، ستجعله يوماً على رأس الجميع .

سأله في اهتمام زائد :

— من تقصد ؟ .. (صلاح سالم) ؟

هز (مفيد) رأسه نفياً ، وأجاب :

— بل (جمال) .. (جمال عبد الناصر) .

امتزجت العبارة في رأس (حسين) ، بعبارة سابقة سمعها من (رفعت) عن

(جمال عبد الناصر) ، فتمتم في رهبة :

— يبدو أن لهذا الرجل سحرًا عجيبًا .

ثم مال نحو شقيق ، مستطرذا في انفعال :

— هل رأيت عينيه ؟ .. إنهما يشبهان عيني أسد .. أليس كذلك ؟

تمم (مفيد) :

— بالتأكيد .

واسترخى في مقعده ، مستطرذا في حسم :

— وستجده يوفقنا على رأس الجميع ، كما أتوقع .. هل تراهن على ذلك ؟

بدت (شريفة) شديدة

الفرح ، وهي تقول لأختها

(زينب) في حجرتهما :

— هل رأيت يا (زينب) ؟ ..

كل أكابر البلد أتوا إلى هنا .. هل

رأيت أي شأن بلغه شقيقنا

(حسين) ؟

ابتسمت (زينب) ، وهي

تقول :

— كان هذا رائعا بحق .



وتلاشت ابتسامتها في بطاء ، وهي تتابع :

— ولكن هناك أمراً ألتنى للغاية اليوم .

سألها (ناهد) في دهشة ، وهي تصفف شعرها أمام المرأة :

— أي أمر هذا ؟

أجابتها (زينب) في حزن :

— (حافظ) .. لقد أصر (حسين) على عزله في حجرته ، وعلى ألا يراه

رجال مجلس قيادة الثورة .

قالت (ناهد) في حزم :

— أمر طبعي يا (زينب) ، أتريدين منه أن يخبرهم — بكل بساطة — أن

شقيقه مصاب بانتيار نفسي ؟

تمتمت :

— كلا بالطبع .. ولكن ..

سألها في حزم أشد :

— ولكن ماذا ؟

تهددت (زينب) ، وأسبلت جفניה ، متممة في استسلام :

— لا شيء .. فليفعل الله (سبحانه وتعالى) ما فيه الخير .

ران الصمت على الحجرة لحظات ، ثم أضافت (زينب) :

— ولكتني أشعر بالقلق على مصير (حافظ) .

أجابتها (شريفة) :

— إننا نبذل أقصى طاقتنا لرعايته .

قالت في حزن :

— وماذا بعد أن نتزوج .. من سيعاها ؟

أجابت (ناهد) في سرعة :

— فاطمة .

سألها (زينب) في دهشة :

— من (فاطمة) ؟

أجابتها في بساطة :

— (فاطمة) ابنة عم (عبد الحميد) .. كانت توليه برعايتها طوال النهار ،
على الرغم من انشغالها في تنظيف المنزل والطهو معنا .. إنها — والحق يقال —
بارعة كل البراعة في هذا المضمار ، و (حافظ) يشعر معها بالارتياح .

قالت (زينب) في ضيق :

— لن تلبث (فاطمة) أن تتزوج ، وتحيا مع زوجها .

ران عليهما الصمت لحظات ، وكل منهما تبحث في ذهنها عن حل للمشكلة ،
ثم قالت (شريفة) فجأة في حماس :

— لدى فكرة مجنونة ، ولكنها قد تصلح للأمر تمامًا .

سألها (زينب) في اهتمام :

— ماهي ؟

اعتدلت (شريفة) على فراشها ، وقالت بنفس الحماس :

— مارأيكما لو تزوج (حافظ) (فاطمة) ؟

التفتت إليها (ناهد) بكل الاستكثار والازدراء ، وهتفت (زينب) :

— يتزوجها !؟ .. هل جنت ؟

ضحكت (شريفة) ، وهي تقول :

— ألم أقل لكما إنها فكرة مجنونة ؟ .. ولكن دعونا ندرس ذلك الجنون بكل
مالدينا من عقل .. لقد أصيب (حافظ) بمرض ذهني نفساني خطير ، وكلنا
نعلم أن طبيعته لن تسمح له بالشفاء أبدًا ، ولن ترضى فتاة واحدة بالزواج منه ،
وهو على هذه الحالة ، أما (فاطمة) ، فهي فتاة فقيرة ، تفتقر إلى الجمال — إلى
حد ما — وستجد أنه من حسن طالعها أن تتزوج ابن (البهاوى) دفعة واحدة ،
ثم إن (حافظ) يشعر نحوها بالارتياح والتفاهم .

بدت لهما فكرتها منطقية ومعقولة للغاية ، وعلى الرغم من ذلك ، فقد قالت
(ناهد) في استهجان :

— لا .. مستحيل .

ونمتت (زينب) في حذر :

— الواقع أنني أراها فكرة معقولة .

هتفت بها (ناهد) :

— بل هي فكرة مجنونة ..

ثم أضافت وهي تشبك شعرها بمشبك فضي رقيق :

— ثم إن (حسين) سيرفضها تمامًا .

قالت (شريفة) في حماس :

— هل تراهنين ؟

ران عليهما الصمت مرة أخرى ، وكل منهن تدبر الاقتراح في رأسها ، قبل أن

تهز (ناهد) رأسها مرة أخرى في عناد ، قائلة :

— لا .. إنها فكرة سخيفة .

هزت (شريفة) كتفها ، قبل أن تندس تحت غطاء فراشها ، قائلة :

— من يدري !؟

وفي كتاب القدر ، انحفرت العبارة نفسها ..

نعم .. من يدري !؟ ..

(حسين) .. أغشى يا أخى !! أغشى !! ..
 قفز (مفيد) من فراشه ، ووجد نفسه ينطلق إلى ردهة السراى
 كالصاروخ ، بعد أن ميز فى تلك الصرخة المتناعة صوت شقيقته (نعيمة) ، التى
 راحت تصرخ وتبكي وتولول ، وتلطم خديها ، وقد أحاطت بها شقيقاتها ،
 اللاتى انتزعتن صرخاتها من فراشهن ، بعد الفجر بنصف الساعة فحسب ،
 ورحن يحاولن تهدئتها ، ومعرفة سر صراخها فى جزع ، فهتف بها (مفيد) :
 — ماذا حدث يا (نعيمة) ؟ .. ماذا أصابك ؟
 هتفت (نعيمة) فى انبهار :
 — أين (حسين) ؟ .. أين أخى ؟
 بلغ (حسين) الردهة فى تلك اللحظة ، وسألها متوتراً :
 — ماذا حدث ؟ .. لم تصرخن هكذا ؟
 تشبثت به ، هاتفة :
 — زوجى يا (حسين) .. زوجى (عمر) ، انتزعوه من فراشه فى الفجر .
 اتسعت عيون الجميع فى ذعر وذهول ، وهتف (حسين) :
 — انتزعوه من فراشه ؟ .. من هم ؟
 لطمت خديها ، هاتفة بفيض من الدموع :
 — رجال السلطة يا أخى .. رجال السلطة .
 صاح بها (حسين) :
 — أية سلطة ؟ .. إن أعلى رجال السلطة فى (مصر) تناولوا غداءهم هنا
 أمس فحسب .

انهمرت الدموع من عينيها أنهاراً ، وهى تهتف :
 — لست أدرى .. لست أدرى .. لقد اقتحموا المنزل قبيل الفجر ، وعلى
 رأسهم شاب طويل صارم ، وانتزعوا (عمر) من فراشه ، وحملوه معهم .
 أمسك كفيها ، وهو يسألها فى حدة :
 — من هذا الشاب ؟ .. ما اسمه ؟
 قالت فى انبهار :
 — اسمه (إبراهيم) .. الصاغ (إبراهيم مكى) .
 اتسعت عينا (حسين) فى ذهول ، وهو يردد :
 — (إبراهيم مكى) ؟ ..
 ثم انعقد حاجباه فى حزم ، وهو يضيف :
 — الكلب الحقيق .
 وهتف فى صرامة :
 — اطلب من عم (عبد الحميد) إعداد السيارة يا (مفيد) .. سأسافر إلى
 (القاهرة) على الفور .
 تعلقت (نعيمة) بذراعه ، هاتفة :
 — خذنى معك .. أريد زوجى .. أريد (عمر) .
 دفعها عنه فى حزم ، وهو يقول :
 — اطمئنى يا (نعيمة) ، سيعود إليك (عمر) ، قبل غروب الشمس .
 وضغط أسنانه فى غضب ، مستطرداً :
 — وسيدفع الوغد الثمن .
 * * *
 ارتسمت ابتسامة خبيثة ، تجمع ما بين السخرية والشماتة ، على شفتى
 (إبراهيم مكى) ، عندما اقتحم (حسين) مكتبه فى عنف ، ووقف أمامه يصيح
 فى غضب :

— أين (عمر) ؟

سأله (إبراهيم) ببروده المعتاد :

— من عمر ؟

صاح (حسين) في غضب :

— (عمر) زوج شقيقتي ، الذي ألقيت القبض عليه في الفجر ، كمحاولة لإيذاني .

مال (إبراهيم) إلى الأمام ، وحقق في عيني (حسين) بكل ما يميل نفسه من سخرية وبرود ، وهو يقول في لهجة لا تخلو من الصرامة :

— يبدو أنك تنسى أحياناً أيها الملازم ، أنني رئيسك في العمل ، وأن رتبتي تفوق ربتك ، مما يجبرك على التحدث إلى بنوع من الاحترام ، برغم أنك .

صدمت العبارات (حسين) ، وجعلته يعتدل في توتر ملحوظ ، وهو يغمغم :

— لقد كنت غاضباً ، و.....

قاطعه (إبراهيم) ، وهو يواصل بنفس الصرامة :

— ثم إنني لا ألقى القبض على مخلوق واحد ، دون أوامر من رئيسنا المباشر . قال (حسين) في دهشة :

— ماذا تعني ؟

تراجع (إبراهيم) في مقعده ، وشبك أصابعه أمام وجهه ، مجيئاً بتلك اللهجة ، التي تجمع ما بين السخرية والشماتة :

— لقد ألقيت القبض على زوج شقيقتك بأمر من (رفعت كساب) نفسه . بدا (حسين) كالمصدوم ، وهو يحدق في وجه (إبراهيم) ، قبل أن يغمغم

في صوت شاحب كوجهه :

— وهل كان يعلم أنه زوج شقيقتي ؟

ابتسم (إبراهيم) ساخراً ، وهو يجيب :

— بالتأكيد .

ترك (حسين) جسده يتخاذل فوق أقرب مقعد إليه ، وهو يغمغم :

— ولكن لماذا ؟

هز (إبراهيم) كتفيه ، وهو يقول في شماتة واضحة :

— ربما وجدوا أنه من أعداء الثورة .

هتف (حسين) مستكراً :

— (عمر) !؟

مال (إبراهيم) نحوه ، وقال في هدوء :

— لم لاتسأل (رفعت) بك نفسه ؟

بهت (حسين) ، فتمتم في رهبة :

— أسأله !؟

قال (إبراهيم) في هدوء :

— نعم .. أسأله مباشرة ، وثق من أنه سيخبرك بالسبب على الفور .

تردد (حسين) لحظات ، وهو يدير الأمر في رأسه ، ثم لم يلبث أن قال في حزم :

— نعم .. ولم لا ؟

ونهض من مقعده ، وغادر حجرة (إبراهيم مكى) ، متجهاً بكل حزم نحو

حجرة (رفعت) ، إلا أنه لم يكده يبلغ حجرة ذلك الأخير ، حتى تلاشى حماسه

كله ، وحل محله قلق شديد ، وتردد لحظات ، ثم طرق الباب في خفوت ، وانتفض

جسده كله ، عندما سمع صوت (رفعت) يدعوه للدخول ، فالتقط نفساً عميقاً من

الهواء ، ودفع باب حجرة (رفعت كساب) ، ودلف إلى الداخل ..

وارتسمت الابتسامة التقليدية على وجه (رفعت) ، وهو يقول :

— أهلاً (حسين) .. من المؤكد أنك ابن حلال ، فلقد كنت بصدد

البحث عنك .

تتم (حسين) في توتر :

— عنى أنا ؟!

أشار (رفعت) إلى المقعد المقابل لمكتبه ، وهو يقول :

— اجلس يا رجل .. اجلس ، فلدى حديث طويل معك .

جلس (حسين) متوترًا ، وهو يضرب أحماسًا في أسداس ، محاولًا استنتاج

طبيعة هذا الحديث ، و (رفعت) يقول :

— كانت وليمة رائعة في سراي أسرتك أمس .. أتعلم أن مجلس القيادة كله قد

أخذك محورًا للحديث ، حتى ساعة متأخرة من ليلة أمس ؟

ازدرد (حسين) لعبابه في صعوبة ، دون أن يعلق بحرف واحد ، في حين

استطرد (رفعت) ، وكأنها لم يكن ينتظر تعليقًا :

— (عبد الحكيم عامر) و (أنور السادات) أبديا ثناء كبيرًا عليك ،

و (صلاح) و (جمال سالم) قالوا إنك وأسرتك رمز لما ينبغي أن يكون عليه كل

مواطن مصري مكافح ، أما (جمال عبد الناصر) ، فقد سألتني عن سر تمسحي

لك بالذات ، على الرغم من أنك لم تكن أحد رجالنا قبل الثورة ، فأجبت بأن

شجاعتك قد رافقت لي ، بتأييدك الفوري والمباشر لنا ، قبل حتى أن تتضح

الأمور ، وقلت له إن من يفعل هذا بلا تردد ، هو شخص أهل للثقة ، وأنا أحب

الشجعان .

تتم (حسين) :

— شكرًا لك ياسيدى .

مال (رفعت) نحوه . وسأله بغتة :

— قل لي : هل تعرف اليوزباشي (فؤاد) ؟

تتم (حسين) ، وهو يتساءل في أعماقه عن مغزى السؤال :

— نعم ياسيدى .. إنه شقيق أحد رجال مجلس قيادة الثورة حسبما أظن .

اندمت ابتسامته (رفعت) ، وهو يتراجع في مقعده ، قائلاً :

— بالضبط ، ولقد أعجب بك وبأسرتك كثيرًا ، حتى أنه يرغب في أن

يصبح أحد أفراد الأسرة .

سأله (نعيمة) في حيرة :

— ماذا تعنى ياسيدى ؟

قال (رفعت) بنفس الابتسامة :

— يريد أن يتزوج شقيقتك .

قال (حسين) في دهشة ، يخالطها شيء من الفرح :

— شقيقتى أنا ؟

قال (رفعت) مبتسماً :

— نعم .. أنا أعلم أنه مازالت لديك شقيقتان لم تتزوجا بعد ، وهو يرغب

في الزواج من إحداهما ، على الرغم من أنه لم يرهما أبدًا .. باختصار إنه يريد أن

يصاهره فحسب .

هتف (حسين) في حماس :

— لي كل الشرف ياسيدى .

ثم لم يلبث أن تذكر أمر (عمر) بغتة ، فخفض صوته ، مستطردًا :

— ولكن لدى تساؤل هام بخصوص .. بخصوص ..

سأله (رفعت) في اهتمام :

— بخصوص (فؤاد) ؟

هز (حسين) رأسه نفيًا ، وقال :

— لا ياسيدى ، وإنما بخصوص (عمر) ، زوج شقيقتى .

ابتسم (رفعت) ، ولوح بكفه ، قائلاً :

— آه .. لا بأس .. هل تريد رؤيته ؟

ثم ضغط زرًا فوق مكتبه ، قبل أن يسمع جواب (حسين) ، ولم يكذب يفعل

حتى أطل جندي داخل المكتب ، فقال (رفعت) بلهجة أمرة :

انشغلت (زينب) تمامًا بعملها في مطبخ السراي ، حتى أن جسدها قد انتفض في قوة ، عندما وضعت (شريفة) يدها على كتفها ، فانفجرت (شريفة) ضاحكة : وهي تقول :
— إلى هذا الحد ؟

استدارت إليها (زينب) ، تهتف في غضب :
— يا سخافتك !.. لقد أفرغتني .

واصلت (شريفة) ضحكها ، وهي تقول :
— بل انتزعك من أحلام الحب الجميلة .
ثم مالت على أذنها ، مستطردة في همس :
— ولكنني أحضرت لك الأصل .

ارتفعت دماء الحجل إلى وجه (زينب) في سرعة ، وهي تقول :
— الأصل ١٩

ابتسمت (شريفة) ، وهي تهمس في خبث أنثوي ظريف :
— بالطبع .. (ماهر) ينتظرك في الحديقة الخلفية .

ارتبكت (زينب) ، وراحت تمسح كفها بثوبها في توتر ، وتضاعفت حمرة الحجل في وجهها ، وهي تقول متلعثمة :

— (ماهر) هنا ١٩ .. يا إلهي !.. وماذا لو رآه أحد ؟
ربت (شريفة) على كتفها ، قائلة :

— اطمئني (حسين) سافر إلى (القاهرة) في الصباح ، ولحقت به (نعيمة) بصحبة (مفيد) ، للاطمئنان على (عمر) ، و (حافظ) في حجرته كالعتاد ، و (فاطمة) تدله ، وتشمله برعايتها .

— احضر لي (عمر) ، من القيو السفلى .
ثم عاد يقول لـ (حسين) بابتسامة عادية :
— لقد ألقينا القبض عليه كهديّة لك .
غمغم (حسين) في دهشة :

— هدية !!

أوماً (رفعت) برأسه إيجاباً ، وقال مبتسماً :

— نعم .. لقد عرضت الأمر على مجلس قيادة الثورة ، فوافقني الجميع ، فيما عدا (جمال) الذي اعترض على تدخلنا في أمور شخصية ، ولكنه لم يكذب يعلم بأمر الشكوى ، التي قدمها زوج شقيقتك إلى (محمد نجيب) ، حتى وافق على الفور ، وبدأت أنا التنفيذ دون إضاعة لحظة واحدة .

ثم اتسعت ابتسامته ، وهو يغمز بعينه ، مستطرداً :
— فلقد كانت الوليمة رائعة بحق .

تطله إليه (حسين) في مزيج من الدهشة والخيرة ، وهو يتساءل عن صلة الوليمة بزواج شقيقته (عمر) ، واستكر في أعماقه أن يكون السبب هو عدم حضور (عمر) للوليمة ، وراح يبحث عن رابطة أخرى أكثر قوة ، حتى سمع الجندي يقول :

— المتهم هنا ياسيدى .

قال (رفعت) في حزم :

— أدخله .

تعلقت عينا (حسين) بباب الحجر ، ثم لم يلبث أن تراجع في دعر .
لقد رأى أمامه شيئاً بشعاً ..
بشعاً للغاية ..

— نعم .. لم أعد أطيق صبراً على الانتظار .. سأسافر إليه في (القاهرة) هذا المساء ، وأطلب منه تحديد موعد الزفاف .

تتمت في قلق :

— هل سيوافق ؟

سألها في دهشة :

— ولم لا ؟

ألقت عليه نظرة جانبية ، دون أن تبس بينت شفة ..

ودون أن تفصح عن مخاوفها الحقيقية ..

إنها لم تنس بعد موقف (حسين) ، عندما تقدم (ماهر) ووالده بطلب

يدها ..

ذلك الموقف الذي تسبب جزئياً في وفاة والدها (رحمه الله) ..

وهي لا تدري ماذا سيكون موقفه الآن ؟ ..

ولكنها تخشى التفكير في احتمال الرفض ..

مجرد التفكير ..

ولما طال صمتها ، عاد (ماهر) يسألها :

— ولم لا ؟

هزت رأسها في صمت ، وتمتت :

— إنه مجرد تساؤل .

ابتسم في حنان ، وربت على رأسها ، قائلاً :

— اطمئني يا (زينب) .. سيم كل شيء كما نتمنى .

لم تبس بينت شفة هذه المرة أيضاً ، ولكن قلبها امتلأ بالخوف ..

كل الخوف ..

وهزت رأسها ، مستطردة في زهو :

— صدقوني .. (فاطمة) هي خير من تصلح زوجة لـ (حافظ) .

أزاحتها (زينب) جانباً ، وهي تقول في لهفة :

— دعينا منهما الآن ، إن (ماهر) يضيق بالانتظار .

بدت وكأنها تطير عبر ردهة السراى ، حتى بلغت الحديقة الخلفية ، فتوقفت

تلهث ، وتضرج وجهها بحمرة الحياء ، وهي تبسم متممة :

— صباح الخير يا (ماهر) .

التهمها بعينه في حب جارف ، وهو يهرع إليها ، ويلتقط كفها في راحته ،

ويعتصرها في رفق وحنان ، هاتفاً :

— صباح الخير يا (زينب) .

ودون اتفاق مسبق ، وبتلقائية شديدة ، جلسا معاً على سور سلم السراى

الخلفى ، وهمس (ماهر) :

— طال الانتظار يا (زينب) .

خففت وجهها في حياء ، وهي تقول :

— إن غداً لناظره قريب يا (ماهر) .

سألها في لهفة ، وهو يضم كفها إلى صدره ؟

— متى يلتئم شملنا ؟

تهددت وقالت :

— لست أدري .. لن يمكننى سؤال (حسين) .

أجابها في حماس :

— سأسأله أنا .

ابتسمت في فرح وحياء ، وهي تقول :

— حقاً !

نهض قائلاً في جزم :

تسمر (حسين) في مكانه ، وهو يحدق في ذلك الذي يقف أمامه ..
لم يكن (عمر) الذي يعرفه ..
كان بقايا (عمر) ..
بقايا إنسان ..

وكان من الواضح أنه قد عومل بأسوأ ما تكون المعاملة ، في الساعات القليلة
التي مرت ، منذ انتزاعه من فراشه ..
كان محطماً ، منهزماً ، منكسراً ، تحيط بعينه اليمنى كدمة زرقاء مخيفة ، ويسيل
من وسط خصلات شعره خيط من الدم اللزج ، وقد تمزق جلبابه شر ممزق ..
وكانت عيناه تحملان نظرة مؤلمة ..
نظرة تجمع ما بين المرارة والهوان والكراهية ..
نظرة مظلوم ..

وبابتسامة ساخرة مزهوة ، أشار (رفعت كساب) إلى (عمر) ، وهو
يقول لـ (حسين) :
— لقد وقع زوج شقيقتك تنازلاً عن القضية الخاصة بميراثك ، وتعهدنا بعدم
التعرض لك .

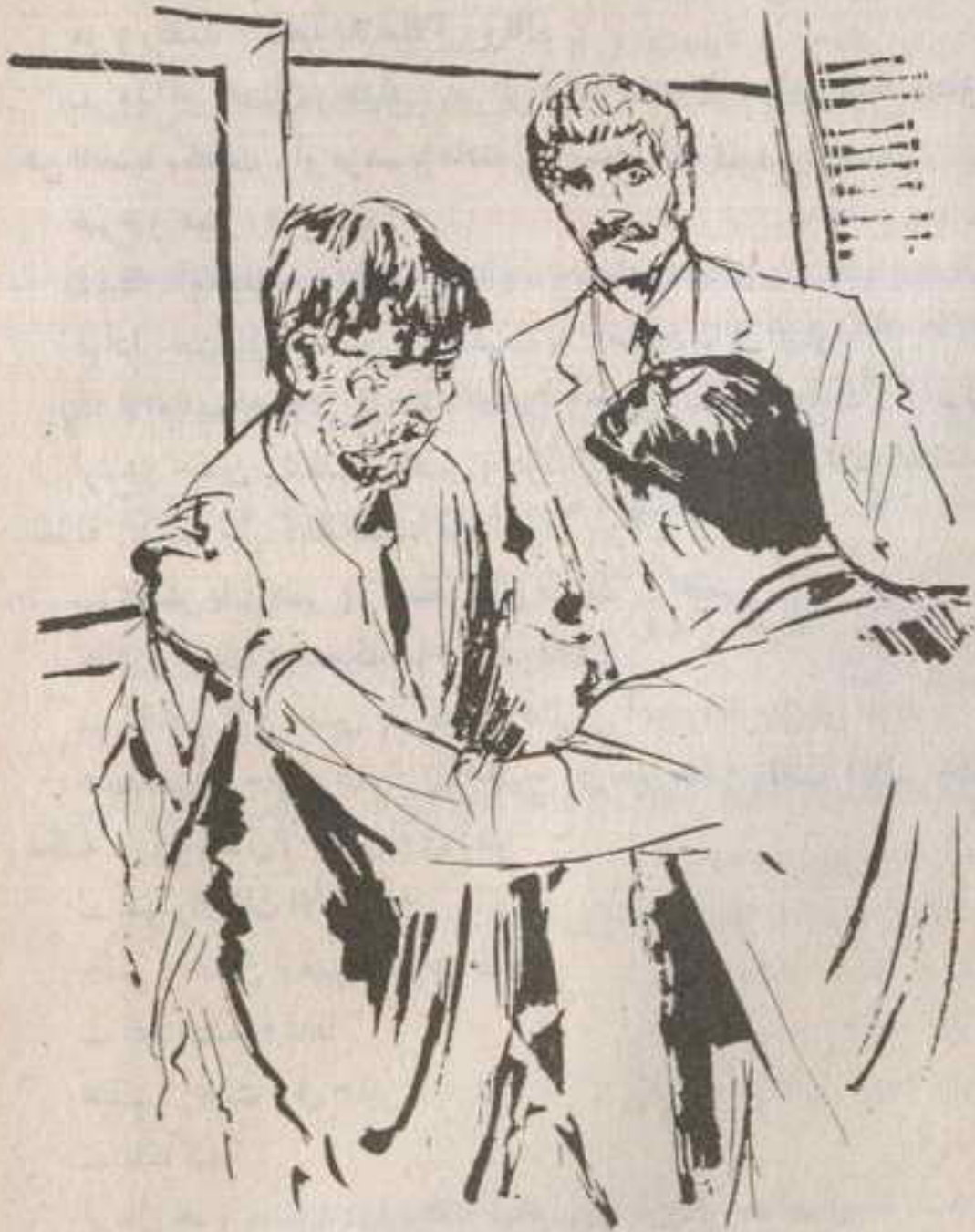
ردد (حسين) مبهوئاً :

— عدم التعرض لي ؟ !

أكمل (رفعت) مبتسماً :

— لقد أقنعنا رجالنا بذلك .

وان الصمت تماماً على الحجرة ، بعد هذه العبارة ، ثم نهض (حسين) من
مقعده في ببطء ، واتجه نحو (عمر) ، ووضع يده على كتفه ، قائلاً :
— سيحصل الجميع على أنصبتهم الشرعية ، من إيراد الأرض .
نعم (عمر) في لهجة أقرب إلى البكاء :
— بالتأكيد .



ربت (حسين) على كتفه مرة أخرى في إشفاق ، ثم التفت إلى (رفعت) ،
يسأله :

— هل يمكنه العودة إلى منزله ياسيدى ؟

هز (رفعت) كتفيه بلامبالاة ، وقال :

— هذا أمر يخصك وحدك .. مر الرجال بإعادته إلى منزله ، لو أن التنازل
عن القضية يكفيك ، أو مرهم بإعادته إلى السجن الحرى ، لو.....

صرخ (عمر) في رعب :

— لا.. أرجوك .

ثم أدار عينيه إلى (حسين) ، وتثبت به ، مستطرذا في انبهار :

— لا تدعهم يعيدوننى إلى هذا الجحيم يا (حسين) بك .. أرجوك .. أرجوك .

ارتاع (حسين) لذلك الموقف ، وأدرك كم قاسى (عمر) في تلك الساعات

القليلة ، فربت على كتفه مطمئنا مرة أخرى ، وقال :

— اطمئن يا (عمر) .. سنعود إلى منزلك .. اطمئن .

أطلق (رفعت) ضحكة ساخرة ، وقال :

— كما تحب يا (حسين) .. هيا يا رجال .. أعيدوا الرجل إلى منزله .

اصطحب الرجال (عمر) إلى الخارج ، في حين عاد (رفعت) يجلس خلف

مكتبه ، وهو يسأل (حسين) في زهو :

— هل راق لك الأمر ؟

جلس (حسين) مبهوئا ، وهو يتمم :

— لقد حطموه تماما .

هتف (رفعت) في حماس :

— بالتأكيد .

ثم مال نحو (حسين) ، وبرقت عيناه ببريق قوى ، وهو يقول :

— هذا ما ينبغي أن يكون دوما يا (حسين) .. أن يعلم الجميع أن الثورة
قوية ، لا تأبه بسخافاتهم ، وأن يعلموا أن التعرض لشعرة واحدة من رأس رجل
من رجال الثورة يعنى الدمار .

وضرب سطح مكتبه بقبضته في قوة ، مستطرذا :

— ينبغي أن يعلموا أننا القوة .. القوة الوحيدة في هذا المجتمع .. هل تفهم ؟

ردد (حسين) مبهوئا :

— نعم .. أفهم .

تراجع (رفعت) في مقعده بارتياح ، وأشعل سيجارته ، ونفث دخانها في

قوة ، وهو يقول :

— وهكذا ينبغي أن تتعامل مع الآخرين دوما يا (حسين) .. تعامل على

أنك الأقوى .. هكذا يتعامل أحد رجالنا .

امتلأت نفس (حسين) بنشوة عارمة ، وهو يستمع إلى هذا الحديث ،

بتلك اللهجة الحماسية ، التى يتحدث بها (رفعت) ..

وبدا الشعور بالقوة يسرى في عروقه ..

بالقوة المطلقة ..

أطلقت الأميرة (عائدة) ضحكة عابثة عالية النبرة ، ولوحت بكأس الخمر

في يدها ، وهى تقول في سخرية :

— القوة !؟ .. إذن فهم يسعون إلى القوة .

ابتسم (حسين) وهو يقول :

— لقد حصلوا عليها بالفعل .

هزت كتفها ، وقالت في بغض :

— هراء .

جرعت كأسها دفعة واحدة كمعادتها ، وأضافت في حدة :

— هذا ما يتصورونه .
 تلاشت ابتسامته ، وهو يسألها في قلق :
 — هل تكرهين الثورة إلى هذا الحد ؟
 هزت رأسها نفياً ، وقالت في سخرية :
 — لا.. لست أكره الثورة .
 تنهد في ارتياح ، وقال :
 — هذا أفضل .

اقتربت منه ، وقالت في حدة :
 — هل صدقت حقاً أنني لا أكره الثورة ورجال الثورة ؟ .. بالك من غر
 ساذج !!

قال في دهشة :
 — ولكنك قلت منذ لحظة ..
 قاطعته وهي تلقي نفسها إلى جواره :
 — قلت ماذا ؟ .. ما الذي تنتظره من أميرة مثلي ، استولت ثورتكم على
 كيانه كله ، وتسعى لإزالته من الوجود ؟
 نعم متوتراً :

— اخفضي صوتك يا (عايدة) .. أرجوك .
 أطلقت ضحكة عابثة ، وأحاطت عنقه بذراعيها ، وهي تقول :
 — هل تخاف منهم ؟
 ارتبك مغمغماً :
 — لا.. ولكن ..

قاطعته في همس يزخر بالدلال :
 — اطمئن .. لست أكره كل رجال الثورة .. إنني أحب أحدهم .
 ازدرد لعابه في صعوبة ، وتطلع إلى عينيها الفاتنتين ، وهمس في لهفة :

— (عايدة) .. هل تقبليني زوجاً ؟
 تراجعت في حركة حادة ، وهي تقول :
 — أقبلك ماذا ؟
 كرر مرتبكاً :
 — زوجاً يا (عايدة) .. إنني أسألك الزواج .
 خيل إليه أن عينيها قد برقنا في ظفر ، وهي تنهض في ببطء ، وتتجه نحو البار
 الصغير في الدرفة ، وتصب لنفسها كأساً في صمت ...



وتضاعف ارتباكها ، وهو يسألها :
 — مارأيك يا (عايدة) ؟
 استدارت إليه في ببطء ، وجرعت كأسها دفعة واحدة ، وتوردت وجنتاها
 بفعل الخمر ، واجتمعت ابتسامته جعلتها صورة مجسمة للفتة ، وهي تقول :
 — مارأيك أنت ؟
 ردد في حيرة :
 — رأيي أنا ؟
 أطلقت ضحكة عابثة مرة أخرى ، ثم قالت :
 — إنني أوافق يا (حسين) .

رقص قلبه طرباً بين ضلوعه ، وهو يهتف :

— حقاً يا (عايدة) .. إننى ..

قاطعته فى حسم :

— ولكن بشروط .

عاد إلى مكانه ، متمتماً فى قلق :

— أية شروط ؟

قالت فى دلال :

— أريد حفل زفاف لا مثيل له ، تتحدث عنه (القاهرة) عام كامل على

الأقل .

أجابها فى حماس :

— لك هذا .

أضافت فى دلال أكثر :

— وأريد ثوب زفاف متميز من (باريس) .

قال فى حماس أشد :

— متحصلين على أفضل ثوب زفاف فى العالم ، وسأرسل فى طلبه

صباح الغد ، و.....

قاطعته فى حزم :

— لا .. أريد أن أسافر لشرائه بنفسى .

ابتسم قائلاً :

— لا بأس .. أهذه كل الشروط ؟

ابتسمت أكثر ابتساماتها عذوبة ، وهى تقول :

— نعم .. هذه هى .

نهض من مكانه ، واتجه إليها ، وأمسك كفها بحب ، وهو يتطلع إلى

عينها ، قائلاً :

— (عايدة) .. إنها أجمل لحظات حياتى .

غمغمت فى دلال .

— وأنا أيضاً .

وفجأة ارتفع رنين جرس الباب ، فابتعد بعضهما عن بعض حركة حادة ،

وتطلعا إلى الباب ، وهتف (حسين) فى قلق :

— من الزائر هذه المرة ؟

قالت (عايدة) فى توتر :

— لست أدرى .. ربما هو (إبراهيم مكى) أيضاً .

تمم فى ارتياح :

— يا إلهى !! مرة أخرى .

أسرعت تحمل حقيبتها الأنيقة ، واتجهت نحو حجرة النوم ، قائلة :

— سأختبئ مؤقتاً ، وأيا كان الزائر ، حاول أن تصرفه بسرعة .

اختفت داخل حجرة النوم ، وازدرد هو لعابه فى توتر ، واتجه نحو الباب ،

مع ارتفاع رنين جرس الباب للمرة الثانية ..

وفتح (حسين) الباب ..

وارتفع حاجباه فى دهشة ، عندما وقع بصره على (ماهر) ، وهتف :

— (ماهر) !؟

ابتسم (ماهر) فى خجل ، وهو يقول :

— معذرة يا (حسين) بك .. لم أكن أحب أن أصل متأخراً ، ولكننى

بحثت عن المنزل طويلاً ، و.....

منعه الارتباك من إتمام حديثه ، ووقف الاثنان أمام بعضهما البعض فى

صمت ، قبل أن يقول (حسين) فى توتر :

— تفضل يا (ماهر) .. تفضل .

دلف (ماهر) إلى الداخل فى حياء ، ولم يكذب يستقر فوق مقعده ، حتى قال :

— أتيت بشأن (زينب) .
جلس (حسين) أمامه ، وراح يخلّس النظر إلى حجرة النوم ، حيث اختفت
(عائدة) ، وسأله :
— ماذا عنها ؟

فرك (ماهر) كفيه ، وهو يقول مرتبكاً :
— الواقع أنه خطبتنا قد تمت منذ عدة أشهر ، و.....
طال صمته من فرط ارتباك ، وتزايد قلق (حسين) ، خشية أن يتبه
(ماهر) إلى رائحة عطر (عائدة) المميز ، الذي يملأ المكان ، فقال في عصبية :
— وماذا ؟
ازدرد (ماهر) لعابه ، وقال :
— وأظن أن الوقت قد حان لكى .. أعنى أن .. أن ..
قاطع (حسين) في توتر :
— أتريد أن تم الزفاف ؟

بدأ الارتياح على وجه (ماهر) ، وهو يقول في لهفة :
— نعم يا (حسين) بك .. هذا ما أريده بالتحديد .
لم يكن (حسين) مستعداً لمناقشة الأمر الآن ، ولم يكن يرغب — في الوقت
ذاته — في الدخول في جدل طويل مع (ماهر) ، أضف إلى هذا شعور عقله
الباطن بالخوف والذنب ، لعلاقته السرية بـ (عائدة) ..
كل هذا دفعه إلى أن يقول في سرعة :
— لا بأس .. فليم الزفاف .
لم يصدق (ماهر) أذنيه ، ولم يصدق أن الأمر قد تم بهذه البساطة ، فهتف
في انفعال وسعادة :
— متى يا (حسين) بك .. متى يتم الزفاف ؟
قال (حسين) في توتر ، وهو يخلّس النظر إلى حجرة النوم :

— في الوقت المناسب يا (ماهر) .. لم يمض بعد عام كامل على وفاة أبى كما
تعلم ، و.....
قاطع (ماهر) في لهفة :
— يمكننا أن نم الزفاف دون أن نقيم حفلاً .
زاد توتر (حسين) ، وهو يقول :
— لا بأس .. لا بأس .. هذا الفضل .
سأله (ماهر) في انفعال :
— متى يا (حسين) بك ؟ متى ؟
بلغ توتر (حسين) مبلغه ، وأراد أن ينهى تواجد (ماهر) بأى ثمن ،
فقال :

— الحميس القادم .. الحميس القادم بإذن الله .
صاح (ماهر) في فرح :
— أشكرك يا (حسين) بك .. أشكرك كثيراً .
واندفع يغادر المكان في لهفة ، وهو يتمنى أن ينقله بساط محرق إلى
(زينب) في طرفة عين ، ليبلغها البشرى ، دون أن يدرك أن صاحب الفضل في
سعادته هو نوع من العطر ..
عطر أميرة سابقة ..

٢٣١

٢٣٠

تم حفل زفاف (ماهر) و (زينب) في هدوء ، بعكس التقاليد المتبعة في ريف (مصر) ، في تلك الفترة ، واقتصر المدعوون فيه على أفراد أسرتي العروسين ، بالإضافة إلى العمدة والمأمور وزوجيهما ، وعلى الرغم من ذلك بدا (ماهر) و (زينب) وكأنهما يسبحان في بحر من الفرح والسعادة ، وإن بدا (حسين) ضجرًا ملولًا ، وكأنما يتعجل العودة إلى (القاهرة) ، التي لم يعد يحمل الاعتماد عنها ، منذ توطدت علاقته به (عايدة) ..

ولى ركن من أركان ردهة القصر ، حيث أقيم حفل الزفاف الهادئ ، مال العمدة على أذن المأمور ، وقال في ضيق :



— هل رأيت مثل هذا الجمود من قبل ؟ .. يقيمون حفل زفاف ، قبل أن ينقضى عام على وفاة والدهم ؟

تنهد المأمور ، وقال :

— ومنذ متى يهتم أبناء (البهاوى) بالأصول والأعراف .. إنهم حتى لا يرتدون الثياب المعتادة في القرية منذ نشأتم ، بل يصرون دومًا على ارتداء ثياب أهل المدن .

همس العمدة في حدة :

— هكذا أرادهم والدهم .

أضاف المأمور في مرارة :

— لعنة الله .

ثم أشار من طرف خفى إلى (مفيد) ، مستطرذا :

— ولكن انظر إلى آخر العنقود هذا .. يبدو أنه يشاركنا رأينا ، فهو لا يظهر أية شجة من السرور ، في حفل زفاف شقيقته .

غمغم العمدة في سخرية :

— حفل زفاف ؟! .. أتسمى ذلك الاجتماع العائلي حفل زفاف ؟

ابتسم المأمور في سرية بدوره ، وهو يقول :

— صدقت .

وفي الركن المقابل ، اتجهت (شريفة) نحو شقيقها (مفيد) ، وربت على كتفه ، هامسة :

— مالك تبدو حزينًا هكذا ؟ .. من يراك لا يتصور أبدًا أنه حفل زفاف

شقيقتك .

قال في مرارة :

— إننى أحاول الابتسام يا (شريفة) ، ولكن عقلى يأبى إقناع شفتى بهذا ،

وهو غارق في الحزن والمرارة حتى نخاعه .

ارتفع حاجباها ، وهي تهتف في دهشة :

— حزن ومرارة ؟!

ثم أمسكت كفه ، وقادته إلى حجرة جانبية ، وهي تقول :

— ثم أمسكت كفه ، وقادته إلى حجرة جانبية ، وهي تقول :

— هيا .. أخبرنا .. أى حزن هذا ؟ .. وأية مرارة ؟

رفع عينيه الحزبتين إليها ، وهو يقول :

— هل رأيت (عمر) زوج (نعيمة) ، بعد عودته من أبدي هؤلاء الثوار ؟

ضغط حروف الكلمة الأخيرة على نحو واضح ، وكأنما يكره النطق بها ،

فأجابت (شريفة) في اهتمام :

— لا .. لم أره ، ولكن (نعيمة) تقول إنه لم يخاطبها بحرف واحد ، منذ

عودته ، بل لم يلمسها ، أو حتى يقبل ابنته الصغيرة ، حتى ليخيل إليها أنه ..

أله ..

أكمل (مفيد) في مرارة :

— يكرهها .. أليس كذلك ؟

تمتمت في خفوت :

— بلى .. هذا هو المصطلح الذى استخدمته بالتحديد ، وهي تبكى في

حزن .. لقد لاحظت بالطبع أنه لم يحضر حفل الزفاف ، وإن لم يحاول منع

(نعيمة) من الحضور مع طفلتها .

تهد (مفيد) في ألم ، وقال :

— من الطبيعى أن يفعل هذا .. لقد أهين بشدة ، وامتهنت كرامته

والسانيته ، وكل هذا بسبب (حسين) ، شقيق زوجته ، ومن الطبيعى أن يهض

هذه الزوجة ، وأن يكره تواجده معها ، وهي التى تعلم بهوانه ومذله ، وأنا على

يقين من أنه لولا سلطة (حسين) ، لطلق (عمر) زوجته بلا تردد .

اتسعت عينا (شريفة) في هلع ، وهي تهتف :

— يطلقها ؟ .. لا يا (مفيد) .. لا تقل هذا .. الطلاق أمر بشع .

أجابها بنفس مرارته :

— كثيراً ما يكون عدم حدوثه أكثر بشاعة يا (شريفة) .

لم تستطع هضم الفكرة ، فهزت رأسها في عنف ، وكأنما تطردها في قوة ،

وقالت :

— دعك من أمر (نعيمة) و (عمر) ، وأخبرنى .. مارأيك لى (فاطمة) ،

ابنة عم (عبد الحميد) ؟

بداله ذلك الانتقال في الحديث عجباً ، فطلع إليها في دهشة ، وهو يقول :

— (فاطمة) ؟ .. ولماذا تطلين رأى فيها الآن ؟

ابتسمت في جذل طفولى ، وهي تقول :

— أريد أن أعرف رأيك .. هلا تصلح (فاطمة) كزوجة ؟

تضاعفت دهشته ، وهو يهتف :

— زوجة ؟ .. (فاطمة) ؟ .. ماذا تقصدين بالضبط ؟

قالت في لهفة :

— ألم تلاحظ شدة اهتمامها بـ (حافظ) ، وشدة ارتياحه هو لوجودها ؟

انخفض صوته ، وهو يقول :

— مرة أخرى ماذا تقصدين يا (شريفة) ؟

مالت نحوه ، وقالت في مرح :

— أقصد أن (فاطمة) تصلح زوجة لـ (حافظ) .

تراجع في حدة ، هاتفاً :

— ماذا ؟ .. هل تمزحين ؟

اعتدلت قائلة في جدية :

— مطلقاً .

ثم عادت تميل نحوه ، متابعة في خفوت :

— حاول أن تنظر إلى الأمر ، مثلما أنظر أنا .. لقد تزوجت (زينب)

الليلة ، ولن البت أن أتزوج أنا و (ناهد) ، وتنقل كل منا إلى منزل زوجها ، من

سريعى (حافظ) حينذاك ؟

أجاب في حماس :

— أنا .

هزت رأسها نفياً ، وقالت :

— لا تكن خيالاً .. حتى أنت متزوج يوماً ، ولن تقبل أن تعمل زوجتك
كخادمة لشقيقك ، ف (حافظ) بحالته هذه لا يحتاج لأكثر من خادمة ، ولكن
من تقبل رعايته من هذا المنطق ؟ .. أضف إلى هذا أن (فاطمة) تحسن رعايته ،
وأن زواجها منه سيمنحه خادمة رخيصة دائمة .

عقد حاجبيه في غضب ، وهو يقول :

— إننى أرفض هذا المنطق الأناني .

قالت في حدة :

— دعك من هذه الفلسفة الحمقاء .. إننى أجدها فكرة رائعة .

ثم أضافت في رجاء :

— وأريد منك أن تنقلها إلى (حسين) .

ازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يقول في صرامة :

— مستحيل .. قلت لك إننى أرفض هذا المنطق تماماً .

هفت في حدة :

— كما يحلو لك ..

ثم أضافت في حزم وترفع :

— سأخبره أنا .

لوح بكفه محققاً ، وهتف :

— هذا شأنك .

تركه بحركة حادة ، وراها تتجه مباشرة نحو (حسين) ، ونهس في أذنه
ببضع كلمات ، تطلع (حسين) بعدها إليها في حيرة ، ثم نهض من مقعده ، واتجه
معهما إلى حجرة جانيبه ، وهناك رآها (مفيد) تشرح وجهة نظرها لـ (حسين)

في حرارة ، ورأى الدهشة ترسم على وجه (حسين) في عطف ، ثم تتحول إلى
غضب واضح ، استقبلته (شريفة) في هدوء ، وهي تواصل شرح وجهة
نظرها ، فغمغم (مفيد) لنفسه في ضيق :

— مستحيل .. لن يوافق (حسين) على هذا المبدأ أبداً .

تهدد في مرارة ، وغادر مكانه إلى الردهة ، وبذل أقصى جهده ليرسم على
شفتيه ابتسامة هادئة ..

وفجأة عبر أذنه صوت (حسين) ، وهو يقول :

— عم (عبد الحميد) .. تعال .. أريدك هنا .

التفت إليه (مفيد) في دهشة ، وتضاعفت دهشته ، عندما رأى تلك
الابتسامة الظافرة على شفتى (شريفة) ، وهي تتجه إليه ، وتجلس إلى جواره ،
قائلة :

— رأيت ؟

حدق في وجهها في ذهول ، وهو يقول :

— هل وافق ؟ .. وبهذه السرعة المذهلة ؟

أجابته مزهوة :

— لقد رفض بشدة في البداية ، ولكنني شرحت له وجهة نظري ، وأخبرته
أن زواج (حافظ) من فتاة مستكينة مثل (فاطمة) ، سيزيل قلقنا الدائم بشأن
(حافظ) ، وسيضمن لـ (حسين) عدم حدوث أية اضطرابات مفاجئة في
المستقبل ، قد تعترض عمله أو سمعته .

بدا الضيق على وجه (مفيد) ، وقال :

— إذن فقد عزفت على أخطر أوتار (حسين) .. عمله وسمعته .

قالت في فخر :

— بالطبع .

أدار عينيه مرة أخرى إلى حديث وقف (حسين) مع (عبد الحميد) ،
وتغنى لو استطاع معرفة محور حديثهما ..

عنى من كل قلبه ..

أما بالنسبة لـ (عبد الحميد) نفسه ، فقد كانت المفاجأة مذهلة ..
لقد لبي نداء سيده ، وأقصى ما يدور بخلده هو أن (حسين) ميكلفه
عملاً ما ، ولكنه فوجئ بـ (حسين) يقول في صرامة :



— هل تحدث إليك أى شخص ، بشأن ابنتك (فاطمة) يا (عبد الحميد) ؟

شعر الرجل بالحيرة ، وهو يقول :

— فى أى شأن ياسيدى ؟

قال (حسين) فى ضجر عصبى :

— هل طلبها أحدهم للزواج ؟

كان (عبد الحميد) يعلم أن ابنته تفتقر كثيراً إلى الجمال والأنوثة ، بقامتها
المديدة ، وكفها العريضتين ، وصوتها الأجش ؛ لذا فقد غمغم فى حزن :

— لا ياسيدى .. ليس بعد ..

قال (حسين) فى توتر :

— حسناً .. إننا نطلبها للزواج ..

حدق (عبد الحميد) فى وجهه فى ذهول ، وهو يقول :

— تطلبها لماذا ياسيدى ؟

أجابه فى حدة :

— للزواج يا رجل .. هل أصابك الصمم ؟

ارتجف قلب (عبد الحميد) بين ضلوعه ، وانتقلت ارتجافته إلى جسده
كله ، وهو يردد :

— الزواج ياسيدى .. تطلب ابنتى أنا للزواج !؟

أجابه فى صرامة :

— نعم يا (عبد الحميد) .. ستزوج ابنتك أخى (حافظ) ..

اتسعت عينا (عبد الحميد) ، وهو يهتف مبهوئاً :

— (حافظ) !؟

قال (حسين) فى عنف :

— نعم يا رجل .. ابنتك (فاطمة) ستزوج سيدها (حافظ) بك

النهاوى) .. ألدبك اعتراض على هذا ؟

لم ينبس (عبد الحميد) ببنت شفة لحظات طويلاً ..

لقد صدمه اختيار (حافظ) كزوج لابنته الوحيدة ..

صحيح أن (فاطمة) تفتقر كثيراً للجمال والأنوثة ، ولكن القرية كلها

تعلم أن (حافظ النهاوى) قد فقد عقله ..

كيف تتزوج ابنته رجلاً مجنوناً ؟ ..

طال صمته ، فسأله (حسين) مرة أخرى :

— ألدبك اعتراض ؟

كان صوت (حسين) هذه المرة يجمع ما بين الحزم والصرامة والتهديد والوعيد . فلما جعل (عبد الحميد) ينكمش داخل نفسه في خوف وانكسار . وهو يتنسم في خفوت بدا عسيرا على السمع :

— (فاطمة) خادمتكم وجاريتكم ياسيدى ؟

قال (حسين) في سرعة ، وكأنما يرغب في إتمام هذه الفكرة المجنونة ، قبل أن يرفضها عقله :

— عظيم .. أبلغها أن تستعد إذن ، فسنعقد قرائها على (حافظ) الليلة ، قبل أن ينصرف الشيخ (كامل) ، مأذون القرية .

هتف الرجل في ارتياح :

— الليلة ياسيدى ؟! ولكنها مفاجأة ، ولم نستعد أنا ووالدتها ، و.....

قاطعه في حزم ضجر :

— إننا لا ننتظر منكم شيئا يا (عبد الحميد) .. هيا سأسافر إلى (القاهرة)

في منتصف الليل ، وأحب أن ينتهى كل شيء ، قبل أن أذهب .. هيا .

خفض (عبد الحميد) رأسه في انكسار ، وتقم في استسلام مرير :

— كما تأمر ياسيدى .. كما تأمر .

وانصرف بخطوات ثقيلة مريرة ، تاركاً خلفه (حسين) ، يغمغم في توتر :

— فكرة جنونية بحق ، ولكنها ستعطينا من القلق الدائم على (حافظ) .

ثم أدار عينيه إلى حيث تجلس (شريفة) ، واستطرد :

— بقى أمر واحد ، وأمحو كل المشاكل من عقلى .

واتجه نحو (شريفة) ، وقال في حزم :

تعالى يا (شريفة) .. أريد التحدث إليك .

تبعته في هفة ، حتى انتقلا إلى الحجرة الجانبية ، فأسرعت تسأله :

— هل وافق (عبد الحميد) ؟

هتف مستكبرا :

— وافق ؟! .. ليس له حق القبول أو الرفض .. لقد وافق على الرغم من أنفه .. وسيم عقد القران الليلة .

هتفت مشدووه :

— الليلة ؟! .. ولكن ..

قاطعها في ضيق :

— دعى لى هذه الأمور .. إننى لم أنفرد بك لاستشارتك فى هذا ، أو إبلاغك بما تم .. فقط أريد أن تعلمى أن أحد ضباط الجيش سيأتى لخطبتك هنا ، الخميس القادم .

ارتجف قلبها ، وهى تهمس في انفعال :

— سيأتى لخطبتى .

بدت السعادة واضحة على شفتيها وملاحظها كلها ، و (حسين) يضيف :

— استعدى لمقابلته ، عليك إعداد وليمة فاخرة ، بالتعاون مع (ناهد)

و (فاطمة) ، ولا أريد أن يظهر (حافظ) أو (فاطمة) فى أثناء تواجد

اليوزباشى (فؤاد) .

سأله فى هفة :

— هل يدعى (فؤاد) ؟

أوما برأسه إيجابا ، وقال فى ضجر :

— نعم .. وهو شقيق أحد رجال مجلس قيادة الثورة .

سأله فى حياء :

— أهو وسيم ؟

ابتسم فى سخرية ، وهو يقول :

— إنه شقيق أحد الكبار .. وهذا يكفى .

وصمت لحظة ، ثم إضاف :

— ولكنه ، على الرغم من هذا ، وسيم بالفعل .

تهللت أساريرها على نحو واضح ، فضحك وقال :
— هيا .. اذهبي إلى (حافظ) ، وأخبريه أنه سيتزوج الليلة من (فاطمة) .
هيا .

هتفت في جذل :

— شكراً يا (حسين) .. شكراً يا أخى العزيز .
انطلقت والفرحة تملأ صدرها ، إلى حجرة شقيقها (حافظ) ..
وبدت لها هذه الليلة من أجمل ليالى العمر كله ..
وكيف لا ؟ ..

لقد تم فيها زفاف (ماهر) و (زينب) ..
وسيم بعد قليل عقد قران (حافظ) و (فاطمة) ..
وفيهما أعلنها شقيقها بخطبتها إلى ضابط وسيم ، من رجال الثورة ..
الليلة تبدو لها بالفعل من أجمل ليالى العمر ..
ولكن من يدري ماذا يخفى القدر في طياته ؟ ..
من يدري ؟ ..

٢٩ — تصريح سفر ..

تطلع (رفعت كساب) إلى (حسين) طويلاً في صمت ، وهذا الأخير
يقف أمامه قلقاً ، في حجرة مكتب (رفعت) ، الذى قطع صمته ، وهو يتراجع
بمقعده ، ويشعل سيجارته ، قائلاً في براء :

— إذن فأنت ستزوج الأميرة (عائدة) ؟

أجابه (حسين) بلهجة عسكرية صرفة :

— تماماً ياسيدى .

نفث (رفعت) دخان سيجارته مرة أخرى ، وسأله :

— وهل وافقت هى على هذا الزواج ؟

أجابه (حسين) في دهشة :

— بالطبع ياسيدى .

هز (رفعت) رأسه في حيرة ، وكأنها يرفض تصديق هذا ، إلا أنه لم يلبث أن
قال :

— ربما .

ثم ابتسم ، مستطرداً :

— ألف مبارك إذن يا (حسين) .. سيكون من الطريف حقاً أن يتزوج ابن
مكافح مثلك من أميرة سابقة .

ومال نحوه ، مضيفاً بابتسامة أكبر :

— وماذا تريد كهدية زواج ؟ .. سيارة ؟

ابتسم (حسين) ، وهو يقول :

— إننى أمتلك سيارة بالفعل ياسيدى ، وشقة فاخرة ، مؤنثة على أحدث
طرازاً ، أهديتها إلى إياها .

ضحك (رفعت) في زهو : وقال :

— حسنًا .. ماذا تريد ؟

أجابه (حسين) في لهفة :

— تصرخ بالسفر ياسيدى .

اتسعت ابتسامة (رفعت) كثيرًا ، وهو يقول :

— هل تنوى قضاء شهر العسل في (أوروبا) ؟

هز (حسين) رأسه نفيًا ، وقال :

— لا ياسيدى .. كل ما أريده هو تصرخ بسفر (عائدة) إلى (باريس) ،

لشراء ثوب الزفاف .

عقد (رفعت) حاجبيه ، وعاد يتراجع بمقعده ، متممًا :

— لشراء ثوب الزفاف ؟ فقط ؟

أجابه (حسين) في بساطة :

— فقط ياسيدى .

ران الصمت على الحجرة لحظات ، و (رفعت) ينفث دخان سيجارته ،

ويتطلع إلى (حسين) في اهتمام ، قبل أن يعتدل قائلاً :

— فليكن يا (حسين) ، سأمنحها تصرخ السفر هذا .

تهللت أسارير (حسين) ، وهو يقول :

— شكرًا لك ياسيدى .. شكرًا لك .

غادر حجرة (رفعت) ، واتجه إلى مكتبه في سعادة ، ورفع سماعة هاتفه ،

وطلب رقم (عائدة) ، ولم يكذب يسمع صوتها ، حتى قال :

— (عائدة) .. لقد حصلت على تصرخ السفر .

خيل إليه أن صوتها كان يحمل قدرًا هائلًا من السعادة والفرح ، وهي تهتف :

— حقًا !!

أجابه في فرح لفرحتها ، مع شيء من الزهو بنجاحه :

— بالطبع يا عزيزتى .. لقد سألتنى إياه ، وكان من الضروري أن أحضره لك .

سألته في لهفة عارمة قوية :

— ومتى أسافر إلى (باريس) يا (حسين) ؟ .. متى ؟

أجابه في سرعة :

— في أقرب فرصة بإذن الله .

ثم أضاف في لهفة محب عاشق :

— المهم متى أراك ؟

أجابت في سرعة :

— الليلة لو أردت .

قال في سعادة :

— فليكن .. سنلتقى الليلة في منزلى .. في التاسعة .

قالت في لهفة :

— حسنًا .. ولكن لاتنس إحضار تصرخ معك .

أجاب في حنان :

— لن أنسى أبدًا .

لم يكذب ينهى الاتصال ، حتى دلف (إبراهيم مكى) إلى المكتب ، وبدت

ابتسامته المقيمة أشد سخرية وخجًا ، وهو يقول :

— لقد استخرجنا لك تصرخ السفر .

تمم (حسين) في ضيق :

— شكرًا لك .

جلس (إبراهيم) على المقعد المواجه لمكتب (حسين) ، وقال في هدوء ،

لا يخلو من الخبث :

— هل تريد تصرخ الآن ؟

قال (حسين) في حذر :

— لو أمكن هذا .

ناول (إبراهيم) ورقة تحمل موافقة سفر الأميرة (عائدة) ، مذيلة بتوقيع
(رفعت كساب) ، وخاتم قيادة الثورة ، وتناول (حسين) الورقة في حذر ،
ودسها في جيبه ، وهو يكرر :
— شكرًا لك .

ساد الصمت لحظات ، ثم سأله (إبراهيم) في خبث :
— هل تثق في الأميرة (عائدة) حقًا ؟
أجابه (حسين) في ضيق :
— إنها ستصبح زوجتي .
ابتسم (إبراهيم) ابتسامة ساخرة ، وهو يقول :
— إذن فأنت تثق فيها تمامًا .
أجابه (حسين) في حزم :
— تمام الثقة .

مط (إبراهيم) شففيه ، وهز رأسه ، قائلاً :
— يبدو أننا نختلف تمامًا في هذه النقطة .
غمغم (حسين) :

— هذا لو أننا نتفق في أية نقاط أخرى .
تجاهل (إبراهيم) هذا التعليق تمامًا ، وأكمل :
— إنني لا أثق في أية أميرة سابقة .
تمم (حسين) ساخرًا :

— فلنحمد الله أنني لا أشاركك نفس العقد النفسية .
أطلق (إبراهيم) ضحكة تهكمية عالية ، وقال :
— إنك لم تشاركني أيضًا سنوات عملي في خدمة الملك والأمراء
والأميرات .

أجابه (حسين) على نحو أقرب إلى الاستفزاز :

— وإنني لأفخر بهذا .
ابتسم (إبراهيم) في استخفاف ، وتابع وكأنه لم يسمع تعليق (حسين) :
— إن هؤلاء الذين يتربعون على قمة السلطة ، لا يسهل عليهم التخلي عن
مواقفهم المتميزة أبدًا .. قد يتعاملون مع من هم أقل منهم منزلة ، ولكن في سبيل
مصالحهم فحسب .

قال (حسين) في حزم :
— هذا رأيك .

ابتسم (إبراهيم) في استخفاف ، ونهض قائلاً :
— بالطبع .

ونفض مستطرذا في خبث :
— أتمنى لك زواجًا سعيدًا .
تمم (حسين) :
— شكرًا لك .

وانتظر حتى انصرف (إبراهيم) من مكتبه ، وأضاف في حق :
— يالك من حاسد مغرور ؟
وعاد إلى أحلامه بقاء (عائدة) في المساء ..
وعاد إلى نبض قلبه بحبها ..

لم يكد رنين جرس باب منزله يرتفع هذا المساء ، حتى هرع إلى الباب في
لهفة ، وفتحه على مصراعيه ، وهو يهتف :
— (عائدة) .

شملة الاتيهار من قمة رأسه حتى اخمص قدميه هذه المرة ..
لقد كانت (عائدة) ساحرة فاتنة ..

كانت أجمل وأروع من كل المرات ، التي رآها فيها من قبل ..
وكانت تبسم أروع ابتسامة وقعت عليها عيناه ، في عمره كله ..



وأمسك كفها بأصابع مرتجفة ، وهو يحدق في عينيها ، قائلاً :
 — (عايذة) .. أنت اليوم فاتنة .
 ضحكت في ثقة ، وانفلتت من بين يديه ، وخطت داخل المنزل ، وهي
 تقول :
 — أعلم هذا .
 ثم التفتت إليه ، تسأله في لهفة :
 — هل أحضرت تصرع السفر ؟
 التقط التصرع من جيب روبة المنزلى ، وناولها إياه ، وهو يقول مبتسماً :
 — ها هو ذا .
 اختطفته من يده في لهفة ، وقرأته في سرعة ، ثم تهدت في ارتياح ، فاقترب هو
 منها ، وأحاط وسطها بذراعيه ، وهو يقول :
 — ألا أستحق مكافأة ؟
 غمغمت :
 — بالطبع .
 إلا أنه لم يكن يميل نحو وجهها بوجهه ، حتى أزاحته عنها ، وأسرعت تشعل
 سيجارتها ، وهي تقول :
 — قل لي : متى يمكنني السفر إلى (باريس) ؟
 ضايقه ابتعادها عنه ، وإشعالها سيجارتها ، فجلس على أول مقعد صادفه ،
 وهو يقول :
 — صباح الجمعة القادم .
 هتفت محنقة :
 — صباح الجمعة ؟! .. بعد أربعة أيام كاملة ؟!
 أجابها في ضيق :
 — كان هذا هو أول موعد ممكن .

تراجعت عن ثورتها في سرعة ، وغمغمت :
 — فليكن .. لقد انتظرت طويلاً ، ولن يضيرني أن أنتظر أربعة أيام أخرى .
 ثم جلست على مسند مقعده ، وداعبت شعره ، وهي تضيف في دلال :
 — إنني أتعجل زفافنا كثيراً .
 حاول أن يضمها إلى صدره مرة أخرى ، ولكنها أفلتت منه ، وهي تطلق
 ضحكة عابثة ، والتقطت حقيبتها ، قائلة :
 — سأصرف الآن .
 هتف في دهشة وغضب واستكار :
 — تنصرفين ؟! .. مستحيل !.. لقد حضرت منذ لحظات .
 قالت في لامبالاة :
 — الظروف تحم انصرافي مبكرة الليلة ..
 وداعبت شعره مرة أخرى ، مستطردة :
 — لقد فكرت في الاعتذار ، ولكنني لم أحتمل فكرة عدم رؤيتك الليلة .
 سألها في اشتياق :
 — ومتى أراك ثانية ؟
 مطت شفيتها ، وهزت كفيها ، قائلة :
 — الخميس مثلاً ؟
 قال في ضيق :
 — لقد دعوت أحد زملائي لتناول الغداء في سراي الأسرة ، يوم الخميس .
 قالت في استهتار :
 — يمكنك تأجيل الدعوة .
 أجاب في توتر :
 — مستحيل .. إنه متقدم لخطبة شقيقتي (شريفة) .
 ابتسمت في سخرية ، وقالت :
 — ابق معه إذن ، ولنلتق صباح الجمعة ، وأنت توصلني إلى المطار .

قال في خفوت :
 — سأشتاق إليك كثيراً .
 أجابته في سرعة :
 — وأنا أيضاً .. إلى اللقاء .
 غادرت منزله في خطوات سريعة ، دون أن تضيف حرفاً آخر ، وبقي وحده
 في المنزل محنقاً ، حزيناً ، وغمغم :
 — لا بأس .. لن تلبث أن تصبح زوجتي ، ونقضي معاً عمرنا كله .
 وفي تلك اللحظة ابتسم القدر ..
 ابتسم في سخرية ..

٣٠ - الصدمة ..

بدا الاستعداد لدعوة الغداء منذ فجر الخميس ، حيث استيقظت (شريفة)
مبهجة ، وأيقظت (ناهد) و (فاطمة) ، ورحن يطهين أصناف الطعام في
حماس ، على الرغم من معرفتهن بأن الوليمة لن تضم هذه المرة سوى ضيف
واحد ..

ولكن هذا الضيف كان العريس المنتظر ..

عريس (شريفة) ..

وفي عبت مرح ، هتفت (ناهد) :

— لم يعد باقيا سوى .

ضحكت (شريفة) ، وهي تقول :

— لا تقلقى بشأن هذا ، فأنت أكثرنا جمالا ، وستهافت الشاب لخطبتك .

قالت (ناهد) في دلال :

— حقا .

ضمتها (شريفة) إلى صدرها ، وقالت :

— بالتأكيد يا شقيقتي العزيزة .. يبدو أن أمنا (رحمها الله) قد ادخرت

الجمال كله لك .

ضحكت (ناهد) في مرح وسعادة ، وقالت :

— وعلى الرغم من ذلك ، سأكون آخر من تتزوج .

غمغمت (فاطمة) بصوتها الأجش :

— من يدري ؟

صاحت بها (شريفة) في غلظة :

— اخرسى ، وأكمل طهو الأرز في صمت .
مطت (فاطمة) شفتيها في اعتراض ، وهي تقول :
— لماذا تتعاملان معي على هذا النحو ؟ .. إننى زوجة شقيقكما .
هتفت بها (ناهد) :
— ماذا تقولين ؟ .. إياك أن تضعى تلك الفكرة الحمقاء في رأسك
الأجوف .. لقد كنت ، وما زلت ، وستظلين مجرد خادمة .
غمغمت (فاطمة) في غضب :
— كيف ؟ .. إننى زوجة شقيقكما (حافظ) ، على سنة الله ورسوله .
أطلقت (شريفة) ضحكة ساخرة ، وقالت :
— يالك من مسكين يا (حافظ) !
وهتفت (ناهد) :
— ضعى في رأسك دوما أن زواجك من (حافظ) كان مجرد وسيلة لتوفير
خادمة دائمة له ، وأن
انطلق فجأة صوت صارم غاضب يهتف :
— (ناهد) .
التفتت (ناهد) إلى مصدر الصوت في ضيق ، وهي تقول :
— (مفيد) .. لقد أفرغتني .
صاح بها غاضبا :
— كيف تتعاملين مع زوجة شقيقك على هذا النحو ؟
ألقت (ناهد) نظرة ازدراء على (فاطمة) ، وقالت في استمزاز :
— زوجة شقيقى ؟ ..! هل ستوافقها على هذه السخافة ؟
قال في حزم :
— السخافة هى ما تقولين يا (ناهد) ، ف (فاطمة) هى زوجة (حافظ)
شرعيا ورسما ، شئت هذا أم أبيت .

مصمصة (شريفة) شفتيها ، وقالت :

— من سوء حظه .

أجابها في حدة :

— وباختيارك وإصرارك .

قالت في سخرية :

— كنت عمياء القلب حينذاك .

صاح في غضب :

— كفى .. إنك ..

كانت المقاطعة من نصيبه هو هذه المرة ، عندما اندفع (عبد الحميد) داخل المطبخ ، هاتفاً :

— لقد وصل (حسين) بك وضيفه .

أسرع (مفيد) يستقبل (حسين) و (فؤاد) ، في حين بدا الارتباك على (شريفة) ، وهي تردد :

— وصلا .. وصلا .

ضحكت (ناهد) وقالت :

— نعم .. لقد وصلا ، وعلى العروس أن تترك المطبخ ، وتزين ، تمهيداً لمقابلة العريس .

وصحبتها إلى خارج المطبخ ، مستطردة في حراممة :

— أريد كل شيء معداً لحظة الغداء يا (فاطمة) .. هل تفهمين ؟

تمتمت (فاطمة) في استسلام :

— أفهم .

ثم انحدرت من عينيها دمعة ..

دمعة هوان ..

استقبل (مفيد) (حسين) وضيفه في ترحاب ، واتخذ الثلاثة مجلسهم في حجرة الضيوف ، وقال (فؤاد) :

— رائع هو هذا السراى يا (حسين) .. لقد أبدع والدك تأنيته .

تمم (حسين) مزهواً :

— إنه بيت العائلة يا (فؤاد) بك .

أوماً (فؤاد) برأسه متفهماً ، وقال :

— ونعم العائلة .

وبسرعة اتصل الحديث بين الثلاثة ، حول أحوال البلد والسياسة ، وبدا (مفيد) متحفظاً إلى حد كبير ، وكأنما يخشى إثارة غضب شقيقه ، أو حزن (شريفة) لو أنه صرح عريسها المنتظر برأيه الحقيقي فيما يحدث ..

ومن خلف باب الحجرة التى تصل ما بين ردهة السراى وحجرة الضيوف ،

اختلست (شريفة) و (ناهد) النظر إلى (فؤاد) ، وهمست (شريفة) في

سعادة :

— انظرى يا (ناهد) .. كم هو وسيم وأنيق في زيهِ العسكرى !!

ربت (ناهد) على كنفها في حنان ، وهي تقول :

— مبارك يا شقيقتى العزيزة .. إنه يبدو لائقاً لك تماماً .

راحتا تحتلسان النظر والسمع طويلاً ، حتى هتف (حسين) :

— ألن نتناول طعام الغداء ؟

أسرعتا إلى المطبخ ، وارتجفت (شريفة) ، وهي تحمل الأطباق إلى حجرة

الضيوف ، وهمست لأختها في ارتباك :

— إننى أشعر بخجل شديد .

ضحكت (ناهد) قائلة :

— هذا شأن كل عروس .



نهض (فؤاد) واقفاً ، عندما رأهما تدلفان إلى الحجرة ، وترصان أطباق الطعام على المائدة ، وقال (حسين) ، وهو يقدم له (شريفة) :
 — أختي (شريفة) .
 وابتسم مستطرداً :
 — العروس .
 احمر وجه (شريفة) خجلاً ، في حين صافحها (فؤاد) في احترام ، قائلاً :
 — تشرفنا .
 سحبت يدها من يده في حياء ، وأسرعت عائدة إلى المطبخ ، وهي ترتجف من فرط الانفعال ، في حين قدم (حسين) (ناهد) إلى (فؤاد) ، قائلاً :
 — شقيقتي الصغرى (ناهد) .
 ضحكت (ناهد) في مرح ، وهي تصافح (فؤاد) ، قائلة :
 — آخر عنقود بنات العائلة .

أضاف (فؤاد) مبتسماً :
 — يقولون إن آخر العنقود هو أكثره حلاوة .
 ضحكت قائلة :
 — يبدو أنهم على حق .
 التفت (فؤاد) إلى (حسين) ، وسأله ضاحكاً :
 — هل يعني هذا أن خطيبتك الأميرة (عائدة) آخر عنقود أيضاً ؟
 استدارت العيون إلى (حسين) في دهشة ، وبدا هذا الأخير مرتبكاً ، وهو يقول :
 — نعم .. هي كذلك .
 سأله (ناهد) :
 — هل خطبت أميرة ؟
 ابتسم في زهو ، قائلاً :
 — نعم .. وسيم زفافنا قريباً .
 بدا الضيق على وجه (مفيد) ، وهو يقول :
 — ولماذا لم نخبرنا من قبل ؟
 قال في صرامة :
 — كنت أنتظر الوقت المناسب .
 ضحك (فؤاد) ، وقال :
 — وأنا اخترت هذا الوقت المناسب .
 قال (حسين) ، محاولاً التخلص من حرج الموقف :
 — هيا تناول الطعام ، قبل أن يبرد .
 تركهم (ناهد) يتناولون طعامهم ، وأسرعت إلى المطبخ ، وقالت لشقيقتها (شريفة) في سعادة :
 — (حسين) سيتزوج أميرة يا (شريفة) .. الأميرة (عائدة) .

هتفت (شريفة) في فرح :
 — أميرة !؟ حقا !؟ .. إن (حسين) يستحق زوجة كهذه بالفعل .
 ثم التفتت إلى (فاطمة) ، وأضافت في ازدراء :
 — حتى لا يسوء حظه كـ (حافظ) .
 عقدت (فاطمة) حاجبيها ، دون أن تبس بينت شفة ، في حين صفقت
 (ناهد) بكفيها في جذل طفولي ، قائلة :
 — زوجة شقيقنا (أميرة) ، يالها من روعة !
 ثم أمسكت يد (شريفة) في قوة ، مستطردة في فرح :
 — وأنت ستكونين زوجة أحد رجال الثورة .. رأيت كم تقفز أسرتنا
 إلى أعلى ؟
 شردت (شريفة) ببصرها ، وانحدرت دمعة على وجتها ، وهي تقول :
 — هذا ما تمناه أبى في حياته .
 مسحت (ناهد) دمعة (شريفة) بأصابعها ، وهي تقول :
 — لادموع اليوم .
 ثم أضافت في مرح :
 — دعينا نختلس السمع إلى الرجال ، لنعرف ماذا يقولون عنا .
 وافقتها (شريفة) بإيماءة هادئة من رأسها ، وصحبها إلى الحجرة المجاورة
 لحجرة الضيوف في لفظة ، في نفس اللحظة التي انتهى فيها الرجال من تناول
 طعامهم ، وقال (فؤاد) مبتسماً :
 — غداء رائع يا (حسين) .. كما عودتنا دوماً .
 أجاب (حسين) في فخر وسعادة :
 — يسعدني أن راق لك يا (فؤاد) بك .
 قال (فؤاد) في حماس :
 — بالتأكيد .
 واتخذ لنفسه مقعداً ، وأشعل سيجارته ، ونفث دخانها في عمق ، وقال :

— أنت تعلم بالطبع أنني أرغب في الزواج من شقيقتك يا (حسين) ..
 ليس كذلك ؟
 أوماً (حسين) برأسه إيجاباً ، وقال :
 — بلى يا (فؤاد) بك .. لقد أخبرني (رفعت بك كساب) وهذا شرف
 كبير لأسرتنا .. ولن أجد لشقيقتي (شريفة) زوجاً أفضل ، و.....
 قاطعه (فؤاد) ، وهو ينفث دخان سيجارته في هدوء :
 — هذه هي المشكلة .
 سأله (حسين) في دهشة :
 — أية مشكلة ؟
 مال (فؤاد) إلى الأمام ، وقال :
 — إنني لا أريد الزواج من (شريفة) .
 كاد قلب (شريفة) يتوقف ، عند سماعها هذه العبارة ، في حين سأله
 (مفيد) في دهشة :
 — ماذا تعني ؟
 ابتسم (فؤاد) في هدوء ، وهو يقول :
 — أريد (ناهد) .. أريد الزواج من (ناهد) ، لا (شريفة) .
 وكانت صدمة لـ (شريفة) ..
 صدمة قاسية ..

أطلقت الأميرة (عائدة) ضحكة عالية ، وهي تجلس إلى جوار (حسين) ،
في سيارة هذا الأخير ، التي تنطلق بهما إلى المطار ، والتفتت إليه تقول :
— طلب يد (ناهد) بدلاً من (شريفة) !.. ياله من موقف !.. وماذا
فعلت أنت !؟

— لم أدر ماذا أقول .. لقد هزنتى المفاجأة من الأعماق ، فطلبت منه مهلة
للتفكير .

وزفر مرة أخرى ، قبل أن يهتف محققاً :

— ولكن لماذا وضعنى في هذا المأزق الحرج ؟

ابتسمت (عائدة) في سخرية ، وهي تقول :

— لأنه الآن أشبه بطفل مدلل ، حاز شقيقه كل السلطة بضربة واحدة ،
وهو لا يتصور أن يرفض مخلوق مطلبه ، مهما بلغت غرابته .

لم ينبس (حسين) ببنت شفه ، وإن عقد حاجبيه في ضيق ، فداعبت
(عائدة) شعر رأسه ، وهي تستطرد :

— ولن يمكنك رفض مطلبه .. أليس كذلك ؟

قال في مرارة :

— لا يمكننى هذا .. أنت تعلمين شقيق من هو ، ولكن المشكلة أن (ناهد)
ترفض الزواج منه ، حتى لا تجرح شقيقتها ..

مطت (عائدة) شفتيها ، وقالت :

— غيبة .

ارتفع حاجبا (حسين) في دهشة ، وهو يقول :

— غيبة ؟!.. ولكنها تساند شقيقتها ، التي جرح مطلب (فؤاد) مشاعرها
إلى أقصى حد .

قالت في حدة :

— أية مشاعر ؟!.. إن (شريفة) لم ترتبط بـ (فؤاد) هذا من قبل ،
ولا تجمعهما قصة حب أو هيام .. إنه مجرد شاب تقدم لخطبتها ، ولقد وقع
اختياره على شقيقتها ، وهذا حقه .
أجاب في ضيق :

— ربما كان هذا منطق العصر ، ومنطق المدن ، ولكن هذا يختلف في
الأرياف ، فـ (شريفة) هي الأخت الأكبر ، ومن الضروري أن تتزوج قبل
(ناهد) .

لوححت بكفها في حزم :

— لا توجد ضروريات فيما يتعلق بالزواج .

بدا الضيق على وجهه ، فمالته نحوه ، وأبدلت لهجتها بأخرى ناعمة دافئة ،
وهي تقول :

— ولكن دعنا من هذا .. سأشتاق إليك كثيراً في (باريس) .

قال وهو يرنو إليها في حب جارف :

— سأشتاق أنا إليك أكثر هنا ..

ثم ضغط كفها بأصابعه في حرارة ، مستطرداً :

— أرسل لي برقية فور وصولك إلى (باريس) يا (عائدة) .. أرجوك .

ابتسمت ابتسامة ساخرة ، وهي تقول :

— اطمئن يا حبيبي .. سأفعل بكل سرور .

قال في لهفة .

وعودى بسرعة .

أطلقت ضحكة عالية ، وأشاحت بوجهها عنه ، وتطلعت إلى المطار الذي
يقترّب في سرعة ، وقالت :

— سأحاول يا (حسين) .. سأحاول .
ولكن لهجتها كانت تحمل شيئاً لم يرق له ..
شيئاً غامضاً ..
ومخيفاً ..

احتضنت (ناهد) شقيقتها (شريفة) في قوة ، وهي تهتف مخلصاً :
— لن أقبل يا (شريفة) .. لن أقبل هذا الزواج أبداً .
أزاحتها (شريفة) ، وقالت في مرارة :
— لماذا يا (ناهد) ؟ .. إنه يطلبك أنت لا أنا ، وهذا حقه .
صاحت (ناهد) :



— لعنة الله عليه .. إنه لن يفرق بيننا ، لن أتزوج ما دام يرفضك .
انحدرت دمعة من عيني (شريفة) ، وهي تقول :
— لن يسمح (حسين) بهذا .
قالت في عناد :
— إنه لم يوافق بعد .
— ولكنه سيفعل .

من المستحيل . أن يسمح له (حسين) بإيذائك .
— أنت تجهلين طبيعة (حسين) إذن .. إنه لن يخاطر برفض شقيق أحد
أعضاء مجلس قيادة الثورة .
— ولكنني أرفضه .
— لن يعنيه هذا كثيراً .
— مستحيل يا (شريفة) .. مستحيل !
— لماذا يا (ناهد) ؟ .. إنه مجرد زواج تقليدي .. إنني لم أرتبط مع هذا
الضابط بقصة حب ، حتى أنهار مجرد زواجك منه .
— ولكن ..
— تزوجيه يا (ناهد) .
نطقت (شريفة) العبارة الأخيرة في صرامة وحزم ، وكأنها قد حسمت
رأيها ، واتخذت قرارها في هذا الشأن ، فطلعت إليها (ناهد) في حيرة ، ورأت
كيف أن دموع شقيقتها قد جفت أو نفذت ، فتمتمت :
— (شريفة) .. صدقيني .. إنني ..
قاطعتها (شريفة) في حزم :
— (فؤاد) شاب جيد يا (ناهد) ، ومن الخطأ ألا تصاهره أسرنا ، ثم إن
مصاهرتنا له ستمنحنا القوة ، التي حلم بها والدنا (رحمه الله) طيلة عمره ، ولن
أسمح لنفسي بأن أكون السبب في عدم تحقيق حلم أبي .
تطلعت إليها (ناهد) في خيرة ، ثم خفضت عينيها مغممة :
— سيفعل الله (سبحانه وتعالى) ما فيه الخير حتماً ..
وغادرت الحجرة في خطوات بطيئة ، ولم تكد تغلق الباب خلفها ، حتى
انهار قناع التماسك على وجه (شريفة) ، وانفجرت باكياً ..
كانت أول صفة لأنوثتها ..
وأقصى صفة ..

ابتسم (إبراهيم مكى) ، وهو يدلّف إلى حجرة (حسين) ، الذى نهض واقفاً ، وقال فى لهجة لا تحمل أية مشاعر :

— مرحباً بك فى مكثي .

جلس (إبراهيم) على أقرب مقعد إلى مكتب (حسين) ، وقال بלהجته الغامضة المقلقة :

— لقد رأيت أن أفضى معك بعض الوقت .. هل يضايقك هذا ؟

كان (حسين) يضيق بالجلوس مع (إبراهيم مكى) بالفعل ، إلا أنه جلس فى بساطة ، وهو يقول :

— مطلقاً .

ران عليهما الصمت لحظات ، وكلاهما يتطلّع إلى الآخر ، وكأنما ينتظر منه بدء الحديث ، ثم لم يلبث (إبراهيم) أن قال فى هدوء ، وبابتسامة لم ترق لـ (حسين) أبداً :

— لقد سافرت الأميرة (عايدة) .. أليس كذلك ؟

بدا الضيق على وجه (حسين) ، وهو يقول :

— نعم .. لقد سافرت هذا الصباح .

لم ترق له لهجة (إبراهيم) هذه المرة أيضاً ، وهو يقول :

— وهل سعود ؟

عقد (حسين) حاجبيه ، وهو يقول فى صرامة :

— بالطبع .

أطلق (إبراهيم) ضحكة قصيرة ساخرة خبيثة ، جعلت (حسين) يقول فى توتر :

— ما الذى تسمى إليه بالضبط ؟

أجابه (إبراهيم) :

— إننى أشفق عليك فى الواقع .

قال (حسين) فى عصيئة :

— ومن قال إننى أحتاج إلى شفقتك ؟

مال (إبراهيم) نحوه ، وقال فى بطاء وبرود :

— لو أنك لا تحتاج إليها الآن ، فستسعى إليها غداً .

قال (حسين) فى جدّة :

— أتحدّاك .

تراجع (إبراهيم) ، هاتفاً فى سخرية :

— تتحدّانى ؟!

ثم أطلق ضحكة تهكميّة مجلجلة ، انتزعت (حسين) من خلف مكبه ، وجعلته يهتف فى غضب :

— لماذا تتعمّد إثارتى ؟

ألقي عليه (إبراهيم) نظرة مستهترة ، مردّداً :

— إثارتك ؟

ثم عاد يميل نحوه ، مستطردّاً :

— لا تكن كالزوج ، آخر من يعلم يافسى ، إن (عايدة) لن تعود إلى (مصر) أبداً .

تفاقرت شياطين الغضب من وجه (حسين) ، وهو يهتف :

— أى قول أحق هذا ؟

أجابه (إبراهيم) فى سخرية :

— القول الحق ، الذى لم تشعر به أبداً أيها الغرّ الساذج ، والذى شعرنا به

كلنا .. لقد كانت (عايدة) تلعب بك ، وتتخذك وسيلة للحصول على تصريح

بالسفر إلى (باريس) ، حيث الأموال التى هربت إلى هناك ، والمجوهرات التى

تكفل لها العيش فى المستوى الذى ألفتة .

شحب وجه (حسين) ، وهو يجلس على مقعده فى بطاء ، مغمغماً :

— وسيلة ؟!



تابع (إبراهيم) في تهكم :
 — كلنا كنا نعلم هذا .. أنا و (رفعت) بك .. وحتى القادة الكبار ، ولكننا
 رأينا أنك تحتاج إلى درس قوى ، لتعلم كيفية التعامل مع هذا العهد الجديد ،
 ووجدنا أنه لن يضرنا كثيراً أن نسمح لـ (عايدة) بالفرار ، لنربح ضابطاً قوياً في
 هذا المجال الجديد .

ردّد (حسين) في شحوب :

— مستحيل !

ثم اعتدل بفتة ، مستطرداً في جدّة :

— إنها خدعة جديدة .. أليس كذلك ؟

هزّ (إبراهيم) رأسه ، وقال :

— مطلقاً .

والتقط من جيبه برقية مطوية ، ناو لها إلى (حسين) ، قائلاً :

— وهذا هو الدليل .

مدّ (حسين) أصابعه المرتجفة نحو البرقية ، والتقطها من بين أصابع (إبراهيم) ،
 وبذل جهداً لفحصها ، مع ارتجاف أصابعه الشديد ، ولم يكد يقرأ الكلمات القليلة
 المسطورة عليها ، حتى هوى قلبه بين قدميه ، وتوقف عن النبض تماماً ..

كانت الكلمات بالإنجليزية ، تقول :

— « اذهب أنت وثورتك إلى الجحيم .. »

وأسفلها اسم (عايدة) ..

وانهار (حسين) ..

انهار عاطفياً ومعنوياً ..

لقد خدعته (عايدة) بالفعل ..

صفعة صفعة لن يحتملها ..

صفعة كالقنبلة ..

وفي انهار ألقى البرقية ، وتركها تتراقص في الهواء ، قبل أن تستقر بين
 قدميه أرضاً ..

وفي هدوء نهض (إبراهيم مكى) ، والتقط البرقية ، وطواها مرة أخرى ،
ووضعها في جيبه ، قائلاً في لهجة واضحة الشماتة :

— إنه فشل ذريع يا رجل .

تطلع إليه (حسين) منهازاً مستجدياً مستنجداً وهو يغمغم :

— ماذا أفعل ؟ .. سيحطم هذا مستقبلنا تماماً .

ابتسم (إبراهيم) في ظفر ، وكأنما راق له أن يلجأ (حسين) إليه على هذا
النحو ، أو كأنه كان يسعى إلى هذا بالذات ، وقال في هدوء :

— هل تريد رأيي حقاً ؟

تمم (حسين) :

أرجوك .

اعتدل (إبراهيم) ، وبدت قامته أكثر طولاً ، وهو يقول :

— سارع بإتمام زواج شقيقتك (ناهد) من (فؤاد) .

تطلع إليه (حسين) في دهشة وخيرة ، فابتسم (إبراهيم) في خبث ،
وقال :

— سيضمن لك هذا حماية كافية .

وبدت له الفكرة منطقية ومقبولة ..

إنه بإتمام الزواج سيصبح صهراً لواحد من أقوى رجال مجلس قيادة الثورة ..

وسيحصل على الحماية ..

كل الحماية ..

وفي نفس اللحظة التي راح عقله يدرس فيها الفكرة ، استرجعت ذاكرته

عبارة قديمة قالتها (عايدة) عن (إبراهيم مكى) ..

« إنه لا يسعى لهزيمتك ، وإنما لفرض سيطرته عليك .. »

وأدرك لحظتها أنها كانت على حق ..

على حق تماماً ..

٣٢ — الخسارة ..

أقيم حفل زفاف (ناهد) و (فؤاد) في أحد الفنادق الفاخرة ، في قلب
(القاهرة) ، وشعر (حسين) بالارتياح يغمر قلبه ، عندما حضر معظم مجلس
قيادة الثورة الحفل ، وبدوا كرمز للقوة والسطوة ، بأزيائهم الرسمية ذات
الأزرار اللامعة ، وهم ينتشرون داخل الحفل ، بعد ساعات من إعلان
الجمهورية ، وإلغاء الملكية ..

وعلى الرغم من ابتسامة (شريفة) ، التي لم تفارق شفيتها طيلة الحفل ، كان
قلبها يشعر بشيء من الخوف ؛ لأن شقيقتها الصغرى قد سبقتها إلى الزواج ..
أما (ناهد) نفسها فقد أنساها ثوب الزفاف ، وأنستها مظاهر الفرح موقفها
المساند لشقيقتها ، فأينع وجهها بابتسامة فرح وزهو ، وهي تجلس إلى جوار
عريسها الوسيم ، وسط باقات الزهور ، ورجال السلطة في البلاد ..

ولم يحضر (عمر) الحفل كالمعتاد ، وإن لم يمنع زوجه من حضوره ، على
الرغم من أنه يقام في (القاهرة) ، بخلاف كل حفلات الزفاف السابقة في
الأسرة ، وحضر (عبد الحكيم) وزوجه (توحيد) ، وقد شملهما تحفظهما
التقليدي ، فاكفيا بالابتسام ، ومتابعة الحفل في رصانة ، في حين انتحى
(مفيد) ركنًا قصياً في صمت ، يراقب رجال مجلس قيادة الثورة ، بأكثر مما
يراقب العروسين ، إلى أن ربت (رفعت كساب) على كتفه ، وهو يجلس على
المقعد المجاور له ، قائلاً :

— كيف حالك يا (مفيد) بك ؟ .. هل ستكتفى بالمشاهدة فحسب ؟

أجبر (مفيد) نفسه على الابتسامة ، وهو يقول :

— نظام حفلات الزفاف في الفنادق الكبرى ، لا يسمح لأقارب العروس

بغير هذا .

ضحك (رفعت) ، وهو يقول :

— هذا أفضل .. أليس كذلك ؟

ودون أن ينتظر جوابًا من (مفيد) ، مال نحوه مستطرًا :

— ولكن لماذا تبدو قلقًا ؟

ابتسم (مفيد) ابتسامة باهتة ، وقال :

— يبدو أنك شديد الملاحظة .

أجابه (رفعت) في زهو :

— إنه عملي .

ثم أضاف في اهتمام :

— ولكنك لم تجب عن سؤالي بعد .. لماذا تبدو قلقًا ؟

شرد (مفيد) ببصره لحظات ، وهو يتساءل عما إذا كان من اللائق أن يخبره

بسبب قلقه الحقيقي أم لا ..

لقد كان الموقف كله يقلقه ..

رجال الثورة بأناتهم المفرطة ، وزهوهم الواضح ..

سعادة (ناهد) الجمّة ، وهي تزف إلى الرجل الذي جاء بخطب شقيقتها في

البداية ..

الحزن الكامن في أعماق (شريفة) ، والذي تخفيه ابتسامتها الشاحبة ..

عدم حضور (فاطمة) و (حافظ) الحفل ..

كل هذا يحنقه ويقلقه ، ولكن سبب قلقه الفعلي كان يختص بـ (ماهر)

و (زينب) ، ولقد أفصح عن هذا السبب الأخير لـ (رفعت) ، قائلاً :

— الواقع أن تأخر (ماهر) و (زينب) يقلقني ، فلقد ابتاع (ماهر)

سيارة جديدة ، وأصرّ على الحضور بوساطتها إلى (القاهرة) ، وهو لم يجد قيادة

السيارات بعد ، و.....

قاطعه (رفعت) مبتسمًا :

— لا تجعل هذا يقلقك .. سأرسل دورية للبحث عنهما على الطريق ، ربما

أصبحت سيارة (ماهر) بعطب أو خلل ما .. اطمئن .

تركه وذهب ليلقي أوامره بإرسال الدورية ، في حين راح (مفيد) يتطلع إلى

الحفل مرة أخرى ، وهو يتذكر (مديحة) ، التي لم يرها منذ أكثر من شهر ،

والتي لم يستطع دعوتها مع والدها لحضور حفل زفاف شقيقته ..

وتساءل في أعماقه : هل يوافق (حسين) على زواجه من (مديحة) ، كما

وافق على زواج (حافظ) من (فاطمة) ؟ ..

لم يستطع إيجاد جواب حاسم منطقي ، لعجزه عن استنتاج مواقف وقرارات

(حسين) ، التي تناسب دومًا مع حالته النفسية .

وحالة (حسين) النفسية تبدو له غامضة هذه الأيام ..

إنه يبدو أشد صرامة وقسوة ، على الرغم من حزن دفين في أعماقه ، تفصح

عنه عيناؤه في وضوح ..

ثم إنه لم يعد يتحدث عن زواجه بتلك الأميرة السابقة ..

لقد تشاجر حتى مع (شريفة) ، ومنعها من ذكر الأمر ، عندما سألته عنها ..

لا ريب أنهما قد انفصلا ..

أو اختلفا ..

بحث ببصره عن (حسين) ، حتى رآه يجلس عن ركن القاعة ، حول منضدة

واحدة مع (إبراهيم مكّي) ، ولم يتصور لحظة أنهما يتحدثان عن نفس المرأة ..

عن الأميرة (عائدة) ..

كان (إبراهيم) يقول :

— هل علمت أن (عائدة) قد افتتحت متجرًا فاخرًا للأزياء في (باريس) ؟

أشاح (حسين) بوجهه ، وهو يجيب :

— نعم .. لقد أخبرني مندوبنا هناك .

نفث (إبراهيم) دخان سيجارته ، وهو يقول :

— يلوح لي أن هذا العمل يناسبها كثيرًا ، فهو يعتمد على المظاهر الخداعة ، والبراعة في إقناع العملاء .

ثم (حسين) في اقتضاب ، وكأنما يرغب في إنهاء الحديث حول هذه النقطة :

— هذا صحيح .

ابتسم (إبراهيم) في خبث ، وكأنما أدرك غرض (حسين) ، والتفت يتابع فقرات الحفل ، قبل أن يسأل (حسين) في هدوء :

— هل علمت بالخلاف بين (محمد نجيب) ، وأعضاء مجلس قيادة الثورة ؟ التفت إليه (حسين) في دهشة :

— أى خلاف ؟!.. لقد أعلنوا إلغاء الملكية وقيام الجمهورية اليوم فحسب ! اتسعت ابتسامة (إبراهيم) ، وكأنما راق له أن يدهش الخبر (حسين) ، وقال : — إنه خلاف قديم ، فلقد وضعوه على رأسهم ، على الرغم من أنه يقود الثورة فعليًا ، ولكنه يرفض الاعتراف بهذا ، ويصر على الظهور بمظهر الزعيم ، وهذا لا يروق لهم طبعًا ، وبخاصة لـ (جمال عبد الناصر) ، القائد الحقيقي للثورة .

سأله (حسين) في اهتمام :

— وهل تتوقع أن يتطور هذا الخلاف ؟

التفت إليه (إبراهيم) ، وأجاب في حسم : — بالتأكيد .

ثم مال نحوه ، مستطرذا :

— وأظننا سنضطر قريبًا إلى تحديد موقفنا في حسم ، ما بين تأييد (جمال) أو (نجيب) .

ازدرد (حسين) لعبابه في توثر وسأله :

— ومن تختار في هذه الحالة ؟

أجابه في حسم :

— (جمال عبد الناصر) ، وبلا تردد .

سأله (حسين) في دهشة :

— أتنق في قدراته إلى هذا الحد ؟

ابتسم (إبراهيم) في خبث ، وهو يقول :

— تستطيع أن تقول إننى أمتلك حاسة خاصة ، تقودنى دائماً إلى أصحاب القوة .

كانت هذه آخر عبارة تبادلها خلال الحفل ، وإن راح (حسين) يسترجعها ، ويقلبها على كل الوجوه ، حتى حانت زفة العروس ، وانتقلت (ناهد) مع عريسها إلى حجرتهما ، في الفندق نفسه ، وهدأت الأمور نسبيًا ، وراح (حسين) يصافح المهنيين ، ويشكر رجال مجلس قيادة الثورة في أثناء انصرافهم ، ثم التفت إلى شقيقه (مفيد) ، يسأله في ابتهاج :

— مارأيك ؟.. كان حفلًا رائعًا .. أليس كذلك ؟!

بدأ له (مفيد) واجمًا متوترًا ، مكرّر سؤاله الأخير في جدّة :

— أليس كذلك يا (مفيد) ؟

رفع (مفيد) إصبع عيني شاردتين ، وبدأ وكأنه يتبته إلى وجوده بغتة ، وهو يتمم :

— معذرة يا (حسين) .. لم أنتبه إليك .. كنت أفكر في أمر (زينب)

و (ماهر) .

سأله في توثر :

— ماذا عنهما ؟

قال (مفيد) في قلق واضح :

— إنهما لم يحضرا الحفل ، ولقد أرسل (زفعت كساب) دورية خاصة

للبحث عنهما ، و.....

بتر عبارته بغتة ، وهو يشير إلى ما خلف (حسين) ، هاتفا :

— ها هو ذا .. لقد عاد .

التفت (حسين) إلى (رفعت كساب) ، الذى تقدم نحوهما بخطوات سريعة ، وبدا جامداً ، وكأنما يحاول إخفاء أمر ما ، فسأله (حسين) فى قلق :

— هل عثرت على شقيقتى وزوجها يا (رفعت) بك ؟

تماسك يا (حسين) .. أنت رجل ، والرجال يحتملون أشد المواقف ، و.....

صاح (مفيد) فى هلع :

— ماذا حدث يا (رفعت) بك ؟ .. ماذا حدث ؟

خفض (رفعت) عينيه ، وهو يقول :

— لقد تعرضت سيارة (ماهر) لحادث سير ، و.....

قاطع (مفيد) صارخاً :

— وماذا ؟ ..

ران الصمت لحظة واحدة ، بلغ خلالها شحوب وجه (حسين) أقصى مداه ، وخفق فيها قلب (مفيد) ألف خفقة على الأقل ، قبل أن يقول (رفعت) :

— البقية فى حياتكما .. لقد لقيا مصرعهما معاً .

وخيل لـ (مفيد) لحظتها أن قلبه قد توقّف عن الخفقان .. إلى الأبد ..



٣٣ — الحزن ..

تسللت (مديحة) عبر أعواد القطن ، إلى جذع الشجرة الكبيرة ، وارتفع حاجبها فى حنان وإشفاق ، وهى تتطلع إلى (مفيد) ، الذى ارتكن إلى جذع الشجرة بظهره ، وضّم ركبتيه إلى صدره ، وشرّد ببصره بعيداً ، وقد اتهمت عيناه بدموع حبيسة ، تالّى كرامته السماح لها بالانطلاق معلنة حزنه .. ودون أن تتفوّه بحرف واحد ، جلست (مديحة) إلى جواره ، وتسللت يدها الرقيقة تتحسّس كفه ، وترّبت عليها فى تعاطف ، فمنحها نظرة امتنان ، وهو يغمرهم فى خفوت :

— كنت أعلم أنك ستأتين يا (مديحة) .

قالت فى حنان :

— ما كنت لأتركك وحدك ، مع كل هذا الحزن .

تنهّد فى حرارة ، وقال :

— لقد أحاط بنا حزن هائل ، منذ بلغنا الأمر يا (مديحة) ، فلقد كانت

(زينب) زهرة أسرتنا ، واللمسة الرقيقة لحياتنا ، وبالنسبة لى بالذات لم تكن

مجرد شقيقة ، وإنما كانت أمّاً أيضاً ، بعد أن فقدت أمّى مع مولدى كما تعلمين .

فرّث دموع من عينيه دون أن يدري ، وسالت على وجنتيه ، وانفطر لها قلب

(مديحة) ، فشاركتها بدمعة حزن من عينها ، وهى تقول :

— إنه القدر يا (مفيد) ، وأنت رجل مؤمن .

نعم :

— نعم .. إنه القدر ..

وشرّد ببصره لحظات أخرى ، سال فيها الدمع على وجهه دافئاً ، فربّئت

(مديحة) على كفه مرة أخرى فى حنان ، وسمعتة يقول فى حزن :

— أول مرة أرى فيها (حسين) يبكي في حرارة .. لقد كانت صدمة قاسية له ، ولد (ناهد) ، التي علمت الخبر صباح زفافها ، و (شريفة) لا تزال تبكي حتى هذه اللحظة ، على الرغم من مرور أسبوع كامل على وفاة (زينب) و (ماهر) ..

وصمت لحظات ، قبل أن يضيف :

— ولكن (عمر) زوج (نعيمة) لم يأت لتعزيتنا .. لقد أرسل برقية عزاء فقط ، مثلما يفعل الغرباء ، في حين وقف (عبد الحكيم) زوج (توحيدة) إلى جوارنا وقفة فارس .. حقاً .. المصائب تبرز الرجال .
غمغمت :

— أنت تعلم موقف (عمر) من أسرتكم ، منذ حادثة (حسين) وقضية الميراث .

هز رأسه ، وقال :

— الموت أجل من أن تعرضه مثل هذه الخلافات .

تنهدت وقالت :

— ليت الجميع مثلك .

ثم سأله في اهتمام :

— وهل عاد (حسين) إلى شقته في (القاهرة) ؟

أوما برأسه إيجاباً ، وقال :

— من العسير على رجل في وضع (حسين) أن يتعد عن مكان عمله

طويلاً .

ربت على كفه مرة أخرى ، فالتفت إليها ، وقال في حزن :

— لست أدري لماذا يفعل بنا القدر هذا يا (مذيحة) ؟ .. كلما اقترب موعد

لقائنا باعدت بيننا أحداث مؤلمة .

تمت :

— لكل شيء موعده يا (مفيد) .

أراح رأسه على جذع الشجرة ، وهو يتمم :

— نعم .. لكل شيء موعده ..

ولكن القدر كان يخفي لهما الكثير ..

الكثير جداً ..

اندفع العمدة داخل حجرة الضيافة بمنزله ، وهو يهتف في قلق :

— خيراً يا سعادة البك المأمور .. أخبروني أنك تطلب رؤيتي على وجه

السرعة .. ماذا حدث ؟!

أجابه المأمور في انفعال واضح :

— لقد استقال (محمد نجيب) .

هتف العمدة في دهشة :

— استقال ؟!

وألقى جسده على أريكة قرية ، وعقد حاجبيه في شدة ، وهو يكرر :

— استقال ؟! كيف ؟! لماذا ؟

لوح المأمور بكفه ، قائلاً :

— لا أحد يدري .. لقد نُشِرَ بيان استقالته في صحف الصباح .

غمغم العمدة ذاهلاً :

— يا لها من مفاجأة !

مال المأمور نحوه ، وقال :

— هناك مفاجأة أخرى تثير القلق .

رفع العمدة عينه إليه ، وسأله :

— أية مفاجأة ؟

اعتدل المأمور ، وتلفت حوله في قلق ، ثم عاد يميل على أذن العمدة ، قائلاً :

— (حسين البنهاوى) هنا فى القرية ، وهو يعلن تأييده لاستقالة (محمد نجيب) ، ويصرّ على أن (جمال عبد النصر) أحقّ منه بالرياسة ..
 عقد العمدة حاجيه فى شدّة ، وهو يقول :
 — عجباً !! من المؤكّد أن لديه ما يدفعه لهذا التأييد ، فهو أحد رجال السلطة ، ويعلم حتماً ما يخفى عنا نحن .
 هزّ المأمور رأسه نفياً ، وقال :
 — كلاً .. يبدو لى أنه مجرد انفعال عاطفى ، فلقد اتصلت بابن شقيقتى فى (القاهرة) ، وعلمت منه أن الشعب كله ثائر لاستقالة (نجيب) ، وأنه سيعود إلى موقعه حتماً .
 برقت عينا العمدة ، وهو يقول :
 — أتعنى أنه فى حالة عودته يكون ابن (البنهاوى) قد ..
 قاطعه المأمور فى لهفة :
 — وقع .. نعم يا عمدة .. لو عاد (محمد نجيب) إلى الحكم ، بعد ما يفعله (حسين البنهاوى) ، فسيعنى هذا أن ابن (البنهاوى) قد وقع شهادة وفاته بنفسه .
 ازداد بريق عيني العمدة ، وهو يقول :
 — وأن ما تنتظره قد حان ..
 وفى صوت واحد ، أكمل الاثنان :
 — بداية نهاية عائلة (البنهاوى) .
 وعلى شفّتهما ، ارتسمت ابتسامة ..
 ابتسامة ظفر ..
 وشر ..

« خطأ .. »
 نطق (إبراهيم مكى) الكلمة فى غضب صارم ، وهو يضرب سطح مكتبه براحته كلها ، فغمغم (حسين) فى توثر :
 — لماذا ؟ .. لقد فعلت نفس ما أشرت أنت إليه .. لقد قمت بتأييد (جمال عبد الناصر) بلاتردّد ، فور نشوب الخلاف بينه وبين (نجيب) .
 صاح (إبراهيم) ، وهو يلوح بكفه :
 — افعل هذا فى أعماقك ، ولا تعلنه على هذا النحو .
 سأله (حسين) :
 — لماذا ؟ .. لقد انتصر (عبد الناصر) بالفعل .
 صاح (إبراهيم) :
 — ليس بعد .
 ثم مال نحوه ، مستطرذاً فى جدّة :
 — ألم تصلك أخبار المظاهرات فى كل مكان ؟ .. ألم تعلم أن الشعب كله يطالب بعودة (محمد نجيب) ؟ .. ألم تدرك أنه أول احتجاج شعبى جارف ، على أحد قرارات الثورة ؟
 شحب وجه (حسين) ، وهو يتمم :
 — يا إلهى !! .. هل يعنى هذا .. ؟
 لوى (إبراهيم) بكفه ، وقال :
 — إنه لا يعنى شيئاً .. أو بمعنى أدق ، لم يعن شيئاً بعد ، ولكن توقّف عن الخوض فى لعبة السياسة ، ولتكف مثل بطاعة الأوامر ، والانتهاء إلى من يحكم .. أيا كان .
 ران عليهما الصمت لحظة ، ثم سأله (حسين) فى قلق :
 — هل تتوقّع عودة (نجيب) ؟
 أجابه فى حزم :

— بالتاكيد .

عاد وجه (حسين) إلى شحوبه ، وهو يتمم :

— يا إلهي !

مط (إبراهيم) شففيه ، وقال في صرامة :

— ولكن هذا لن يستمر طويلاً .

سأله (حسين) في لطفة :

— ولماذا تؤكد هذا ؟

صمت (إبراهيم) لحظات ، ثم قال :

— دراستي لشخصية (جمال عبد الناصر) تؤكد أنه محب للسلطة

والزعامة ، وأن هذا يجري في عروقه مجرى الدم ، ولن يسمح أبداً بأن يرأسه

(محمد نجيب) ، بل سيفسح له في انجال قليلاً ، حتى يجد الوسيلة المثلى للتخلص

منه ، دون أن يؤذيه هذا .

سأله (حسين) :

— ومتى سيفعل ؟

شرد (إبراهيم) ببصره ، وقال :

— قريباً .. قريباً جداً .

ثم عاد يرمق (حسين) بنظرة صارمة ، مستطرداً :

— المهم أن تطيع ما أشير به عليك دوماً ، ودون مناقشة .

انكمش (حسين) دون أن يدري ، وهو يغمغم :

— سأفعل يا (إبراهيم) بك .. سأفعل .

ولم يدرك لحظتها أن نبوءة (عايدة) قد تحققت ، وأن (إبراهيم مكى) قد

سيطر عليه ..

تماماً ..

٣٤ — تمرّد ..

شردت (شريفة) بأفكارها طويلاً هذه المرة ، وهي تقف في مطبخ السراي

مع (فاطمة) ، وقفزت بها أفكارها إلى عدة أشهر مضت ..

إلى يوم زفاف (ناهد) إلى (فؤاد) ..

نفس اليوم الذي اختطف فيه القدر سعادتها وزهو أنوثتها ، واختطف فيه

الموت أحب شقيقاتها إليها ..

وفي تلك اللحظة بالذات استعادت حديثاً قديماً ، دار بينها وبين شقيقتها

الراحلة (زينب) ، وانتهى بأن تمت كل منهما أمنية ..

تمت (زينب) أن تتزوج (ماهر) ، وأن تحيا معه ألف عام ..

وتمت هي أن تتزوج أى رجل ، وأن تنجب منه ألف طفل ..

وتزوجت (زينب) (ماهر) ، ولكنها لم تحيا معه حتى ألف يوم ..

ولم تتزوج هي حتى الآن ..

أى قدر هذا ؟ ..

بل أى مصير ؟ ..

ومن عينيها انحدرت دموع ساخنة ، لختها (فاطمة) ، فربّنت على كتفها في

حنان ، وغمغمت متعاطفة :

— لا تبكى يا (شريفة) .

أزاحت (شريفة) يد (فاطمة) عن كتفها في عنف ، وصاحت بها وهي

تمسح دموعها :

— لا تنطقى اسمى مجرّداً هكذا يا ابنة (عبد الحميد) .. لا تخاطبيني إلا باسم

سيدتى (شريفة) .



تراجعت (فاطمة) ، وهي تهتف مستكبرة :
 — سيدتي !؟ لماذا !؟ إنني لست خادمتكم ، بل أنا زوجة شقيقكم .
 صرخت بها (شريفة) في ثورة ، وكأنها تفرغ في (فاطمة) كل ماتحيش به
 نفسها من انفعالات :
 — وبس الزوجة !
 صاحت (فاطمة) :
 — المهم أنني زوجته ، ولم أعد أحتمل أسلوبكم هذا في التعامل معي .
 كانت أول مرة تواجه (فاطمة) الثورة بالثورة ؛ لذا فقد حدقت فيها
 (شريفة) في دهشة لبضع دقائق ، قبل أن تهتف بها في غضب :
 — كيف تجرئين ؟
 صاحت (فاطمة) :
 — ولم لا أجرو .. إننا نساوى هنا ..
 ثم رفعت أحد حاجبيها ، مستطردة في شماتة :
 — بل أنا أفوقك الآن .
 امتقع وجه (شريفة) ، وخيل إليها أن (فاطمة) تشير إلى عدم زواجها ،
 فغمغمت في مرارة غاضبة :
 — أيتها الحقيرة .. كيف ..؟
 قاطعها صوت (مفيد) ، وهو يقول في جدّة :
 — ماذا حدث هذه المرة ؟ .. ألا يمكن ترككما وحدكما ، دون أن تندلع
 الحرب بينكما ؟
 صاحت (شريفة) في غضب :
 — هذه الحقيرة تعبرني بعدم الزواج .
 التفت (مفيد) إلى (فاطمة) ، وسألها في صرامة :
 — أهذا صحيح ؟

هزّت كفيها ، وقالت :

— أنا لم أقل هذا .

صاحت (شريفة) :

— ولكنك أشرت إليه .

قالت (فاطمة) في خبث :

— كل يتحسّس كدمة رأسه .

صرخت (شريفة) :

— أرايت ؟

قال (مفيد) في جدّة :

— لست أسمح بهذا يا (فاطمة) ، صحيح أنك زوجة شقيقى ، ولكن ..

ولأول مرة في حياتها ، قاطعته (فاطمة) في غلظة :

— ليس لك الحق في أن تسمح أو لا تسمح .. إن لى زوجاً .

أدهش موقفها (مفيد) في شدة ، فغمم :

— ولكننى ..

قاطعته مرة أخرى هاتفة :

— قلت ليس لك الحق .

ثم اندفعت تغادر المطبخ ، إلى حجرة (حافظ) ، فالتفت (مفيد) إلى

(شريفة) ، يسألها في دهشة :

— ماذا أصابها ؟

عقدت حاجبها في غضب ، وهى تقول :

— يبدو أنها قد أصيبت بالجنون .

لم تكذب تتم عبارتها حتى برز (حافظ) خارج الحجرة ، وخلفه (فاطمة)

تبكى ، وقال (حافظ) لـ (مفيد) في توثر :

— لماذا تؤذى مشاعر زوجتى ؟

بدا ذلك الموقف عجيباً بحق ، فقد كانت المرة الأولى التى يتخذ فيها

(حافظ) موقفاً إيجابياً ، منذ وفاة والده ..

بل منذ مولده ..

وبارتباك أحدثته المفاجأة ، غمغم (مفيد) :

— لم يؤذ أحد مشاعرها يا (حافظ) .. إنه مجرد نقاش عادى بينها وبين

(شريفة) ، و.....

قاطعه (حافظ) في توثر زائد :

— لن أسمح لأحد بإيذائها بعد هذه اللحظة .

حدّقت (شريفة) في وجه شقيقها في ذهول ، ثم نقلت بصرها إلى

(فاطمة) ، التى وقفت خلفه تبتسم في خبث وشماتة ، وسألتها :

— كيف فعلت هذا ؟

داعبت (فاطمة) خصلة من شعرها الحشن وارتفع حاجبها في زهو ، ثم

ألقّت قبلة من جملة واحدة :

— أنا حامل .

واتضحت صورة المعجزة ..

برقت عينا المأمور ، وهو يمسك سماعة الهاتف في قوّة ، صائخاً في انفعال :

— هل أنت واثق من هذا ؟ .. هل عاد (محمد نجيب) حقاً ؟

دفعه الانفعال إلى إطلاق ضحكة مجلجلة ، وهو يعيد سماعة الهاتف ،

ويلتفت إلى العمدة قائلاً :

— أرايت يا عمدة ؟ .. أرايت ؟ .. لقد عاد (محمد نجيب) إلى الحكم في

يومين فحسب .. ألم أقل لك ؟ .. لقد خسر ابن (البهاوى) كل ماربحة منذ قيام

الثورة .

قال العمدة في لفة :

— أتظنه قد خسر اللعبة بالفعل ؟

قهقهة المأمور ضاحكاً مرة أخرى ، وقال :

— ماذا تفعل أنت به ، لو أنك في موضع (محمد نجيب) ، بعد أن وقف هو

يؤيد (جمال عبد الناصر) علناً ؟

برقت عينا العمدة بدوره ، وهو يقول :

— صدقت .

ثم سأله في اهتمام :

— والآن ماذا سنفعل به ؟

لوح المأمور بكفه ، وقال بابتسامة عريضة ، كادت تلتهم وجهه كله :

— سنتنظر حتى يأتي إلى القرية .

هتف العمدة :

— ثم ماذا ؟

أطلق المأمور تهيدة قوية ، ثم عاد يتسم تلك الابتسامة العريضة ، ويجيب :

— ثم نعيده إلى حجمه الحقيقي ..

وأدنى سبأته وإبهامه من بعضهما البعض ، وأضاف في غطرسة :

— حجم الحشرة ..

بدا (حسين) شديد التوتر ، وهو يجلس إلى جوار (إبراهيم مكى) ، في

مكتب هذا الأخير ، وراح يفرك كفيه في قلق ، وهو يسأله :

— ماذا سيحدث الآن ؟

أجابه (إبراهيم) :

— لا شيء .. لست أظن أن (محمد نجيب) سيذكر تأييدك لـ (عبد

الناصر) من عدمه .

قال (حسين) في قلق شديد :

— وماذا لو فعل ؟

تهدد (إبراهيم) ، واتجه إلى النافذة ، وعقد كفيه خلف ظهره ، وهو يتطلع

منها ، مغمغماً :

— لست أدري .

ران عليهما الصمت لحظة ، ثم التفت (إبراهيم) إلى (حسين) ، وقال في

صرامة مباغتة :

— ابتعد .

سأله (حسين) في دهشة :

— ماذا تعني ؟

أجابه في حزم :

— أعني أن أفضل ما تفعله الآن هو أن تبعد عن مسرح الأحداث .. اذهب

إلى قريتك ، واقض بضعة أشهر هناك ، حتى تهدأ الأمور .

غمغم (حسين) في حيرة :

— وماذا عن العمل هنا ؟

قال (إبراهيم) :

— اترك لي هذا .

ارتفع فجأة صوت (رفعت كساب) ، يقول في ضيق :

— لن يكون ذلك عسيراً .

التفت إليه الاثنان في سرعة ، وهب (حسين) واقفاً في احترام ، فأشار إليه

(رفعت) بالجلوس مرة أخرى ، وهو يقول :

— يبدو أنك قد وقعت أخيراً في الخطأ يا (حسين) .

امتقع وجه (حسين) في شدة ، وهو يتمم :

— الخطأ ؟!

جلس (رفعت) خلف مكتب (إبراهيم) ، وزفر في حرارة ، وهو يضرب

سطح المكتب براحة المفتوحة ، ويقول :



— ماذا تريد أيها المأمور ؟
أدهشه أن قال المأمور في غطرسة :
— بل ماذا تريد أنت ؟
ثم مال نحوه مستطرذا في ازدراء :
— إن قريتنا ترفض استقبال الخونة ، فكلنا نؤيد الرئيس الشرعي للبلاد .
وركل المأمور مقدمة سيارة (حسين) ، ثم ألقى نظرة صارخة على هذا
الآخر ، وابتعد بجواده في خيلاء ..
لحظتها فقط تأكدت الصورة ..
لقد أدارت الدنيا وجهها ..
أدارته بعيدا .

— لقد تسرعت بتأييد (عبد الناصر) علنا ، قبل أن تتضح الأمور .
لم يدرك (حسين) لماذا فشل أسلوبه هذه المرة ..
لقد آيد قيام الثورة علنا ، قبل أن تتضح الأمور ، فقادته هذه المبادرة
إلى قمة السلطة ..
وعندما كرر اللعبة خسر ..
خسر كثيرا ..
وبحروف مرتجفة ، وقلب مرتعد ، تتم (حسين) :
— وماذا حدث بسبب هذا يا سيدي ؟
زفر (رفعت) مرة أخرى في جدة ، وقال :
— حدث أن (محمد نجيب) قد أصدر قرارا بإيقافك عن العمل .
خيّل لـ (حسين) أن قلبه قد توقّف عن الخفقان ، وأنه سيسقط جثة
هامدة ، حتى لقد أدهشه أن هذا لم يحدث ، وهو يتمم منازرا :
— إيقافي ؟! .. إلى متى ؟!
رُبّت (رفعت) على كفه ، وقال في ضيق :
— من يدري إلى متى ؟! .. هيا .. اذهب إلى سراي والدك ، كما اقترح
(إبراهيم) ، فأظنها أفضل خطوة الآن .
وأدرك (حسين) أن لحظات الخسارة قد حانت ..
وأن الدنيا تدير وجهها إليه ..
وطوال الطريق من (القاهرة) إلى قريته ، ترك دموعه تسيل على
وجنتيه في صمت ..
كيف يواجه أشقاءه وشقيقاته ، بعد أن فقد كل شيء ؟!
بل كيف يواجه خصومه ؟!
انطلق بسيارته في بطاء ، وكأنما يخشى العودة إلى القرية ، إلا أنه لم يكذب
يقترّب من مدخلها ، حتى لمح المأمور على صهوة جواده ، يشير إليه بالتوقف ،
فأوقف سيارته ، وهو يحفف دموعه في سرعة ، وقال للمأمور في صرامة ، بذل
جهدا لينجح صوته إيّاها :

هَبْ (عمر) من مقعده ، ومال برأسه نحو زوجته ، وبدا وكأنما يطلق زغرودة فرح ، وهو يهتف :

— أوقفوه عن العمل !؟ .. هل أوقفوا (حسين) شقيقك عن العمل حقاً !؟ جففت (نعيمة) دموعها ، وهي تقول :

— لا يمكنك أن تتصور ما أصابه من جرأ هذا .. لقد نخل كثيراً ، و..... قاطعتها ضحكة مرحة أطلقها (عمر) ، وأذهلها أن يكون هذا هو انطباعه عن الموقف ، فحدقت في وجهه مستكرة ، في حين هتف هو :

— لقد نال ما يستحقه ، ذلك الظالم المفترى .
صاحت به :

— (عمر) .. كيف تقول هذا عن شقيقى ال.....؟
قاطعتها صارخاً في صرامة هذه المرة :

— اخرسى .

حدقت في وجهه ذاهلة ، فأمسك كتفها في عنف ، وبدا لها كوحش شرس ، وهو يهزها في قوة ، صائحاً :

— لعنة الله عليك وعلى شقيقك السارق النصاب ، الذى استباح لنفسه أرضكم وأموالكم ، بعد أن منحه والدكم الظالم هذا الحق بعد وفاته .. لقد احتملت كل ما فعله لى ، ولزمت الصمت طيلة الوقت ، انتظارك لهذا اليوم .. والآن فقط أستطيع أن أفرغ كل الغضب الكامن في أعماق ..

ودفعها في قسوة ، مستطرذا في ثورة :

— اذهبي .. أنت طالق .. طالق .. طالق ..

ولم تحتمل (نعيمة) صدمة الموقف ..
ومن أعماقها انطلقت صرخة ارتياح ..
وسقطت فاقدة الوعي ..

« طَلَّقْكِ !؟ »

هتف (مفيد) في ذعر ، قبل أن يستطرد :

— ولكن لماذا ؟ .. لماذا فعل هذا ؟

بكت في انهار ، وضمت طفلتها الصغيرة إلى صدرها ، وهي تقول :

— يقول إنه يتمنى هذا منذ زمن طويل ، ولكنه كان ينتظر خروج (حسين) من السلطة .. وهو لم يكتف بتطليقي فحسب ، وإنما راح يوزع أكواب الشراب على الجميع ، احتفالاً بإيقاف (حسين) عن العمل ، وأقسم أن يتزوج بأخرى ، قبل أن ينصرم الأسبوع .

تمتم (حسين) في مرارة :

— يا للوغد !!

التفت إليه (مفيد) محنقاً ، وهو يقول :

— أنت المسئول عن كل هذا .. أنت ال.....

قاطعه (حسين) في ثورة :

— كفى .. لست أحتمل حرماً واحداً ..

وابتعد بخطوات سريعة إلى حجرته ، وأغلق بابها خلفه في إحكام ، فزفر

(مفيد) في توثر ، وغمغم :

— إنها اللعنة تحل علينا .. لعنة الظلم ..

ظل يشعر بالمرارة في حلقه وقلبه ، حتى التقى بـ (مديحة) عند جذع

الشجرة الكبيرة كعادتهما ، وانتهت هي إلى آلامه ، فربتت على كفه ، وهمست

في حنان :

— أمن الختم أن تحمل دوماً كل هموم الدنيا على كتفك ؟
زفر مغمغماً :

— كم أتمنى ألا أفعل ، ولكن يبدو أن هذا قدرى .. أن أحمل دوماً مشاكل الآخرين .

تردّدت لحظة ، ثم سأله في خفوت :

— وماذا عن مشكلتنا نحن ؟

استدار يتطلّع إليها طويلاً ، حتى أن دماء الحجل قد تصاعدت إلى وجنتيها ، وهي تتمم :

— لم أقصد هذا ، وإنما ..

جاء دؤره هذه المرة ليُرَبِّت على كتفيها ، ويقول في حنان :

— يبدو أنني أظلمك كثيراً معي يا حبيبتى .

رفعت عينيها إليه ، وهي تهمس :

— أنت لا تظلم أبداً .

تطلّع إليها بامتنان ، وامتدت أصابعه تداعب شعرها الأسود الناعم ، قبل أن يقول في حزم :

— لا بأس يا (مديحة) .. لقد انتظرت طويلاً ، وسأطالبك بالانتظار لآخر مرة ، حتى نهاية أكتوبر القادم ، وعندئذ سأعمل على أن يتم زواجنا ، مهما كانت الظروف والملابسات .

ابتسمت في سعادة ، وهي تسأله في دلال :

— ولماذا أكتوبر ؟

شرد ببصره لحظة ، ثم أجاب :

— سأكون قد بلغت الحادية والعشرين حينذاك .

لم تفهم ما الذى يعنيه ذلك ، إلا أنها غمغمت في حب :

— حسناً يا حبيبتى .. سأنتظر .

وكانت مخلصه في قولها ، ولكن القدر لا يعترف بالاخلاص والحب والعواطف ..

إنه القدر ..

وهذا يكفى ..

لم يدر أحد ، ولا حتى (حسين) نفسه ، كيف مرّت الأشهر التالية .. بالذات (حسين) لم يشعر بمرورها ، على الرغم من كونه المصاب الأول فيها .

لقد بدت له أيامه كالعدم ..

وتقوقع في حجرته ، مبتعداً عن أسرته ، ومشاكلها وحتى أفراحها ..

وترك أمواج الحياة تحمله إلى أى شاطئ تشاء ..

وراح يجتز مرارته وأحزانه لما أصابه ، والحياة من حوله تمضى بلا توقف ..

لقد تزوّج (عمر) ، من فتاة جميلة ، ابنة عمدة قرية مجاورة ، وأقام لها حفل

زفاف رائع ، تحدّثت عنه المنطقة كلها ، وبدأ هو خلاله أشبه بالسعادة نفسها ،

وإن حملت عيناه شماتة لا حصر لها ..

وانهارت (نعيمة) ليلة زواجه ، وفاضت عيناها بدموع القهر ، وهي التي

ظلت تحمل في قلبها الكثير من الحب لزوجها السابق ، والكثير من الأمل لعودتها

إليه ..

والطريف أن (عمر) قد أرسل دعوة زفاف أنيقة إلى سراى (البهاوى) ،

يدعو فيها الأسرة كلها لحضور حفل زفافه ، وكأنما يتشفّى فيما أصاب (حسين)

علانية ..

وراح شعور (حسين) بالمرارة والغضب والحنق يتضاعف ..

وراحت بطن (فاطمة) تتكوّر وتبرز ، معلنة قرب قدوم الضيف الجديد ،

ابن (حافظ) ، وحفيد (البهاوى) ..

ونافستها بطن (ناهد) ، فيما راحت (شريفة) ترأف هذه المنافسة في
مرارة وألم ، وعبارة (فاطمة) تتردد في أذنيها ، مذكرة إياها أنها لم تتزوج بعد ..
وبدا لها الزواج أملاً بعيد المنال ..

وخاصة بعد أن فقد (حسين) بريق السلطة وزهوها ..
أما (مديحة) ، فقد انصاعت لمطلب (مفيد) ، واكتفت بوعده لها ، وباتت
تحلم باقتراب نهاية أكتوبر ؛ لتلتقي بمن وهبته قلبها وحبها ..

والتحق (مفيد) بكلية التجارة في (القاهرة) ، وفقدت (فاطمة)
بابتعاده الصوت الوحيد الذي يرتفع للزود عنها وحمايتها من لسان (شريفة) ،
الذي انتهز بدوره فرصة إقامة (مفيد) في (القاهرة) ، لينال على (فاطمة)
بكل ما تعافه النفس من شر الألفاظ والنعوت ، مفرغة في سلاطتها ما تحيى به
نفسها من إحباط ومرارة وغيرة وحقد ..

ولم يعد (حسين) يعلم شيئاً عن (رفعت كساب) أو رجال الثورة ..
الخير الوحيد الذي بلغه هو أن (إبراهيم مكى) قد استولى على تلك الشقة
الفاخرة ، التي كان يقيم فيها هو في (جاردن سيتي) ، وأنه قد انتزع اللافتة
الأنيقة ، التي تحمل اسم (حسين البهاوي) ، ووضع بدلاً منها لافتة
تحمل اسمه هو ..

ولهذا الخبر بالذات بكى (حسين) طويلاً في حجرته ..
لقد انتزع منه الخير آخر أمل في العودة إلى السلطة والقوة ، فاحتلال
(إبراهيم مكى) لشقته يعني أن (رفعت كساب) قد تخلت عنه ..
وأن الزمن قد أولاه ظهره تماماً ..
وبينما كان غارقاً في آلامه وأفكاره ودموعه ، انطلقت في السراي
صرخة قوية ..

ولأول مرة منذ زمن طويل ، لم تكن صرخة حزن أو موت ..
كانت صرخة فاطمة ، التي أعلن رحمتها تأهبه للفظ جنيها إلى الدنيا ..
كانت صرخة ميلاد ..

انترعت الصرخة (حسين) من فراشه ..
بل من نفسه ، بكل أحزانها وآلامها ومرارتها ..
انترعته المعجزة الربانية ، التي تحدث كل يوم من حولنا ، دون أن نشعر
بعظمتها وقيمتها وإعجازها ..

معجزة الميلاد ..
وكأنما ألقى الأشهر الأخيرة كلها خلف ظهره ، انطلق (حسين) من حجرته ،
وراح يعدو هابطاً إلى حجرة (حافظ) و (فاطمة) ، في الطابق السفلي ، واستقبلته
(شريفة) ، وهي تعدو خارج حجرة (حافظ) ، فهتفت بها :
— ماذا حدث ؟

تعالى من داخل الحجرة صراخ (فاطمة) ، و (شريفة) تقول في اضطراب :
— إنها (فاطمة) .. يبدو أن جنيها سيأتى إلى الحياة ، قبل خمسة عشر يوماً
من موعده ..
سأها مرتبكاً :

— وماذا ينبغي أن نفعل ؟
صاحت وهي تعدو نحو باب السراي :
— لا شيء .. سأرسل (عبد الحميد) ؛ لإحضار القابلة .
فتحت باب السراي ، وراحت تهتف :
— (عبد الحميد) .. (عبد الحميد) ..

أسرع إليها الرجل متوتراً ، ولم يكذ صراخ ابنته يبلغ مسامعه ، حتى فهم
الموقف كله على الفور ، وخفق قلبه بين ضلوعه ، وشحب وجهه في شدة ، في
حين صاحت به (شريفة) في اضطراب شديد :

— استدع القابلة (الداية) يا (عبد الحميد) .. ابتكك تلد ..
ازداد شحوب وجه الرجل ، وبدأ وكأنه سينفجر باكياً ، وهو يقول :
— ولكن القابلة (أم سرحان) ليست هنا .. لقد سافرت إلى ابنتها في (طنطا)

صاحت في ذعر :

— استدع طبيب الوحدة الصحية إذن .

كاد (عبد الحميد) يسقط فاقد الوعي ، وهو يقول في انبهار :

— الطبيب لا يقيم بالوحدة الصحية .. إنه أحد أبناء (سمثود) ، وهو يسافر

إليها كل مساء ، و.....

قاطعته (حسين) في انفعال :

— لا بأس .. سأستدعي أحد أطباء المدينة هاتفياً .

انطلق نحو الهاتف ، و (عبد الحميد) يحدّق فيه ذاهلاً ، فلم يكن المسكين

يتخيّل يوماً أن يهرع ضابط مهيب مثل (حسين البناوى) ، لإسعاف ابنته هو ..

ولم يكّد (حسين) يضع سماعة الهاتف على أذنه ، حتى عقد حاجبيه ،

وصاح في توثر :

— الهاتف اللعين لا يعمل .

وألقي السماعة فوق الهاتف ، وهو يلتفت إلى (عبد الحميد) ، ويسأله :

— أين يمكنني أن أجد هاتفاً آخر ؟

تردّد (عبد الحميد) لحظة ، ثم قال :

— عند العمدة .

أجاب (حسين) في حزم :

— سأذهب إليه .

التقى في أثناء عدوه نحو الباب بـ (نعيمة) ، التي أيقظها صراخ (فاطمة) ،

وارتباك الآخرين ، فسألته حائرة قلقة :

— ماذا هناك ؟

هتف بها وهو يغادر السراى :

— (فاطمة) تلد .

ضربت صدرها بكفها ، وهي تهتف في استكثار :

— تلد ؟!

نطقها وكأنها لا تتصوّر أن تلد (فاطمة) ، على الرغم من حملها ..

لم تكن تتصوّر أن يكون لشقيقها ابن من تلك الغليظة ، ابنة (عبد الحميد) ..

ولكن (حسين) لم يكن يفكر في هذا ..

لقد استقل سيارته ، وانطلق بها نحو دار العمدة ، وهو يدعو الله أن تعبر

(فاطمة) وابنها هذا الموقف في سلام ، ولم يكّد يبلغ الدار ، حتى أوقف

سيارته ، وقفز منها ، وراح يدقّ باب العمدة في توثر ، حتى فتح العمدة بابه ،

وقال في حدة :

— ماذا هناك ؟

هتف به (حسين) في لهفة :

— (فاطمة) تلد يا عمدة ، ونحتاج إلى هاتفك ، ال.....

قاطعته العمدة في صرامة :

— آسف .

حدّق (حسين) في وجهه بدهشة ، وقال مخنفاً :

— ماذا تقول يا عمدة ؟ إننا نحتاج إلى الهاتف ، لاستدعاء طبيب ، و.....

قاطعته العمدة مرّة أخرى :

— قلت آسف .

تراجع (حسين) في ذهول ، في حين استطرد العمدة في لهجة لم تخل

من الشماتة :

— هذا الهاتف حكومى يابن (البناوى) ، ولا يصح أن يستخدمه إلا رجال

الحكومة ، أو من يؤيدونهم ، والحكومة يرأسها رجل نحترمه جميعاً ، وندين له

بالولاء .. اسمه (محمد نجيب) .

ثم مال نحو (حسين) ، مستطرداً في سخرية :

— هل تعرفه ؟

انعقد حاجبا (حسين) في غضب ، وقال :

— ستدفع ثمن هذا يا عمدة

قال العمدة في سخرية أشد :

— نقذا أم بالتقسيط المريح !؟

وانطلق يقهقه ضاحكا في سخرية وشماتة ، في حين انطلق (حسين) نحو سيارته ، وأدار محركها ؛ ليتعد عن المكان بأقصى سرعة ، وضحكات العمدة تلاحقه ، وتنكأ جراحه ، وتسيل دماء كرامته الجريحة ..

وبكل ما يملأ نفسه من غضب ومرارة صرخ :

— ستدفع الثمن يا عمدة .. ستدفع الثمن

وردد ليل القرية كلها صدى صرخته ووعيده ..

٣٦ — استدعاء ..

هبط (مفيد) من السيارة ، التي أقلته حتى باب السراى ، وارتسمت على شفثيه ابتسامة واسعة ، وهو يتطلع إلى المكان الذى شهد طفولته وصباه وشبابه ، وأغلق عينيه وهو يملأ صدره بشهيق عميق من الهواء ..

هواء القرية النقى ..

هواء الأرض التى يعشقها ..

ثم فتح عينيه ؛ ليجول ببصره فى الحقول ، ومنازل صغار الفلاحين ، المنتشرة بينها وحولها ..

وتوقفت عيناه طويلا عند الشجرة الكبيرة ..

وخفق قلبه فى حنان وحب ..

إنها المكان الذى شهد حبه وذكريات قلبه النابض ..

وطافت صورة (مديحة) بذهنه ، فاكتست ابتسامته بهيام وود ، جعلاه

يغمغم :

— كم أشتاق إليك يا حبيبتي !!

ثم صعد فى درجات سلم السراى ، وهو يتوقع أن يفاجئ الجميع بعودته من (القاهرة) فى هذه الساعة المبكرة ..

ولكن المفاجأة كانت من نصيبه هو ..

لقد كان كل من فى السراى مستيقظا ..

حتى (حسين) ..

وكان الإرهاق يملأ وجوههم ، حتى أن هتف بهم منزعجا :

— ماذا أصابكم ؟ .. ماذا حدث هنا ؟

ابتسم (حسين) ابتسامة باهتة ، وهو يجيب :

خيرًا .. لقد أنجبت (فاطمة) فجر اليوم .

هتف في فرح :

— أنجبت !؟ .. ياله من خير !.. كيف حالها وحال طفلها أو طفلتها ؟ أذكر

هو أم أنثى ؟

أجابته (شريفة) ، في صوت لم يخف غيرتها :

— إنها بخير .. هكذا تكون تلك الفئة الوضيعة من القوم .. إنهم ينجبون

كالأرانب ، دون تعب أو متاعب .

رمقها بنظرة عتاب ، وهو يكرر سؤاله الثاني :

— أطفلاً أنجبت أم طفلة ؟

أجابه (حسين) هذه المرة :

— أنجبت طفلاً .. ذكرًا .. ولقد طلبت منها أن تطلق عليه اسم والدنا ،

ولكى (شريفة) ترفض في شدة .

التفت إلى (شريفة) ، يسألها في دهشة :

— لماذا ترفضين ؟

أجابته في حدة :

— لن يحمل ابن (فاطمة عبد الحميد) اسم والدنا الراحل .. أبداً .

ابتسم (مفيد) في إشفاق ، وهو يغغم :

— إنه سيحمل اسمه على أية حال .

ثم زفر في قوة ، مستطردًا :

— فليكن .. سنمنحه اسمًا جديدًا .. مارأيكم في (طارق) مثلاً ؟

قال (حسين) :

— (طارق البهاوي) .. لا بأس .. إنه اسم طريف .

ثم أشار إلى (مفيد) بالجلوس إلى جواره ، وهو يسأله :

— ولكن ماسر عودتك المفاجئة هذه ؟ .. هل نفدت نقودك ؟

ابتسم (مفيد) ، وقال :

— لا .. ولكن اليوم يوافق عيد مولدى ، الذى سيشاركنى فيه (طارق) .

هتفت (شريفة) :

— يا إلهى !.. كيف نسيت هذا ؟ .. إنك ستم واحدًا وعشرين عامًا اليوم

يا (مفيد) .. أليس كذلك ؟ .. إنه الخامس والعشرون من أكتوبر ..

أوماً (مفيد) برأسه إيجابًا ، وهو يتسم ، ثم التفت إلى (حسين) ، الذى

ابتسم بدوره ابتسامة باهتة ، وقال :

— هذا يعنى أنك قد أصبحت راشدًا .

قال (مفيد) في مرح :

— بالطبع .

ثم مال نحو شقيقه ، واكتست ملامحه بجذبة مباغتة ، وهو يستطرد :

— وهذا يشجعنى على أن أطلب منك الموافقة على أمر هام .

سأله (حسين) في اهتمام :

— ماهو ؟

مال على أذنه ، مجيبًا في همس :

— زواجى .

تراجع (حسين) في دهشة ، وحدق في وجه شقيقه لحظة ، ثم نهض

قائلًا في حزم :

— تعال .

تبعه (مفيد) إلى حجرته ، و (شريفة) تتابعهما ببصرها في لفة ،

والفضول يقتلها لمعرفة حديثهما ، حتى أغلق (حسين) الباب خلفهما ،

والثفت يتطلع إلى (مفيد) ، قائلًا :

— إذن فأنت تريد أن تتزوج !

أوماً (مفيد) برأسه إيجابًا ، فمال (حسين) نحوه ، يسأله في اهتمام :



— أهي واحدة من فتيات (القاهرة) ؟
 أجابه (مفيد) ، ووجهه يتهلل بشراً :
 — لا .. إنها واحدة من هنا .. (مديحة) .. ابنة عم (إسماعيل) .
 تراجع (حسين) في حركة حادة عنيفة ، وهتف في قوة كالمصعوق :
 — (مديحة) ؟
 ثم هتف محتقاً :
 — هل تريد الزواج من ابنة عامل في أرضنا ؟
 كان (مفيد) مستعداً لذلك التراشق الكلامي ؛ لذا فقد قال في سرعة :
 — وماذا في هذا ؟ .. (فاطمة) أيضاً ابنة عامل في أرضنا .
 قال (حسين) في غضب :
 — لا ينبغي أن نكرر الخطأ نفسه مرتين .
 صاح (مفيد) :
 — أي خطأ ؟
 همّ (حسين) بإلقاء الجواب ، لولا أن ارتفعت بغتة طرقات قوية على باب
 الحجرة ، مصحوبة بصوت (نعيمة) ، تقول في توتر :
 — هناك رجلان يطلبان مقابلتك يا (حسين) .
 خفق قلب (حسين) في قوة ، وهو يسألها :
 — أهما من الجيش ؟
 أجابته في قلق واضح :
 — لست أدري .. إنهما يرتديان ثياباً مدنية ، ولم أر أحدهما من قبل .
 عقد حاجبيه في توتر ، ولم يستطع كتمان اضطرابه ، وهو يلتفت إلى
 (مفيد) ، قائلاً :
 — حسناً .. ستم حديثنا فيما بعد .

أراد (مفيد) أن يعترض ، ولكن (حسين) لم يمنحه الفرصة لذلك ، فقد اندفع يغادر الحجرة في توتر ، فلم يكن من (مفيد) إلا أن قلب كفيه ، وزفر في قوة ، مغمغماً :

— لا بأس .. إن غذا لناظره قريب .
وكانت الحكمة صحيحة ..
لو أقي الغد ..

صافح (حسين) الرجلين ، اللذين لم يرهما في حياته كلها ، وقال أحدهما في هدوء ، وهو يشد على يد (حسين) :

— الملازم (حسين) البهاوى .. أليس كذلك ؟
غمغم (حسين) في خيرة وتوتر :

— بلى .. هو أنا .

قال الآخر في هدوء ، لا يخلو من الحزم :

— معذرة ياسيدى ، ولكن لدينا أوامر بأن نصحبك إلى حيث تستقبلك شخصية هامة .

هبط قلبه بين ضلوعه ، وهو يقول :

— شخصية هامة !؟ من ؟

قال الأول في حزم :

— ستعلم فيما بعد .. والآن هيا بنا .

ارتبك (حسين) في شدة ، وهو يقول :

— هل .. هل ستغيب كثيراً ؟ .. أعنى .. هل أعدت حقيقتي ؟
أجابه الآخر :

— لا داعي .. ستجد كل ما يلزمك لدينا .

وقال الأول في لهجة لا تقبل النقاش :

— دعنا لانضيع الوقت ياسيدى ، فالأوامر تقتضى ألا نضيع لحظة واحدة .. هيا بنا .

قال وقد ساد الشحوب وجهه تماماً :

— سأبلغ شقيقى إذن .

قال الثانى في حزم :

— سنبلغه نحن .

قاداه من حجرة استقبال الضيوف إلى باب السراى ، وهو يتبعهما عاجزاً مستسلماً ، لا يجزؤ على التفوه بحرف واحد ..

وكانت هناك سيارة تنتظر أمام باب السراى ، وبداخلها سائق واحد ، لم يكد يطمئن إلى ركوب (حسين) والرجلين ، حتى انطلق بالسيارة على الفور .. وانكمش (حسين) في مقعده ، وقد بلغ به الرعب مبلغه ..
إنهم يعتقلونه ولاشك ..

إنه خبير بمثل هذه الأمور ..

وخبير بما يحدث بعد الاعتقال ..

وارتجف جسده في شدة ..

ولم يجزؤ على إلقاء سؤال واحد على الرجلين ..

وكان يعلم أنه ما من جدوى من إلقائه ..

لن يجيب أحدهما بحرف واحد ..

إنها لهنتهما ..

وهو أدرى الناس بها ..

وانطلقت به السيارة في طريقها إلى (القاهرة) ، ومع كل كيلو متر تقطعه كان يزداد انكماشا وشحوباً ..

وراح عقله يستتج الأمور ، والنتائج ، ولكنه عجز عن استنتاج شخصية هذا المسئول الكبير ..

أهو (رفعت كساب) :

أم (إبراهيم مكى) ؟

جال بخاطره لحظة أن يكون (محمد نجيب) نفسه ، إلا أنه لم يلبث أن استبعد هذا الخاطر ، لمرور ثمانية أشهر كاملة على إقالته ..

وماهى إلا ساعة وبضع دقائق ، حتى توقفت السيارة أمام منزل صغير ، فى حتى (مصر الجديدة) ، وهبط منها الرجلان ، ليقول أحدهما :

— تفضل يا (حسين) بك .

لم يدر سر لقب البكاوية هذا ، الذى منحه إياه الرجل جزافاً !

أهو نوع من الاحترام الزائد ؟

أم هى سخرية ؟ ..

أو شماتة ؟ ..

وسار بين الرجلين وجسده كله ينتفض ، نحو ذلك المنزل الصغير ، الذى يقودانه إليه ..

وداخل المنزل ، اصطحبه أحد الرجلين إلى حجرة مكتب أنيقة ، وقال فى هدوء :

— معذرة .. سيحضر السيد بعد قليل .

لم يجرؤ (حسين) حتى على الجلوس ، وراح يرتجف وسط تلك الحجرة الأنيقة ، التى احتشدت مكتبها بعشرات الكتب ، حتى تنهى إلى مسامعه صوت باب الحجرة يُفتح من خلفه ، ثم يغلق فى هدوء :

— ويجسد شماته رعدة باردة قوية ، استدار (حسين) يتطلع إلى الداخل ..

وكقط مبتل فى يوم عاصف بارد : انتفض جسده كله انتفاضه عنيفة قوية ، واتسعت عيناه فى ذهول ، وهو يحدق فى وجه ذلك الشاب الطويل ، العريض

المنكبين ، الذى راح يتطلع إليه فى هدوء تام ، بعينين شبيهتين بعينى أسد .

كان آخر شخص يتوقع رؤيته ..

كان (جمال) ..

(جمال عبد الناصر) نفسه ..

٣٧ — انتفاضة ..

مضت لحظات رهيبة من الصمت التام ، والسكون المطبق ، وعينا (عبد الناصر) ، الشبهتان بعينى أسد هصور تجوبان وجهه وجسد (حسين) ، الذى راح ينتفض فى قوة ، أمام تلك النظرات القوية الحازمة الصارمة الفاحصة ، عاجزاً من تمالك نفسه ، إلى أن قال (عبد الناصر) فى هدوء مخيف :

— كيف حالك يا (حسين) ؟

أتى صوت (حسين) مرتجفاً ، خافئاً ، يحمل رهبة العالم كله ، وهو يجيب :

— فى خير حال ياسيدى .

بدت ابتسامة صغيرة للغاية ، عن طرف فم (جمال) ، وهو يقول :

— لقد عزلك (نجيب) من منصبك ، بسبب تأييدك العنى لى .. أليس كذلك

ازدرد (حسين) لعبابه فى صعوبة ، وهو يجيب :

— بلى ياسيدى .

حمل صوت (جمال) من الفضول أكثر مما حمل من الحزم ، وهو يقول :

— ألا يبدو لك هذا التأيد العلنى نوعاً من الحمافة ؟

أجاب (حسين) ، وقد بدا له أنه من غير اللائق أن يؤيد هذا القول :

— مطلقاً ياسيدى .

سأله (جمال) فى اهتمام :

— ألا تشعر بالندم إذن ؟

أجاب (حسين) فى ضيق :

— محال أن أفعل ياسيدى .

ارتسمت ابتسامة واثقة على شفتى (عبد الناصر) ، وهو يقول :
— عظيم .. إنك تصرّ على موقفك ، على الرغم من كل ما قاسيته ، وما يبدو
واضحاً في نحو لك وشحوبك .
واقرب خطوة من (حسين) ، ورُبّت على كفه ، مستطرذا :

— هذا هو الرجل الذى أحاج إليه .
ثم استدار ، واتجه إلى مكتبة صغيرة ، فى ركن حجرة مكتبه ، وعقد كفيه
خلف ظهره ، وهو يراجع محتوياتها فى صمت ، مما أورث (حسين) مزيداً من
التوتر والقلق ، وجعله يتساءل فى أعماقه للمرة الألف : فيم ولم استدعاه (جمال
عبد الناصر) ، ثم انتفض جسده ، عندما التفت إليه (جمال) على نحو مباغت ،
وقال فى حزم :

— اسمعنى جيّداً يا (حسين) .
أصغى إليه (حسين) بكل حواسه وقلقه وتوتره ، و (جمال) يتابع بنفس
اللهجة الحازمة ، التى يشوبها شيء من الصرامة :
— اعتباراً من الغد ، ستدخل الثورة مرحلة جديدة ، وخطيرة .. مرحلة
تحتاج فيها لكل رجل مخلص ، من أجل القضاء على أعدائها ، وتصفيتهم ، ووضع
كل رجل من رجالها فى موضعه الصحيح ، تمهيداً للانطلاق نحو القمة .
ازدرد (حسين) الشئ النذير من لعبه ، وهو يتمم :

— القمة !؟
لوح (عبد الناصر) بيده ، قائلاً :
— نعم يا (حسين) .. إن هذا الشعب ، الذى ننتمى إليه ، لمن أعظم
وأعرق الشعوب ، ولا تنقصه سوى القيادة الحازمة المخلصة ، لينطلق إلى قمة
الحضارة ، ويتخذ مكانه بين شعوب العالم الأولى .

ثم ضمّ قبضته ، مستطرذا :
— وسأبذل عمري فى سبيل دفعه إلى هذا .

تضاعف توتر (حسين) ، وترايدت حيرته ، وهو يستمع إلى كلمات
(جمال) الحماسية ، حتى أنه غمغم فى تردد :
— وما ذورى أنا ياسيدى ؟

ابتسم (عبد الناصر) ، واتجه إليه مرة أخرى ، ورُبّت على كفه ، وقال :
— ستكون ذراعى اليمنى يا (حسين) .
كانت مفاجأة أعظم من أن يحتملها (حسين) ، الذى هتف فى ذهول :
— أنا ؟!

أجابه (عبد الناصر) فى حزم ، وبلهجة رجل لا يحتمل أو يتنوى النقاش :
— نعم .. أنت .. لن أمنحك أية صفة رسمية حالياً ، ولكننى سأمنحك
سلطة مطلقة ، اعتباراً من صباح الغد ، وحتى تنتهى الأزمة ، التى ستبدأ غداً ..
والمطلوب منك هو أن تعتقل كل من تتضمنه قائمة خاصة ، سأمنحك إياها
الآن ، وأن تضيف إليها كل من تشكّ فى أمره ، أو فى ولائه للثورة ولى ..
وبالسلطة التى أمنحك إياها ، يمكنك أن تتزع حتى مدير الأمن من موقعه ،
وعليك أن تحسن استغلالها جيّداً ، أما بالنسبة لعائلتك ، فقد أرسلت من يبلغهم
بعودتك إلى عملك ، ويشيع الأمر فى القرية ، ثم يؤكد لهم أنك هنا فى القيادة ؛
لأمر بالغ الأهمية ، حتى لا يقلقهم غيابك ، وستجد هنا كل الملابس والأدوات
التي تحتاجها ، حتى نهاية الأزمة .

بلغ انفعال (حسين) ذروته ، وهو يسأل :
— وما نوع تلك الأزمة ياسيدى ؟
لم ير فى حياته كلها عينين أشدّ غموضاً من عيني (عبد الناصر) ، ولا ابتسامة
أكثر إثارة للخوف والقلق من ابتسامته ، وهو يجيب :
— ستعلم غداً يا (حسين) ، وإن غداً لناظره قريب ..
نعم ..
غداً لناظره قريب ..
قريب جداً ..

« لقد أطلقوا النار على (عبد الناصر) في (المنشية) .. »
هتف المأمور بتلك العبارة ، وهو يلقي نفسه على أريكة واسعة ، في دار
العمدة ، وقد شحب وجهه في شدة ، وراح يلهث ويتصبب عرقاً ، من فرط
التوتر والانفعال ، وشاركه العمدة توتره ، وهو يقول في صوت مختنق :
— كيف ؟ .. ولماذا ؟ .. و.....

قاطعهُ المأمور ، وهو يلوح بذراعيه في شدة :
— كان يلقي خطاباً ، كما يفعل رجال الثورة عادةً ، في السادس والعشرين
من أكتوبر ، عندما أطلق عليه أحدهم النار ، وراح (عبد الناصر) يهتف مطالباً
الناس بالبقاء في أماكنهم ، ومتحدّياً الرصاصات ، التي تنال عليه ، وصارحاً
بأنه لا يخاف الموت ، وبأنه لو مات (جمال عبد الناصر) ، فكل الشعب (جمال
عبد الناصر) ، وبأنه هو الذي علّمنا العزة والكرامة ، و.....
هتف العمدة مستكراً :

— هو الذي علّمنا العزة والكرامة ؟! ألم يملكهما شعبنا من قبل حتى أن
يولد (جمال) هذا ؟

أمسك المأمور يد العمدة في قوة ، وهو يقول في جدّة :
— دعك الآن من هذه النعرة القومية ، وأخبرني .. هل تجد رابطاً بين هذا
وتلك الشائعة ، التي تتردّد في القرية منذ مساء أمس ، عن عودة (حسين
البنهاوي) إلى عمله .

قال العمدة في جدّة :
— أنا لم أصدّق هذه الشائعة .

ثم صمت لحظة ، وأضاف في توتر :
— ثم كيف يرتبط هذا بذاك ؟ .. إن (عبد الناصر) لم يكن يعلم حقاً أن

أحدهم سيطلق النار عليه في (المنشية) .. أليس كذلك ؟
ازداد المأمور شحوباً ، وتراجع في الأريكة ، وعاد وجهه يتصبب عرقاً ،
وهو يتمم :

— من يدري يا رجل ؟ .. من يدري ؟

حُتّت (مديحة) الخطأ ، وهي تعبر الحقل ، في طريقها إلى جذع الشجرة
الكبيرة ، ولم تكد تلمح (مفيد) ، وهو يستند بظهره إلى الجذع القديم كعادته ،
حتى زادت من سرعة خطواتها ، وغمغمت في حب ، وهي تجلس إلى جواره :
— مساء الخير يا (مفيد) .

انزع نفسه من شروده ، وامتلاً وجهه بابتسامة حب حانية ، وهو يلتفت
إليها ، مغمغماً :

— مساء الخير يا (مديحة) .. كيف حالك ؟
تجرأت على مداعبة خصلة من خصلات شعره بأناملها ، وهي تهمس :
— في خير حال ، مادمت إلى جوارك يا (مفيد) .
تسلّت يده تحتضن كفها ، وهو يقول :

— كم أحبك يا (مديحة) :
— أطرقت في حياء ، وتضجّ وجهها بحمرة الخجل ، وهي تهمس :

— هل .. هل تحدّثت إلى (حسين) ؟
ضغط كفها في رفق ، مجيئاً :

— نعم .. لقد فعلت .
رفعت عينيها إليه ، تسأله في لفة :

— وبم أجاب ؟
تنهّد في عمق ، وقال :

— لم يجد الوقت ليفعل .
انقبض قلبها ، وهي تسأله في قلق :

— ماذا تعني ؟
قصّ عليها ما حدث في كلمات موجزة ، فأنكملت في موضعها ،

وغمغمت :
— هل تظنه يوافق ؟



أجابها في حزم :
— ليس أمامه سوى أن يفعل .
ازداد انكماشها ، وهي تتمم :
— قد يرفض ؛ لأن والدي ..
قاطعها في حزم :
— لن أمنحه الحق في هذا .

رفعت عينيها إليه في خيرة ، فأضاف :
— يبدو أنك لم تدركي لماذا انتظرت ، حتى أبلغ الحادية والعشرين .. لقد فعلت لأضمن قدرتي على القتال من أجلك يا (مديحة) .. إنني أسأل (حسين) رأيه من الناحية الأدبية فحسب ، بصفته شقيقى الأكبر ، أما من ناحية الحقوق فسأتزوجك ، شاء هو أم أبى ، ولن أسمح مخلوق واحد بفرض وصايته على عواطفى .

ترقرقت عيناها بالدموع ، وهي تتمم :

— حقاً يا (مفيد) ؟
رُبّت على كفها ، وضمت كفها إلى صدره في حرارة وحب ، وهو يقول :
— لن يفرقنا مخلوق يا (مديحة) .. صدقيني .
كانت تبغى تصديقه حقاً ، ولكن شيئاً ما في أعماقها كان يرتجف ..
ويكى ..

لم تشهد (مصر) كلها ، حتى هذا التاريخ . حملة اعتقالات واسعة ، كتلك التى حدثت ، بعد واقعة إطلاق النار على (جمال عبد الناصر) في المنشية ..
كل الإخوان المسلمين ..
كل السياسيين ، من عهد ما قبل الثورة ..
كل زعماء الأحزاب ..

كل خصوم الثورة ..
بل بعض أبنائها ..
التهمت النيران الجميع ..
حتى أصحابها ..

هكذا شعر (رفعت كساب) ، بعد أسبوعين كاملين من بداية حملة الاعتقالات ، عندما وجه (حسين البهاوى) أمامه في مكتبه ، فهتف والقلق يملأ نفسه :

— (حسين) .. كيف حالك يا رجل ؟ .. لقد علمت من (إبراهيم مكى) خبر عودتك إلى العمل ، وخروجك على رأس حملة اعتقال أعداء الثورة ، و.....

قاطعه (حسين) في برود :

— معذرة يا (رفعت) بك ، ولكنى لست هنا لزيارة عادية .. إن لى أوامر خاصة ومحدودة .

هوى قلب (رفعت) بين قدميه ، وخيل إليه أن مخاوفه كلها تتخذ صورة واضحة ملموسة ، وهو يحدّق في وجه (حسين) ، هاتفا بصوت متحشرج مختنق :
— أوامر محدودة ؟!

أجاب (حسين) بنفس البرود ، وبشيء من الصرامة :

— نعم يا (رفعت) بك .. معذرة .. إننى أنفذ واجبى .

ردّد (رفعت) مرة أخرى :

— واجبك ؟!

لم يشأ (حسين) إضاعة المزيد من الوقت ، في شرح ما لديه ، فقال في حزم :
— إن لى أمراً باعتقالك ، وتحديد إقامتك في منزلك ، تحت حراسة

ال

قاطعه (رفعت) صارخاً :

— إعتقالي؟! .. تحديد إقامتي؟! .. هل جنت؟

قال (حسين) ، في مزيج من الحزم والصرامة :

— أرجو ألا أضطر للجوء إلى القوة ، و.....

قاطعته (رفعت) صارخا :

— القوة؟! .. هل بلغ الأمر هذا الحد؟! .. هل نسيت من أنا ومن أنت

يارجل؟! .. إننى أحد رجال هذه الثورة! .. أنا الذى بنيت هذا الجهاز السرى

كله .. أنا الذى صنعت أمن الثورة منذ بدايتها ، أنسيت أنك كنت مجرد طالب

مجهول ، من طلاب الكلية الحرية ، وأنت ما كنت لتحلم ببلوغ ما بلغت

لولاى .. أنا الذى جذبك إلى هنا .. وأنا الذى ..

قاطعته (حسين) هذه المرة :

— إننى أنفذ الأوامر .

صرخ (رفعت) :

— أوامر من؟

أجابه في حزم :

— أوامر (جمال عبد الناصر) .

لوح (رفعت) بذراعيه ، وهو يصرخ :

— ومن أعطى (عبد الناصر) حق إصدار الأوامر .. إن (محمد نجيب)

لا يزال الرئيس الرسمى للبلاد ، وليس من حق مخلوق غيره إصدار مثل هذا الأمر .

مطأ (حسين) شفتيه ، وقال :

— إنك لم تترك لى الخيار إذن ياسيدى .

ثم انتزع مسدسه في حركة مباغته ، وأصقه بجهة (رفعت) ، وهو يستطرد :

— فأوامرى تقتضى قتلك ، في حال مقاومتك لأمر الاعتقال .

شحب وجه (رفعت) ، وجحظت عيناه في رعب وذهول ، ثم لم يلبث أن

انهار ، وأخفى وجهه بكفيه ، وهو يهتف :

— أنا لم .. لم أقاوم .

ثم رفع عينين مغرورقتين بالدموع إلى (حسين) ، واستطرد :

— ولكن اكراما لصداقتنا السابقة ، ورعايتى لك ، أرجوك أن تأمر الجنود

بحسن معاملتى .

رئت (حسين) على كفه ، وقال :

— اطمئن .

وعندما ابتعد الجنود بـ (رفعت كسآب) ، كانت عبارة من عبارات

الأميرة (عائدة) تتردد في عقل (حسين) ..

« وكما حدث في الثورة الفرنسية ، ستلهم هذه الثورة أبنائها .. وعهى .. »

لقد رأى بنفسه نصف النبوءة يتحقق ..

لقد بدأت الثورة مرحلة التهام أبنائها ..

ولكن هذا لم يقلقه هو بالذات ، بل منحه شعورا بالقوة ..

القوة بلا حدود ..

كانت ليلة شديدة البرودة ، من ليالى (نوفمبر) ، عندما طرق (حسين) باب شقته القديمة ، فى (جاردن سيتى) ، ووقف ينتظر ، وذكرياته تعود به إلى الماضى ، عندما كان يلتقى فى هذه الشقة بـ (عائدة) ، وعندما فاجأه فيها (إبراهيم مكى) ، و.....

وقطع (إبراهيم مكى) سيل ذكرياته هذه المرة ، عندما فتح باب الشقة ، التى استولى عليها ، بعد إقالة (حسين) ، وابتسم فى هدوء ، وهو يواجه هذا الأخير ، قائلاً :

— مرحباً يا (حسين) .. كنت أنتظرك .

تجاوزته (حسين) إلى داخل الشقة ، وراح يملأ عينيه بمحتوياتها ، التى لم تتغير منها قشة واحدة ، منذ رآها آخر مرة ، ثم التفت إلى (إبراهيم) ، وقال فى لهجة تحمل الكثير من الشماتة :

— أكنت تنتظرى حقاً ؟

ابتسم (إبراهيم) ابتسامة ماكرة ، وهو يقول :

— بالتأكيد .. إننى أعلم كيف تسير مثل هذه الأمور ، ومنذ اعتقال (رفعت كساب) أمس ، أعددتُ حقيبتى ، وجلست أنتظر .

شعر (حسين) بدهشة حقيقية ، وهو يواجه (إبراهيم) هذه المرة .. أدهشه كيف يتقبل مثل هذه الأمور ، بكل البساطة واللامبالاة ..

ولى شئ من الحدة ، سأله :

— أتعلم لماذا أنا هنا ؟

هز (إبراهيم) كتفيه فى هدوء ، وقال دون أن تفارق ابتسامته شففيه :

— لتعتقلى بالطبع .

أغاظه أن يعلم (إبراهيم) هذا ، وأن يتقبله بكل هذه البساطة ، إلى الحد الذى يفقده هو لذّة التشفى والظفر ، فعقد حاجبيه ، وقال :

— هذا يعنى أننى ربحت المعركة ..

أطلق (إبراهيم) ضحكة قصيرة ، وقال :

— بل ربحت هذه الجولة .

احتد (حسين) ، وهو يقول :

— ومن أدراك أنها ليست الجولة الأخيرة ؟

ابتسم (إبراهيم) فى سخرية ، وأشعل سيجارته فى بطاء وهدوء ، ونفث دخانها بعيداً ، قبل أن يقول :

— لا توجد جولة أخيرة ، فى لعبة الحكم والسياسة يا (حسين) .. كل ماتراه عبارة عن مرحلة ، ستمضى إن عاجلاً أو آجلاً ، وتأتى بعدها مرحلة تالية ، ثم مرحلة تالية ، وهكذا .. وفى هذه المرحلة تقوم أنت باعتقالى ، ولكن من يدري ، ربما أشرف أنا على إعدامك ، فى مرحلة قادمة ..

قالها وأطلق ضحكة ساخرة عالية ، انتفضت لها دماء الغضب فى عروق (حسين) ، وهتف :

— لن تأتى هذه المرحلة أبداً .

وانتزع مسدسه ، وصوبه إلى (إبراهيم) ، مستطرداً فى حدة :

— أتعلم أننى أستطيع قتلك الآن ، مدّعياً أنك حاولت الهرب ؟

هز (إبراهيم) كتفيه فى لامبالاة ، وقال :

— بالطبع .. ولن يحاسبك أو يعاقبك مخلوق واحد على هذا .. بل قد تحصل

على وسام الشجاعة والفداء .

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

— ولكنك لن تفعل .

جذب (حسين) إبرة المسدس ، وهو يقول في غضب :
— لن يمكنك أن تجرم .

عاد (إبراهيم) يهز كتفيه ، وينفث دخان سيجارته ، ثم قال :
— ربما أمكنتني أن أستعج ، فأنت تنتمي إلى أصل كريم ، وفي أعماقك تختفي
شهامة ريفية ، ستمنعك حتما من قتلى غيلة .

ران عليهما الصمت لحظات ، ومسدس (حسين) مصوب إلى رأس
(إبراهيم) ، ثم أعاد (حسين) إبرة مسدسه إلى موضعها ، وأعاد المسدس نفسه
إلى جيبه ، وهو يقول :

— لا بأس .. سأعفو عنك هذه المرة ، فالمصير الذي ينتظرك أسوأ من
الموت .

ابتسم (إبراهيم) ، وهو يطفى سيجارته ، ويلتقط حقيته ، قائلا :
— من يدري يا صديقي ، أين ينتظره المصير الأسوأ ؟

وعلى الرغم منه ، ارتجف جسد (حسين) ، وانحفرت العبارة في أعماق
أعماقه ، وهو يقود (إبراهيم مكى) إلى سيارة الجيش ، التي تنتظر لتقوده إلى
المعتقل ، وتابع السيارة ببصره وهي تبعد ، وعبارة (إبراهيم) تنازع لذة الظفر
في أعماقه ..

لقد تخلص من أقوى خصومه ..
ولكن المعركة لم تنته بعد ..
وانتقامه لم يتحقق إلى الآن ..
ولن يبدأ حتى يكتب له النصر ..
كل النصر ..

اندفعت (شريفة) في السراى ، تلقى نفسها بين ذراعى شقيقها
(حسين) ، وهي تهتف :

— (حسين) .. شقيقى الحبيب .. كم اشتقنا إليك .

طبع على وجنتها قبلة روتينية ، ثم أزاحها جانبا ، وأشار إلى سيارتى الشرطة
العسكرية ، اللتين تقفان إلى جوار سيارته ، وهو يقول في لهجة أمرة :

— أريد مأمور الناحية هنا ، بعد نصف الساعة فقط .. هيا .
انطلقت واحدة من السيارتين ؛ لتنفيذ الأمر ، في حين بقيت الثانية أمام
السراى ، وخطا هو داخل المكان في خطوات سريعة ، وهو يسأل (شريفة) :

— أين (مفيد) و (نعيمة) ؟

أجابته وهي تسرع خلفه :

— (مفيد) في الخارج ، و (نعيمة) مع ابنتها في حجرتها .
سألها وهو يجلس فوق مقعد والده ، ويضع إحدى ساقيه فوق الأخرى :

— أما زالت (نعيمة) ترغب في العودة إلى زوجها ؟

تنهدت ، وجلست على المقعد المجاور له ، قائلة :

— إنها تحبه كما تعلم .

ابتسم وهو يقول :

— لا بد من إعادته إليها إذن .

لم يكذب يتم عبارته ، حتى اندفعت (فاطمة) إلى المكان ، وهتفت بصوتها
الأجش ، الشبيه بأصوات الرجال :

— مرحبا يا (حسين) بك .. مرحبا .. أضأت السراى بقدمك ..

قاطعتها في صرامة :

— كفى .. لست أحب هذه الأساليب المتدلة .

رمقتها (شريفة) بنظرة شامتة ، في حين انكمشت هي في انكسار ،
وغمغمت في خفوت واستكانة :

— هل تحب أن أعده لك شيئا من الطعام ، أو

قاطعتها في ازدراء :

— لا.. ليس أنت .

ازدادت انكساراً ، وهي تقول :

— هل أخبر (حافظ) بقدمك ، أو أتيتك بـ (طارق) ؟

قال في صرامة :

— ليس الآن .. اغربى عن وجهي في هذه اللحظة .. هيا .

تراجعت في حزني ، وانسحبت في صمت ، فهتفت (شريفة) في شماتة :

— أحسنت الفعل .. هذا النوع من الفوغاء يحتاج إلى الحزم والصرامة .

ابتسم في زهو ظافر ، وربّت على كف شقيقته ، ثم نهض قائلاً :

— أخبري (نعيمة) أن تستعد .

سألته في دهشة :

— تستعد لماذا ؟

أجابها وهو يسرع إلى الخارج :

— للعودة إلى زوجها بالطبع .

حدّقت فيه غير مصدّقة ، وهو يغادر السراى ، ويقول لأحد جنود سيارة

الشرطة العسكرية :

— انتظر هنا يا رجل ، وأحضر المأمور إلى دار العمدة ، عندما يأتي به

زملاؤك .

ضرب الجندي كعبيه بعضهما ببعض ، وأدى التحية العسكرية في حماس ،

وهو يقول :

— كما تأمر يا سيدي .

أما (حسين) ، فقد انطلق بسيارته ، ولحقت به سيارة الشرطة العسكرية ،

وراح هو يقود سيارته عبر طرقات القرية الضيقة ، في زهو واضح ، والجميع

يتطلعون إلى موكبهم وهيئته ، حتى بلغ منزل (عمر) ، زوج (نعيمة) ، فأوقف

السيارة ، وغادرها وهو يقول لجنود الشرطة العسكرية :

— لا تسمحوا مخلوق بالاقتراب :

قفز الجنود من السيارة ، وشهروا أسلحتهم ، وهم يحيطون بباب المنزل ، في

عنف ، حتى فتح (عمر) الباب ، ووقف يحدّق في وجه (حسين) في شحوب

ورعب ، فدفعه هذا الأخير جانباً ، وخطا داخل المنزل ، وأغلق الباب خلفه ،

وهو يقول :

— أهلاً يا (عمر) .. كيف حالك وحال زوجتك الجديدة ؟

لم ينبس (عمر) ببنت شفة ، وهو يزداد شحوباً ، في حين اتخذ (حسين)

مجلسه في هدوء ، واستطرد في شماتة ساخرة :

— هل بلغت الأخبار الجديدة ؟ .. لقد تم اعتقال (محمد نجيب) ، وتحديد

إقامته في فيلاً (المرج) ، وعزله من منصب رئيس الجمهورية ، و (جمال عبد

الناصر) الآن هو الرجل الأوّل في (مصر) ..

ازدرد (عمر) لعابه الجاف في صعوبة ، وارتجف جسده في رعب هائل ،

وهو يستعيد ما فعله به (رفعت كساب) ورجاله من قبل ، في حين تابع

(حسين) :

— ولقد أسند إلّي (جمال عبد الناصر) مهمة اعتقال أعداء وخصوم

الثورة ، دون أن يقيدني بأعداد خاصّة ، مما يتيح لي اعتقال أيّ كائن أشاء .

انهار (عمر) تماماً ، وترقرت الدموع من عينيه ، حتى قال (حسين) :

— ولكنني لا أستطيع اعتقال زوج شقيقتي بالطبع .

ارتجف جسد (عمر) ، وهو يقول بصوت شاحب واهن :

— سأعيد (نعيمة) إلى عصمتي بالطبع .. الآن لو أردت .

مطّ (حسين) شفّته ، وقال :

— كنت أتمنى هذا ، ولكنني أرفض تماماً أن تكون شقيقتي زوجة ثانية .

انهار (عمر) أكثر ، وهو يقول :

— ولكن زوجتي حامل ، و.....

قاطعه (حسين) بصوت هادر :

— لست أقبل الأعذار يا رجل .. أنت تفهم ما أقول تمامًا .. لقد أرسلت في طلب مأذون القرية ، وسيكون عليك أن تطلق زوجتك طليقة بائة أولاً ، ثم تعقد قرانك على شقيقتي ، وتقيم لذلك حفلًا فاخرًا كبيرًا ، يفوق حفل زواجك الثاني ، وإلا فأعود لاصطحابك الليلة .. هل تفهم ؟

بكى (عمر) بدموع حقيقية ، وهو يقول :

— فهمت يا (حسين) بك .. فهمت .

وعندما غادر (حسين) منزل (عمر) ، كان شعوره بالظفر يتضاعف .. ويكبر ..

انتفض جسد العمدة ، عندما توقفت سيارة (حسين) أمام داره ، وهبط منها هذا الأخير ، وخلفه عدد من جنود الشرطة العسكرية ، ولكن انتفاضة العمدة لم تمنعه من فتح ذراعيه عن آخرهما ، وهو يندفع نحو (حسين) ، هاتفا :

— مرحبًا بالكريم ابن الكريم .. مرحبًا يا (حسين) بك ..

استقبله (حسين) بنظرة باردة ، وهو يقول :

— أهلاً يا عمدة .

ثم تجاوز الذراعين المفتوحين ، وجلس على أريكته مجاورة للباب ، وقال في لهجة تحمل رائحة ساخرة :

— سنستعير حجرة الضيافة لديك ، لأداء عمل ما يا عمدة .

هتف العمدة ، وهو يدفع في صوته أكبر قدر ممكن من الحماس :

— على الرُحْب والسَّعة يا (حسين) بك .

ابتسم (حسين) في سخرية ، ثم أشار إلى الجنود ، فأسرع أحدهم إلى الخارج ، ثم عاد بصحبة المأمور ، الذي لم يكذب يلمح (حسين) حتى اندفع نحوه هاتفا :

— (حسين) بك .. مرحبًا بك في ..

قاطعه (حسين) في صرامة :

— أتعلم أنني قد اقتنعت بمبدئك أيها المأمور ؟

توقَّف المأمور مبهوثًا ، وهو يقول :

— أي مبدأ يا (حسين) بك ؟

قال (حسين) في برود :

— مبدأ أن القرية لا تحتل وجود خائن داخلها .

استعاد ذهن المأمور على الفور موقفه السابق مع (حسين) عند مدخل

القرية ، فتفجرت الدموع من عينيه بغتة ، وهتف :

— الرحمة يا (حسين) بك !! الرحمة !

تجاهل (حسين) دموع الرجل ، وهو يقول :

— لهذا استصدرت قرارًا بإحالتك إلى التقاعد أيها المأمور .

بكى المأمور في حرارة ، و (حسين) يستطرد في شماته :

— ولقد تم نقلك أولاً إلى (كوم أمبو) ، في محافظة (أسوان) ، وعليك أن

تعدَّ العدة للانتقال مع أسرتك إلى هناك ، قبل أن يصلك قرار الإحالة إلى

التقاعد ، وأنصحك ألا تحاول العودة منها ، خشية أن يصدر قرار باعتقالك ..

هل تفهم ؟

بكى الرجل أكثر ، وهو يقول :

— أفهم يا (حسين) بك .. أفهم ..

قال (حسين) في صرامة :

— حسنًا .. والآن هيا .. انصرف .

انصرف المأمور منهارًا ، ودموعه تسيل في حرارة ، في حين شحب العمدة

شحوبًا شديدًا ، وانكمش في مقعده ، وهو يتابع ما حدث في رعب ، إلى أن

التفت إليه (حسين) ، قائلاً :

— هل توافقني فيما فعلت يا عمدة ؟
 احتبس صوت العمدة في حلقه لحظات ، ثم غمغم في صوت متحشرج :
 — أنت صاحب الأمر يا (حسين) بك .
 ابتسم (حسين) في سخرية ، وقال :
 — أحق يا عمدة ؟
 خفت صوت العمدة ، وشحب وجهه أكثر ، وهو يقول :
 — بالتأكيد يا (حسين) بك .
 مال (حسين) نحوه ، وسأله :
 — لماذا رفضت أن أتحدث من هاتفك إذن ؟
 لم يجب العمدة ، وإن شَفَّ اتساع عينيه عن إدراكه ، أن الدور قد حان ،
 ليلعب هو دور الضحية ، في حين اعتدل (حسين) ، مستطرذا :
 — لقد ألتى ذلك كثيرا يا عمدة ، حتى أنني قررت أن أحرملك من هذا
 الهاتف .

ارتجف قلب العمدة ، وهو يقول في ذعر :
 — تحرمني منه ؟
 أو ما (حسين) برأسه إيجابا في هدوء ، وقال :
 — نعم يا عمدة .. سأنقله إلى دار رجل آخر .
 ثم أردف ، وهو يتسم في شماعة :
 — إلى دار (عبد الحميد) ، والد (فاطمة) ..

٣٩ — الانتقال ..

حدَّق العمدة في وجه (حسين) في ذهول ورعب ..
 إنه سينتزع منه الهاتف الحكومي ..
 والهاتف الحكومي ، في منزل العمدة ، هو هيبته وكرامته ، ورمز سطوته ،
 في ريف (مصر) كله ..
 ثم لمن سيمتج (حسين) الهاتف ؟ ..
 لـ (عبد الحميد) ، العامل الأجير في أرض (البهاوى) !!
 وبكل الانفعال في أعماقه ، هتف العمدة :
 — لمن يا (حسين) بك ؟
 أجابه (حسين) في تشفٍّ :
 — لـ (عبد الحميد) والد (فاطمة) ، زوجة أخى يا عمدة ..
 هتف العمدة في انبهار :
 — ولكن منصب العمدة لم يخرج من عائلتي ، منذ مائتي عام أو يزيد .
 ابتسم (حسين) في شماعة ، وهو يقول :
 — وآن له أن يخرج يا عمدة .
 كانت هذه هي الصدمة التي لا يحتملها العمدة ..
 ولا أى عمدة ..
 لقد انهار المسكين ، وهو يردّد :
 — ولكن لماذا يا (حسين) بك ؟ .. لماذا ؟
 هزَّ (حسين) كتفيه ، وقال :

— إنها ضربة مزدوجة يا عمدة ، فانتخابات العمدة ستحين بعد أيام ، ولو فاز (عبد الحميد) بالمنصب ، فساكون قد رفعت من شأن زوجة أخى ، فبدلاً من أن تكون ابنة عامل أجير ، ستصبح ابنة العمدة ، ويصبح من اللائق أن يتزوجها أخى ، وفى الوقت نفسه أضمن وجود هاتف حكومى ، إذا ما أنت ولادة مبكرة .

قالتا ونهض مستطرداً فى حزم :

— أعد الهاتف يا عمدة ، فسيتم نقله إلى دار العمدة الجديد بعد أيام .
انقبض صدر العمدة ، وراحت أنفاسه تتلاحق فى ألم ، وشعر بنيران تستعر فى صدره الصدرى ، و (حسين) يقول :

— الوداع يا عمدة .

انتقل الألم إلى كنف العمدة ، وذراعه اليسرى ، وهو يغمغم :

— مستحيل !!

وعندما ابتعدت سيارة (حسين) ، وخلفها سيارتا الشرطة العسكرية ، كانت زوجة العمدة تصرخ ..

وكانت رائحة الموت تفوح فى المكان ..

« لقد قتلته »

هتف (مفيد) بالعبرة فى وجه شقيقه (حسين) ، الذى استقبل ثورته بصرامة ، وهو يقول :

— اهدأ يا (مفيد) .. لقد أصيب العمدة بأزمة قلبية أودت بحياته ، ولست مسئولاً عن كل من يموت .

صاح (مفيد) :

— ولكنك أنت قتلته .. إنه لم يحتمل انتزاع السلطة منه .

أشاح (حسين) بوجهه ، وكأنه ينهى الحديث ، قائلاً :



— كانت الظروف تختلف .

— وهذا لن يعنى من الزواج ، من الفتاة التى أحبها .

— كف عن تهورك وعنادك يا (مفيد) .. إننى الآن فى موقع الصدارة ، ويمكننى أن أزوجه ابنة وزير ، وأن أمنح (شريفة) زوجاً تحلم به أية فتاة فى (مصر) كلها .

— لو ظل الأمر على ما هو عليه ، فلن تتزوج (شريفة) أبداً .

وهل يعنى ذلك أن تتزوج أنت ابنة عامل حقير ؟

تراجع (مفيد) ، وتطلع إلى شقيقه فى تحد ، قائلاً :

— هذا هو الشيء الوحيد ، الذى لا يمكنك الحلولة بينى وبينه يا نصف الإله .. إننى فى الحادية والعشرين من عمري الآن ، وسأتزوج (مديحة) ، شئت هذا أم أبيت ، ولتعم وحدك بأموال أبى ، فلست أريد منها شيئاً .

قالها واندفع خارج المكان فى ثورة ، وانقبض قلب (شريفة) ، التى تستمع إلى الحوار منذ بدايته ، وخرجت من حيث تختبئ ، وربتت على كنف (حسين) ، وهى تقول :

— لا تجعل عناد هذا الآخرق يفسد شهيتك يا (حسين) .

قال فى غضب :

— إنه غيى .

ربتت على كنفه مرة أخرى ، دون أن تضيف كلمة واحدة ، فأزاح يدها فى خنق ، ثم جلس ، وضم كفيه أمام وجهه ، وبدأ أنه قد استغرق فى تفكير عميق ، فسألته فى تردد :

— هل أعد الطعام الآن ؟

التفت إليها فى شرود ، ثم تألقت عيناه بغتة ، وهب من مقعده ، وهو يهتف :

— لا .. ليس الآن .

ثم أسرع إلى حيث يقف أحد جنود الشرطة العسكرية ، وألقى على أذنه بعض أوامره ، فى صوت خافت ، أنهاه بأن أضاف فى صوت مرتفع بعض الشيء :

— انقلهما إلى مكبى فى (القاهرة) على الفور .. هل تفهم ؟

أدى الجندى التحية العسكرية فى قوة ، وقال :

— كما تأمر يا سيدي .

سألته (شريفة) فى قلق :

— بم أمرته ؟

ابتسم فى ظفر ، وهو يقول :

— بما سيحل المشكلة كلها .

ثم التقط قبعة الرسمية ، وأسرع إلى الخارج ، فلحقت به هاتفة :

— إلى أين ؟ .. ألن تتناول طعام الغداء ؟

أجابها وهو يفز داخل سيارته ، ويدير محركها :

— سأتناول فى مكبى فى (القاهرة) .

وابتعد بالسيارة ، وخلفه واحدة من ميارتى الشرطة العسكرية ، تاركاً

(شريفة) خلفه ، وهى تتساءل : عما يخفيه القدر ..

وترتجف ..

لم تشعر (مديحة) ، فى حياتها كلها بالخوف ، مثلما شعرت به تلك اللحظة ،

وهى تقف مع والدها ، بين صفين من جنود الشرطة العسكرية ، داخل ممر مبنى

حديث التشيد ، فى قلب (القاهرة) ..

لقد انتزعها الجنود مع والدها ، من دارهما الصغيرة ، ونقلوها إلى تلك

السيارة ، التى نقلتهما إلى (القاهرة) ، دون أن يسمحوا لهما بمجرد السؤال ..

وكان الرعب يملأ نفسها ونفس والدها ، مع مزيج من الخيرة والتشاؤم ..

ولم تنجح هى أبداً فى استنتاج سبب ما يحدث ، وإن لم يد لها الأمر خيراً ،

حتى قادها أحد الجنود مع والدها إلى حجرة واسعة ، فاخرة الأثاث ، يتصدرها

مكتب فاخر كبير ، لم تكده تلمح وجه الجالس خلفه ، حتى هتفت :

— (حسين) بك ١٩ ؟

كان المفروض أن يتزع منها وجوده قلقها ، إلا أن شيئاً ما في أعماقها ضاعف هذا القلق ، وحولّه إلى خوف وارتياح ، في حين شَفَّ صوت والدها عن فرحة الخلاص ، وهو يتقدّم نحو مكتب (حسين) ، صائخاً :

— (حسين) بك ١٩ .. هذا الله .. لقد تصوّرنا أن ..

أوقفه جندي الشرطة العسكرية ، وهو يقول في صرامة :

— قف يا رجل ، وإلا أطلقت عليك النار .

تجمّد (إسماعيل) في مكانه ، وتطلّع إلى (حسين) في خيرة ، وأدهشته حقاً تلك الابتسامة المزهوة ، التي ارتسمت على وجهه هذا الأخير ، وهو ينهض من خلف مكتبه ، ويتجه نحوه ، ثم يتطلّع إلى عينيه مباشرة ، ويقول :

— لماذا تعادى الثورة يا عم (إسماعيل) ؟

انفضت كل خلية في جسد الرجل ..

جفت كل قطرة دم في عروقه ..

وبكل الرعب ، راح يحذق في وجه (حسين) ، وقد اختفت الكلمات في حلقه وعلى لسانه ، في حين تراجعت (مديحة) كالمصعوقة ، وهتفت :

— يعادى الثورة ١٩ .. ماذا تقول يا (حسين) بك ؟

التفت إليها (حسين) ، وملاحه تحمل كل الغلظة والقسوة ، وقال :

— أقول إن أمامي قائمة ، تحمل اسم أبيك ، ضمن أسماء أعداء الثورة ، المطلوب اعتقالهم ، وإلحاقهم في السجون ، وانتزاع الإعرافات منهم بالقوة ، قبل محاكمتهم ، و.....

وأدار عينيه إلى (إسماعيل) ، مستطرداً في صرامة :

— وإعدامهم .

جحظت عينا الرجل في رعب هائل ، وخيّل إليه أن قدميه تعجزان عن حمله ، فترنخ في قوة ، وكاد يسقط أرضاً ، لولا أن أسرع (مديحة) تسنده بذراعيها ، وهي تهتف :

— ولكن هذا مستحيل !.. أنت تعرف أي منذ مولدك يا (حسين) بك ، وتعلم أنه لا شأن له قط بالساسة أو السياسة ، ثم إنه كان من أسعد أهل الأرض بقيام الثورة ، فكيف يعاديا ؟ وكيف .. ؟

زجر (حسين) في صرامة ، وهتف :

— لا أريد مناقشة :

— ثم صاح بالجندي :

— خذه إلى المعتقل .

لم يكد الجندي يطبق يده على (إسماعيل) ، حتى إنهار المسكين تماماً ، وصرخ :

— الرحمة !! الرحمة !

وهنا ابتسم (حسين) في ظفر ، وأشار إلى الجندي ، قائلاً :

— انتظر .

تراخت قبضة الجندي ، وانفجر (إسماعيل) باكياً ، في مشهد انفطر له قلب ابنته ، ففاضت الدموع من عينيها بذورها ، وهي تقول :

— لماذا تفعل بنا هذا ؟.. لماذا ؟

أجاب (حسين) في قسوة وصرامة :

— هناك بديل واحد لاعتقاله .

سألته في لهفة :

— ماهو ؟

أجابها في حزم :

— أن تغادر أسرتكم كلها القرية ، ولا تعود إليها أبداً .

لحظتها فقط أدركت المغزى وراء كل هذا ..

لحظتها فقط فهمت اللعبة ..

ولدفائق ، راحت تتطلّع في ألم ومرارة إلى عيني (حسين) ، وبدأ لها أنها تقرأ فيهما هدفه ..

إنه يمنعها من الزواج من (مفيد) ..

يتزعج حبا من قلبها انتزاعا ..

يا للقسوة !!

يا للعار !!

ولكن نظرة واحدة لأبيها المنهار الشاحب الباكي ، كانت تكفى لتحسم رأيا ، وتخفض عينها ، متممة في حزن الدنيا كلها :

— سنفعل .. سنفعل يا (حسين) بك .

تألفت عيناه ببريق ظافر ، وهو يقول :

— بقي أمر واحد .

سأله في ذل وانكسار :

— ما هو ؟

كاد قلبها يقفز من بين ضلوعها ، أو يتوقف عن الحفكان في صدرها ، عندما أجاب في قسوة صارمة :

— أن تتزوجي من أحد أبناء عمومتك .. الليلة ..

وهوى قلبها ذبيحاً ..

٤٠ — النهاية ..

شرد (مفيد) بأفكاره طويلاً ، وهو يجلس عند الشجرة القديمة ، ويرتكب بظهره إلى جذعها الكبير ..

كان كان يفكر في (مديحة) ..

في حبهما .. وعشقهما ...

وفكر في (مصر) ..

إنه قلبه يمتلئ بالخوف ، منذ رأى ما يفعله شقيقه باسم الثورة ..

بل ما تفعله الثورة بنفسها ..

أى مستقبل يتظر هذا البلد ؟ ..

أى مصير ؟ ..

أرخص رأسه مستنداً إلى الجذع ، وترك ذكرياته تسبح مع أيام حبه لـ (مديحة) ، حتى وجد نفسه يهتف :

— سأترؤجها .. سأترؤجها مهما كان الثمن .

لم يكذب بتم عبارته ، حتى لاح له ظل أنثوى يعدو نحوه من بعيد ، فهتف وقلبه يخفق في قلق مبهم ، لم يدرك لحظتها مفزاه :

— (مديحة) ؟ ..

ولكن لا .. إن صاحبة الظل أكبر حجماً ..

إنها لا تحمل رقة (مديحة) وحنانها ..

وفجأة اتضحت الصورة ، ووجد نفسه يهتف في دهشة بالغة ، وقد تضاعف القلق في أعماقه أضعافاً :

— (فاطمة) ؟ .. ماذا حدث ؟ ..

نهض يستقبلها وهي تلهث في شدة ، وتهتف به في انفعال :

— (مديحة) يا (مفيد) .. (مديحة) !

انتفض قلبه بين ضلوعه ، وبدا له صوتها الأجش أشبه بنعيق البوم ، وهو يمسك كتفها في قوة ، ويهتف بها :

— ماذا أصابها ؟ .. انطقي .. ماذا حدث ؟

حاولت أن تلتقط أنفاسها ، وهي تقول في انفعال :

— لقد عادت سيارة من سيارات الجيش ، وحملت أمها وأشقائها ، ورحل الجميع من القرية ، تحت حراسة مشددة .

صرخ بكل الفزع واللوعة في أعماقه :

— متى ؟ .. وكيف ؟ .. وماذا فعلوا به (مديحة) ؟

أجابت لاهثة :

— لقد أخذوا (مديحة) وعم (إسماعيل) منذ الظهر ، ثم عادوا للإلقاء القبض على الآخرين في المساء .

صرخ :

— عند الظهر ؟ .. ولماذا لم يخبرني أحد ؟ .. لماذا ؟

أجابته بصوتها الأجش :

— أنت تجلس هنا منعزلاً ، منذ شجارك مع (حسين) ، ولقد نخشيت إبلاغك لحظتها ، و.....

لم ينتظر لسمع حديثها ، بل دفعها بعيداً ، وراح يعدو نحو دار (إسماعيل) ، ولم يكذب يلفها حتى صرخ في لوعة ..

كان كل شيء محطماً منهاراً ، وكأنما دُكَّه قدم عملاقة ..

وكان المكان خالياً ..

لم يلتفت حتى أهل القرية حوله ، كما يحدث عادة ، وكأنما بات الجميع يحشون مجرد الوقوف في مكان وطنه قدم البطش ..

وبكل لوعته صرخ :

— (مديحة) .

ثم عاد يعدو نحو السراى ..

إنه يعلم من فعل بها هذا ..

يعلمه .. ولن يغفر له أبداً ..

ولم يكذب يقتحم السراى ، حتى رآه أمامه ..

رأى (حسين) يجلس هادئاً مبتسماً ، ويتطلع إليه في ظفر واضح ..

وبكل الغضب والثورة ، انقضَّ عليه ، وصرخ :

— ماذا فعلت به (مديحة) ؟

قبل أن يبلغه ، فوجئ بجنديين يكبلان ذراعيه ، ويمنعانه من الانقضاض على شقيقه الأكبر ، وسمع هذا الأخير يقول في صرامة :

— اهدأ أيها الغبي .. لقد أنقذتك من نفسك .

راح (مفيد) يقاوم الجنديين في استماتة ، وهو يصرخ :

— لست إلهاً يا (حسين) .. إنك لا تملك الحق في تصريف الأمور كما

تشاء .. أعد إلي (مديحة) .. أعد إلي من أحب .

عقد (حسين) حاجبيه ، وقال في صرامة :

— لم تعد هناك فائدة .

ثم أردف في قسوة حازمة :

— لقد تزوجت (مديحة) .

هبط الجزء الأخير على (مفيد) هبوط الصاعقة ، فتزلزل له كيانه ،

وارتجف له قلبه ، وانهارت أعماقه وهو يتمم :

— تزوجت ؟

وفي عينيه تجمعت قطرة دمع ، حملت كل مرارته وعذابه وألمه ، وتراخت

عضلاته ، وانهارت مقاومته ثمناً ، و (حسين) ينهض قائلاً في صرامة :

— انسها تمامًا .. لقد تزوّجت ابن عمها ، ورحلت ، ولن تعود إلى القرية أبداً .

ترك الجنديان (مفيد) ، الذي انهار مع قلبه ، وسقط على أقرب مقعد إليه ،
وشقيقه يغادر السراى ، وخلفه الجنديان ..
كيف ؟ ..

كيف خسر (مديحة) ؟ ..

لم يكن يصدّق ..

من المستحيل أن يفعل ..

وتناهى إلى مسامعه صوت محرك سيارة (حسين) تبتعد ، معلنة نهاية قصة
حبه ، وبداية عهد جديد ..

عهد بلا حب ..

وبكل الثورة في أعماقه ، صرخ (مفيد) :

— لا يا (مديحة) .. لا .. لا .

ولكن صرخته ضاعت في فراغ هائل ..

وتلاشت وسط ظلام طويل ..

وليل بلا أمل ..

[نهاية الجزء الأول]

أوراق

رواية اجتماعية طويلة



رواية اجتماعية طويلة ، تبدأ أحداثها مع البدايات الأولى لثورة الثالث والعشرين من يوليو ، عام ١٩٥٢ م ، وتحكي قصة أسرة ريفية ، ارتبط قدرها ، كما ارتبط قدر مصر كلها ، في تلك الأيام ، بالثورة وأبنائها ، وجرت بها الأحداث مثيرة ، عنيفة ، يتصارع فيها القديم مع الجديد ، والعدل مع القوة ، والحب مع المطامع ..

وفي خضم الأحداث تولد قصص الحب وتموت ، وتتضح صورة التغيير الاجتماعي المصاحب للثورة ، وتنمو أجيال جديدة ، تخطأ بأقدامها القديم .. كل قديم .

د. نبيل فاروق

م

التمن في مصر ٣٠٠
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم